إعجاز القرآن



التحدي

تأليف

دكتور حسين نصار

العميد السابق لكلية الآداب

جامعة القاهرة

الناشر

مكتبة مصر

٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

إلى عمى

الحاج أحمد نصار

ربما لولاه ما التحقت بالجامعة

الطبعة الأولى
١٩٩٩

شكـــــر

يدين هذا الكتاب ــ فى الوصول إلى ما وصل إليه ــ لعدد من الأصدقاء ، كان منهم من أهدانى كتبه ، ومنهم من أعارنيها ، ومنهم من استعارها من المكتبات الجامعية وأبقاها معى مددا طالت وقصرت . فأود أن أذكر من ما زالت الذاكرة تحتفظ بأسمائهم ، تعبيرا عن امتنانى لهم ولمن لم أذكره معهم .

أ.د. أحمد تمراز ــ الأستاذ بجامعة الإمام بن سعود الإسلامية بالرياض .

أ.د. أحمد حسين الصاوى ــ الأستاذ بجامعتى القاهرة والأمريكية سابقا .

د. أحمد عطا إبراهيم ــ المدرس بكلية الآداب بجامعة القاهرة .

أ.د. أحمد محمد الضبيب ــ مدير جامعة الملك سعود بالرياض سابقا .

د. البندرى العجلان ــ المدرسة فى كلية التربية للبنات بالرياض .

تغريد حسن أحمد ــ المعيدة بكلية الآداب بجامعة القاهرة .

أ.د. جابر أحمد عصفور ــ الأستاذ بكلية الآدالب بجامعة القاهرة .

د. جيهان رءوف

أ.د. حمد بن ناصر الدخيل ــ الأستاذ بجامعة الإمام .

د. زين العابدين محمد حسين ــ الأستاذ بكلية الآداب بجامعة القاهرة .

سليم الرشيد بإدارة كليات البنات بالرياض .

أ.د. سيد فرج راشد ــ الأستاذ بجامعة الملك سعود .

صالح بن حمد السفيانى ــ مدير المكتبات بوكالة كليات البنات بالرياض .

أ.د. الصفصافى المرسى ــ الأستاذ بكلية الآداب بجامعة عين شمس .

أ.د. عبد الله بن ناصر الوهيبى ــ الأستاذ بجامعة الملك سعود سابقا .

أ.د. عبد القدوس أبو صالح ــ الأستاذ بجامعة الإمام .

عبد النبى على أبو السعود ــ مكتبة جامعة الإمام .

د. عرفة حلمى عباس ــ المدرس بكلية الآداب بجامعة القاهرة .

على عبد الحميد ــ مكتبة جامعة الإمام .

فؤاد أحمد إسماعيل ــ مكتبة جامعة الملك سعود .

فؤاد إمام ــ مكتبة جامعة الإمام .

د. فهد بن عمر سنبل ــ المدرس بجامعة الملك سعود .

د. محمد أحمد عيسوى ــ المدرس بجامعتى القاهرة والإمام .

محمد حسن	ـ مكتبة جامعة الإمام سابقا .
محمد بن حسن الزير	ـ عميد مكتبة جامعة الإمام سابقا .
أ.د. محمد زغلول سلام	ـ الأستاذ بكلية الآداب ـ بنها .
محمد الصباغ	
د. محمد محمد أبو موسى	
د. محمد محمد الكحلاوى	ـ الأستاذ المساعد بكلية الآثار بجامعة القاهرة .
أ.د. محمود جبر ربداوى	ـ الأستاذ بجامعة الملك سعود .
د. مكرم عبد الفتاح عبد الخالق	ـ الأستاذ بجامعة الملك سعود والأزهر .
ممدوح محمد أمين	ـ مكتبة جامعة الإمام .
أ. مناع القطان	ـ الأستاذ بجامعة الإمام .
د. منير سلطان	ـ الأستاذ بكلية البنات بجامعة عين شمس .
أ.د. نادية عبد الحميد متولى	ـ الأستاذ بجامعة القاهرة .
أ.د. نصر حامد أبو زيد	ـ الأستاذ بجامعة القاهرة .
د. نورة صالح الشملان	ـ الأستاذ بجامعة الملك سعود .
د. وفاء كامل	ـ الأستاذ المساعد بجامعة القاهرة .

جميع العاملين فى المكتبات المركزية لجامعات الإمام والقاهرة والملك سعود وفى دار مصر للطباعة ومكتبة مصر .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

يطلب القرآن من المسلم أن يؤمن بالرسل والكتب السماوية[1] . وقد نستنبط منه أن كل صاحب رسالة من الله آتاه صحفا مطهرة ، تحتوى على كتب قيمة[2] . ونص من هذه الصحف على صحف إبراهيم وموسى[3] . وذكر أسماء توراة موسى ، وزبور داود ، وإنجيل عيسى . وأكد أنه لم يستقص كل الرسل[4] .

وتكشف أخبار الأمم أن كثيرا منهم كانت لديهم كتب تحتوى على تعاليم أديانهم ، ووصايا قيمهم وأعرافهم ، مثل كتاب الموتى عند قدماء المصريين ، وشريعة حمورابى ، وفيدا الهنود ، وأفستا الإيرانيين .

وتدل الدلائل أن كلا من هذه الأمم أحاطت كتابها بما أمكنها من عناية . ولكن مهما بلغ قدر هذه العناية ، فإنه صغير ، إلى جوار العناية الواسعة التى أحيط بها التوراة والإنجيل والقرآن ، ممن آمنوا بها ، ولأغراض متعددة .

والقرآن — من هذه الكتب الثلاثة — كتاب دعوة وتشريع وأدب . دعا إلى دين يضم أمة من أكبر الأمم ذوات الأديان العالمية ، وأتى بتشريع طبق منذ أكثر من أربعة عشر قرنا ، وما زال مصدر التشريع عند كثير من الدول .

وكان كتابا أدبيا أحاطت به عيون الإعجاب منذ كان إلى اليوم ، ومن الأعداء والأصدقاء ، تلقّى أول ما تلقى قولة الوليد بن المغيرة : « والله : إن لقوله الذى يقول لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه لمثمر أعلاه ، مغدق أسفله ، وإنه ليعلو ولا يُعلَى عليه ، وإنه ليحطم ما تحته » . وما زال — إلى عصرنا هذا — يتلقى أمثال هذه المقولة ، وما يفوقها إعجابا وبيانا وتفصيلا .

وقد أدى هذا إلى أن ينكبّ عليه العلماء — على اختلاف تخصصاتهم — دارسين ، حتى يمكن القول إنه لا يوجد أى مجال للدرس لم يتعرض له الباحثون . فكوّن هذا مكتبة من أثرى المكتبات تدور حول القرآن .

وقد اتخذت لدراستى مجالا واحدا من هذه المجالات ، هو إعجاز القرآن ، لأنه من أهم الدراسات الدينية الأدبية وأثراها . حث الباقلانى — فى القرن الهجرى الرابع — على دراسته ، ورآها أحق بكثير مما ألفه علماء اللغة والكلام . وبرر ذلك بأن نبوة محمد مبنية

(١) سورتا البقرة ٢٨٥ والنساء ١٣٦ .
(٢) سورتا فاطر ٢٥ والبينة ٢،٣ .
(٣) سورتا النجم ٣٦ والأعلى ١٩ .
(٤) سورة غافر ٧٨ .

على هذا الإعجاز[١] .

كذلك حث الجرجانى على هذه الدراسة ضمنا ، فى حثه على قراءة كتاب « دلائل الإعجاز » إذ قال : ينبغى لكل ذى دين وعقل أن ينظر فى الكتاب الذى وضعناه ، ويستقصى التأمل لما أودعناه[٢] .

وعاد الزركشى إلى التصريح بالعلم ، فرأى أنه علم جليل عظيم القدر ، لأن نبوة النبى معجزتها الباقية القرآن ، وذاك يوجب الاهتمام بمعرفة الإعجاز[٣] .

وبرر موسى شاهين لاشين فى العصر الحديث الاشتغال بهذا العلم بأن أهميته تتضح فى أنه متى ثبت إعجاز القرآن ، ثبت أنه ليس من كلام محمد ، وثبت أنه كلام الله وحده ، وثبتت نبوة محمد ، وثبت كل ما جاء به القرآن ، بل ثبتت الأديان الصحيحة والكتب الإلاهية كلها ، لأن القرآن هو الشاهد الخالد بها[٤] .

ورأى البوطى الحديث عن إعجاز القرآن من أهم الأبحاث المتعلقة بالقرآن وآدابه وعلومه ، وهو لبها وجوهرها ، وأساسها وعمدتها[٥] .

وذهب عمر الملاحويش إلى أن دراسة إعجاز القرآن أمر تستلزمه العقيدة الإسلامية ، لأن المسلمين مدعوون قاطبة للإيمان بهذا القرآن عن فهم لمعانيه ، ومعرفة بوجوه إعجازه[٦] .

وصرح عبد القهار العانى لئن كانت الكتابة فى إعجاز القرآن فى الماضى ضرورية ، مع ظهور العلم وانتشاره ، وارتفاع علم الإسلام وانتصاره ، فنحن — اليوم — أكثر مما سبق حاجة ، وأشد إغرابا ، وأقل إيمانا ، وأكثر جهلا[٧] .

وكنت أظن أننى أستطيع أن أحيط بما بقى من أعمال درست الإعجاز ، فلا أغادر كبيرة ولا صغيرة إلا بعد أن أخضعها لما أمكننى من درس . فإذا بى كلما أوغلت ، أجد أعمالا جديدة لم تمر — حتى — أسماؤها علىّ من قبل ، وأجد أسماء أعمال قديمة وحديثة ولا أستطيع الوصول إليها ، إما لبعد تاريخ التأليف ، أو بعد الموطن ، أو قلة المطبوع منها ، أو لأسباب أخرى متعددة .

فأنا إذن لا أستطيع ادعاء الاستقصاء الشامل ، ولكننى أدعى أننى بذلت كل جهد ممكن للحصول على كل كتاب فى الإعجاز أو تعرض له . فأنا أسعى إلى أن أؤرخ للتفكير العربى الذى دار حول قضية « إعجاز القرآن » .

---

(١) إعجاز ٨،٥ . صقر ٦٧ . ضيف ١٠٨ . أبو موسى ١٨٦ .
(٢) دلائل ٩ .
(٣) البرهان ٢/ ٩٠ . وانظر الإتقان ٢/٣٢٨ .
(٤) اللآلئ ٢٤٣ .
(٥) من روائع ١٤٧ .
(٦) تطور ٢١٧ .
(٧) دراسات ١٧٧ .

وأقصد بعبارة « التفكير العربى » ما أُنتج باللغة العربية حول هذه القضية ، ولو كان من أنتجوه يرجعون إلى أصول غير عربية ، مثل كثيرين من علماء الكلام والتفسير ، أو لا يؤمنون بالإسلام غير أنهم كتبوا باللغة العربية أو تُرجمت أعمالهم إليها .

وقد جعلنى هذا التصور أُهمل ما أصدره المسلمون بلغة غير العربية — مثل الفارسية والتركية والأردية — عن الإعجاز . وجعلنى أهمل ما أصدره غير المسلمين من أبناء القارات الستة ، بلغاتهم الخاصة ، تأييدا أو رفضا .

وأوضح أسباب هذا التَّرك العجز عن تتبع كل ما كتب عن الإعجاز فى جميع اللغات ، بل العجز عن تتبع ما أصدره المسلمون وحدهم باللغات التى يتحدثون بها ، والإيمان بأن القَدْر الذى أعرفه من بعضها لا يؤهلنى للاضطلاع بالدراسة الجديرة بهذا الاسم .

فإذا ما تُرجم شىء من هذا الإنتاج إلى اللغة العربية ، برز من ظلام الترك ، ووجب الاهتمام به مثله مثل الإنتاج العربى الأصيل ، لأنه — بهذه الترجمة — صار أحد عناصر الفكر العربى .

والأمر الذى يختص به الإنتاج المترجم أننى لم أعتد بتاريخ تأليفه ، وإنما عددت مبدأه تاريخ ترجمته ، لأنه هو التاريخ الذى ولج فيه إلى حقل التفكير العربى .

ويجدر بى — منذ الآن — أن أقر بأننى لست على يقين بأننى حصلت جميع الإنتاج العلمى ، على الرغم مما بذلت من جهود فى البحث والتفتيش . وإنما الشىء الذى أرجوه ألا أكون قد أهملت شيئا من الإنتاج المهم .

ولما أوغلت فى البحث ، وسبرت أغواره ، ووجدته بحرا محيطا يتعذر — فى كثير من الأحيان — بلوغ سواحله ، آثرت أن أركز عنايتى على المفسرين والكاتبين فى علوم القرآن ، وألا أجرى وراء علماء الكلام بل أقتصر — أو أكاد — على ما انتقل من أقوالهم من علم الكلام إلى حقول التفسير وعلوم القرآن ، لدخولها فى مجال التفكير العام ، وتعرض كثير من العلماء والمفكرين والكتاب لها ، وبُعدها — غالبا — عن الغموض الفلسفى .

وأقصد بعبارة « تاريخ التفكير » أننى بذلت كل جهد ممكن لرصد ما قاله المفكرون أو دونوه — باللغة العربية — فى كل واحد من العناصر التى تحتوى عليها قضية الإعجاز ، منذ النص الأول ، ثم تتبع ما أصابه من قبول أو رفض ، وما طرأ عليه من تحوير أو تجزئة أو تكملة ، إلى أن وصل إلى شكله الأخير فى منتهى الحديث عنه .

وقد هدانى هذا القصد إلى أن :

١ ــ أعدّ مبدأ الحديث « البشرى » عن الفكرة مبدأ لظهورها . أعنى بذلك أن كثيرا من الأفكار التى تكلم عنها العلماء أخذوها من القرآن أو الحديث أو وقائع التاريخ . فتاريخها ــ إذن ــ يرجع إلى تاريخ نزول الآيات التى تعرضت لها ، أو تاريخ صدورها من فم الرسول ــ ﷺ ــ أو تاريخ حدوثها . ولكننى لم أردّها إلى تلك التواريخ ، لأن الذى يعنينى تاريخ الفطنة بها ، والتنبه إليها ، والتعامل الذهنى معها .

وأقرب الأمثلة على ذلك ألوان المقاومة التى أبداها الكفار للإسلام . فإننى شرعت أتحدث عنها منذ وجدت علماء يذكرونها ، على الرغم من ذكر الآيات والأحاديث والسير لها قبل ذلك بزمن قد يكون بالغ الطول .

وقد اضطرنى هذا المبدأ إلى تناول العنصر الواحد ــ أحيانا ــ فى فصلين مختلفين ، لأن العلماء تحدثوا عنه فى هذا الفصل وذاك . مثال ذلك القتال عالجه العلماء فى فصلى دواعى المعارضة ، وألوان المقاومة . فقد كان من الرسول أحد دواعى المعارضة ، ومن الكفار أحد ألوان المقاومة .

٢ ــ أن أرتب فصول الكتاب ، وموضوعات الفصول ، وعناصر الموضوعات ، ترتيبا تاريخيا ، ليكون كل شىء فى الكتاب كاشفا لتطور التفكير ، مبرزا لكل واحد من مراحله ، كما يتبين فى ترتيب المعارضات ونقدها بخاصة ، وقد أدى هذا إلى أن يتصف الكتاب ببعض الغرابة فى تنسيقه لمخالفته الأعراف السائدة الآن فى التبويب والتفصيل .

وقد اتخذت من تاريخ وفيات الأعلام القدامى مقياسا للترتيب ، على الرغم من علمى بما فيه من جور ، لأن المتأخر فى الوفاة قد يكون متقدما فى الميلاد ، ولأن المتأخر وفاة من المتعاصرين قد يكون السابق فى إصدار كتابه .

أما المحدثون فقد اتخذت من تاريخ طبع الكتاب لأول مرة مقياسا للترتيب . ولكن الأمر لم يسلم بين يدىّ كل السلامة . فما أكثر ما عجزت عن العثور على تاريخ الطبعة ، بل على الطبعة الأولى نفسها والاضطرار إلى الاعتماد على طبعات تالية متأخرة كل التأخر ، مع علمى بأن كثيرا من المؤلفين ــ وبخاصة مؤلفى الكتب الدراسية ــ ينقحون ويزيدون وقد يحذفون فى مثل هذه الطبعات .

والمنهج الأمثل يوجب الحصول على جميع طبعات كل واحد من هذه المصادر ، واستقصاء الإضافات والتغييرات التى أُجريت عليها ، والبحث عن مصادرها ، ليسلم الرصد التاريخى . ولكن ذلك لم يتم لى . ولعل من يقوم ــ بعدى ــ بالتأريخ لواحد من الرجال الذين تعرضت لهم ، أو واحدة من الجزئيات التى تناولتها ، يوفق إلى ما لم أستطع .

وراعيت ـ فى التعليقات التى أوردتها أسفل الصفحات ـ الأمور التالية :

١ ـ بدأت بذكر أقدم المصادر التى أوردت المعلومة التى أخذتها منها .

٢ ـ عدلت عن المصدر الأقدم ـ إلى مصدر متأخر لأنه نسب المعلومة ـ إن كانت قولا أو رأيا ـ إلى صاحبها ، وابتدأت بهذا المصدر المتأخر .

٣ ـ إن أوردتُ مصادر أخرى بعد النوعين السابقين من المصادر مباشرة ، وفى سطرها نفسه ، وتحت أرقامها عينها ، كان فى ذلك إشارة إلى أن هذه المصادر أخذت المعلومة من المصدر الأصلى ، واتفاقها معه فى صيغة القول أو الرأى ، وفى نسبته إلى صاحبه . ومعنى ذلك أننى لم أذكر فى المتن المصادر التى اتفقت مع المصدر الأصلى ، ولا أشرت إليها ، اكتفاء بإيرادها فى التعليقات .

٤ ـ إن أوردتُ مصادر أخرى ، فى الرقم نفسه ، وبعد كلمة (انظر) فمعنى ذلك أن هذه المصادر لم تنسب القول إلى صاحبه .

٥ ـ أوردت أسماء أصحاب هذه المصادر وعناوينها على ما يسمى فى النحو بـ « الحكاية » أى دون أن أخضعه لقواعد الإعراب ، فأقول مثلا : انظر أبو موسى ... وأمثاله .

٦ ـ اضطررت أحيانا قليلة ـ إلى أخذ معلومات من مصادر حديثة ، لأننى عجزت عن الوصول إلى المصادر الأصيلة ، على الرغم من البحث المتواصل عنها .

٧ ـ لم أورد النصوص التى أخذتها من المصادر برمتها ، وإنما تصرفت فيها بالاختصار أو الإضافة للتوضيح وإلا صار الكتاب كله نصوصا منقولة نقلا كاملا ؛ كما صححت منها الكلمات التى أيقنت أن خطأ مطبعيا أو تحريفا لحقها .

آيـات التحدى

تحدى القرآن أعداء الإسلام أن يأتوا بمثله تحديا صريحا فــى عـدة آيـات أُوردهـا وفـق ترتيبها فى المصحف :

١ ـ ﴿ وإن كنتــم فـى ريـب ممـا نزّلنـا علـى عبدنـا ، فـأتوا بسـورة مـن مثلـه ، وادعـوا شهداءكم من دون الله ، إن كنتم صادقين ﴾ ـ سورة البقرة ٢٣ .

٢ ـ ﴿ أم يقولون : افتراه ؟ قل : فأتوا بسورة مثله ، وادعوا من استطعتم من دون الله ، إن كنتم صادقين ﴾ ـ سورة يونس ٣٨ .

٣ ـ ﴿ أم يقولون : افتراه ؟ قل : فأتوا بعشر سور مثله مفتريات ، وادعوا مــن استطعتم من دون الله ، إن كنتم صادقين ﴾ ـ سورة هود ١٣ .

٤ ـ ﴿ قل : لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، لا يـأتون بمثلـه ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ﴾ ـ سورة الإسراء ٨٨ .

٥ ـ ﴿ قل : فأتوا بكتاب من عند الله ، هو أهدى منهما أتّبعه ، إن كنتم صادقين ﴾ ـ سورة القصص ٤٩ .

٦ ـ ﴿ أم يقولون : تقوَّله ؟ بل لا يؤمنون * فليأتوا بحديث مثله ، إن كانوا صادقين ﴾ ـ سورة الطور ٣٣ ، ٣٤ .

التحــدى

الفصل الأول

تفسير آيات التحدى

من الطبيعى أن ينصب الحديث عن التحدى ــ قبل كل شىء ــ على آيات التحدى . فيضطلع بتفسيرها ، ويكشف عن مدلولاتها وما ينتج عنها . وأقدم خبر عثرت عليه كان عن مدلول كلمة ﴿ ادعوا ﴾ .

مدلول الدعاء

عزا أبو حيان محمد بن يوسف (٦٥٤ ــ ٧٤٥ / ١٢٥٦ ــ ١٣٤٤) إلى أبى الهيثم مالك بن التَّيِّهان الأنصارى (٢٠ / ٦٤١) أنه فسرها باستغيثوا مرة[١] ، وباستحضِروا مرة أُخرى[٢] .

وفسرها عبد الله بن عباس (٣ ق.هـ ــ ٦٨ / ٦١٩ ــ ٦٨٧) باستصرِخوا[٣] ، ويحيى بن زياد الفراء (١٤٤ ــ ٢٠٧ / ٧٦١ ــ ٨٢٢) باستعينوا[٤] ، ومحمد بن جرير الطبرى (٢٢٤ ــ ٣١٠ / ٨٣٩ ــ ٩٢٣) باستنصِروا[٥] ، وجمع محمود بن عمر الزمخشرى (٤٦٧ ــ ٥٣٨ / ١٠٧٥ ــ ١١٤٤) بينها وبين الكلمة الأخيرة فى آية سورة الإسراء ففسرها باستظهروا[٦] . وعندما اقتصر أبو حيان على معناها اللغوى المحض فسرها بالهَتْف باسم المدعوّ[٧] .

ويدلنا هذا على أن المسلمين عنوا بالتفسير منذ عهد مبكر كل التبكير ، وأن آيات التحدى كانت من أول الأمور التى جذبت أنظارهم ، فقد تعرض ابن التيهان لها قبل أن يمر على الهجرة عشرون عاما .

ويدلنا أن كثيرا من المفسرين أورد أكثر من شرح للكلمة ، وأن الشرح الذى راج بين المفسرين قديما وحديثا هو الاستعانة ، وإن كانت الشروح كلها تؤول إلى مدلول واحد .

---

(١) البحر ١/١٠٥ . وأورد التفسير دون أن ينسبه إلى أحد : الفراء ١/١٩ ، الطبرى ١/٣٧٧ ، الطوسى ١/١٠٥ .

(٢) البحر ١/١٠٥ . ونسبه إلى مجاهد : ابن عطية ١/٢٠٢ - ٣ . وإلى ابن كيسان : القرطبى ١/٢٣٣ .

(٣) ابن عطية ١/٢٠٢ .

(٤) معانى ١/١٩ . ونسبه إلى ابن كيسان : القرطبى ١/٢٣٢ ــ ٠٣ وأتى به غير منسوب : الطوسى ١/١٠٤ ، ٥/٣٧٩ . البغوى ١/٧٢ . الزمخشرى ٢/٢٣٧ . الطبرسى ١/٦٢ . ابن جزى ٢/١٨٦ . ابن كثير ١/٥٩، ٤٤٧ . الشوكانى ٢/٤٦٢ . الآلوسى ١/١٩٥ ، ١١ /١١٨ ، ١٢/٢١ . الصابونى ٩٤ . عتر ١٥٨ ، ١٦٠ . أبو الخشب ١١٣ .

(٥) جامع ١/٣٧٧، ٣٩٩ . الطوسى ١/١٠٥ . الطبرسى ١/٦٢ . عتر ١٥٧ .

(٦) الكشاف ١/٢٤٦ . روح ١١ / ١١٨ .

(٧) البحر ١/١٠٢ .

المماثـــل

اختلف العلماء فيمن يعود عليه الضمير في قوله تعالى : ﴿ بســورة مثلـه ﴾ فـاختلفوا — تبعا لذلك — في المطلوب مماثلته في التحدى .

القرآن

ونصّ أقدم خبر عثرت عليه على أن القرآن هو المطلوب مماثلتـه . روى ذلـك الـرازى محمد بن عمر (٥٤٤ — ٦٠٦ / ١١٥٠ — ١٢١٠) عن عمر بن الخطاب (٤٠ ق هـ — ٢٣ / ٥٨٤ — ٦٤٤) وعبد الله بن مسعود (٣٢ / ٦٥٣) وعبد الله بن العباس والحسن ابن يسار البصرى (٢١ — ١١٠ / ٦٤٢ — ٧٢٨) وأكثر المحققين[1] .

ووضّح الطبرى الأمر فذكر أن معنى هذا القول أن الله قال لمن حاجّه في نبيه محمد — ﷺ — من الكفار : فأتوا بسورة من مثل هذا القرآن من كلامكم أيتها العـرب ، كما أتى به محمد بلغاتكم ومعانى منطقكم[2] .

ونسبه إلى مجاهد بن جبر (٢١ —١٠٤ / ٦٤٢ — ٧٢٢) وقتادة بن دعامة السَّدوسى (٦١ — ١١٨ / ٦٨٠ — ٧٣٦)[3] .

محمـــد

وروى الطبرى عـن قـوم آخريـن لم يذكـر أسمـاءهم : أن المعنـى مـن مثـل محمـد مـن البشر[4] .

---

(١) ابن مسعود ٣٥/٢ . الرازى ١١٨/٢ . ابن كثير ٥٩/١ .

(٢) جامع ٣٧٣/١ — ٤ ، ٣٧٧ . القرطبى ٢٣٢/١ . ابن كثير ١ / ٥٩ ، ٤٤٧ .
ونسبه ابن عطية إلى جمهور العلماء : المحرر ٢٠١/١ ، ٧٠/١٤ .
وأتى به غير منسوب : الفراء ١٩/١ . الطبرى ٩١/١٥ . الطوسى ١٠٤/١ — ٥ . ٣٧٨/٥ ، ٤٥٧ ، ٦/ ٥١٧ . البغوى ٧٢/١ . الزمخشرى ٢٤١/١ — ٢ . ابن عطية ١٥٢/٧ ، ١٤ / ٧٠ . الطبرسى ٦٢/١. الرازى ١١٨/٢ . القرطبى ٢٣٢/١ ، ٧٣/١٧ . ابن جزى ٧١/١ . أبو حيان ١٠٤/١ — ٥ ، ١٥٨/٥ . الزركشى ٩١/٢ . الشوكانى ١١٠/١ . الآلوسى ١٩٣/١ — ٤ ، ١٢ / ٢٠ . رضا ١٦٠/١ ، ١٦٢ ، ٣٠٣/١١ . الحمصى ١٠٥ ، ١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٤٩ ، ١٦٤ ، ١٧٣ ، ١٩٠ ، ١٩٥ — ٦ . والحق إن جميع التفاسير أوردت هذا القول ، وإن أكثرها أيضا أورد بأن المعنىّ محمد .

(٣) الطبرى ٣٧٣/١ — ٤ . القرطبى ٢٣٢/١ . ابن كثير ٥٩/١ .

(٤) جامع ٣٧٤/١ . وانظر التعليق على القول بعودة الضمير إلى القرآن .

الكتب المقدسة

ذكر عبد الحق بن غالب المعروف بابن عطية (٤٨١ — ٥٤٢ / ١٠٨٨ — ١١٤٨) أن طائفة من العلماء ذهبت إلى أن الضمير فى (مثله) عائد على الكتب القديمة : التوراة ، والإنجيل ، والزبور[١] .

واقتصر محمد بن أحمد القرطبى (٦٧١ / ١٢٧٣) على التوراة والإنجيل ، وصرح بأن المعنى — حينئذ — فأتوا بسورة من كتاب مثله ، فإنها تصدق ما فيه[٢] .

وأعاد أبو حيان الضمير على القرآن ، وفى الوقت نفسه ذكر أن المراد بالمثل الكتب المقدسة ، فالمعنى عنده : هاتوا مثله فى كونه من كتب الله المنزلة على من قبله يشهد لكم بأن ما جاءكم به محمد ليس من عند الله[٣] .

اللّـــه

قال كمال الدين عبد الواحد بن عبد الكريم الزملكانى (٦٥١/١٢٥٣) : فإن قلت : الضمير فى (مثله) عائد إلى الله . قلت : يُضعفه قوله تعالى : ﴿ فأتوا بعشر سور مثلـه ﴾ والسياق واحد[٤] .

وجوه المماثلة بالقرآن

تعددت الأقوال فى الوجه الذى تحدى به القرآن من تحداهم أن يأتوا بمثيل له فيه . وهاك ما عثرت عليه :

١ — الفصاحة

عزا الرازى وجهين إلى عمر بن الخطاب وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عباس والحسن بن يسار البصرى وأكثر المحققين . وكانت الفصاحة أحدهما[٥] .

وذكر ابن عطية عدة وجوه ، كان منها فصاحة المعانى التى يعرفونها[٦] . وعزا إليه القرطبى أنه ذكر : توالى فصاحة الألفاظ[٧] ، ولكننى لم أجد هذا القول فى تفسيره لآيات

---

(١) المحرر ٢٠٢/١ . (٢) الجامع ٢٣٢/١ . وأورده غير منسوب : الشوكانى ١١٠/١ .
(٣) البحر ١٠٥/١ . (٤) البرهان ٥٦ . وأورده الزركشى ٩٨/٢ غير منسوب .
(٥) ابن مسعود ٣٥/٢ . مفاتيح ١١٨/٢ .
وانظر عبد الجبار ٢٢١/١٦ —٢ ، ٢٢٦ ، ٢٧٨ — ٩، ٣٢٠، ٣٥٧ . الطوسى ١٠٤/١، ٥١٧/٦. ابن عطية ٢٠١/١ ـ ٢. الطبرسى ٦٢/١، ١٢ /١٤٧ ، ١٦٨/٢٧ . الرازى ١٩٥/١٧ . القرطبى ٧٦/١. ابن جزى ٧٢/١ ، ١٨٦/٢ . العلوى ٤٠٥/٣. أبو حيان ١٠٤/١ . ابن كثير ٥٩/١ . الزركشى ٩٨/٢، الجلالان ٢١٣ ، ٢٤٤ ، ٣٢٢ . رضا ٣٠٤/١١ — ٥ . الزرقانى ٦٩/١ . الحمصى ١٢٦ — ٧ ، ١٩٥ ، ٢٠٩ ، ٣١٩ ، ٣٢١ . عرجون ١٤٠ . الصابونى ٩٧ . عتر ١٥٦ .
(٦) المحرر ٢٠١/١ — ٢ . (٧) الجامع ٧٦/١ .

التحدى . ولعله ذكر ذلك فى موضع آخر من تفسيره ، إن لم يكن القرطبى قد تصرف فى عبارته .

ووصف محمد رشيد رضا (١٢٨٢ ـ ١٣٥٤ / ١٨٦٥ — ١٩٣٥) هذه الفصاحة بالمستعذبة فى الأذواق والأسماع[١] . وجعلها محمد الصادق عرجون لا ينافسه فيها بيان[٢] ؛ ود. حسن ضياء الدين عتر فصاحة بيان أو فصاحة عبارة[٣] .

٢ ـ النظم

وكان الوجه الثانى عند عمر بن الخطاب وجماعته : حسن النظم[٤] . واكتفى أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (١٦٣—٢٥٥ / ٧٨٠ — ٨٦٩) بذكر النظم مجردا[٥] . وذكر الزمخشرى محمود بن عمر مرة : غرابة النظم[٦] ، ومرة : علو الطبقة فى حسن النظم[٧] ؛ ومحمد بن محمد العمادى المكنى بأبى السعود (٨٩٨ — ٩٨٢ / ١٤٩٣ — ١٥٧٤) : النظم الرائق[٨] ؛ ورضا : النظم البديعة[٩] ؛ وأحمد مصطفى المراغى : (١٣٧١ / ١٩٥٢) النظام البديع[١٠] ؛ ومحمد الصادق عرجون مرة : سمو النظم فى الأسلوب[١١] ، ومرة : اتساق النظم[١٢] .

---

(١) المنار ١٢ / ٢٨ . الحمصى ٣٢١ وانظر ٣٨٩ .　　(٢) القرآن ١٣٨ .

(٣) بينات ١٥٦ ـ ٧ .　　(٤) ابن مسعود ٣٥/٢ . مفاتيح ١١٨/٢ .

وانظر الزمخشرى ٢٤٢/١، ٢٣٧/٢ ، ٤٦٥ . الطبرسى ٦٢/١ . أبو حيان ١٠٥/١ ، ١٥٨ ، ٢٠٨ . الجلالان ٦ . أبو السعود ٦٦٦/١ ، ٦٣/٢ . الشوكانى ٥٠٠/٢ ، ٢٦٣/٣ . الآلوسى ٢٠/١٢ ، ١٥/ ١٦٦ . رضا ٣٠٥/١١ . الحمصى ١٢٧ ، ١٦٤ ، ١٧٠ ، ١٧٤ ، ٢٠٠ ، ٢٠٩ ، ٣٢٠ . عتر ١٥٥ .

(٥) حجج ١٣١/٣ ، ١٤٣ . لاشين ٤٣١ . سلطان ٦٠ .

وانظر الباقلانى ٢٦٠ ـ ١ . الطوسى ١ / ١٠٤ ، ٤٥٧/٥ ، ٥١٧/٦ . الجرجالى ٢٥١ ، ٦٠٦. البغوى ٣٩٢/٧ . الزمخشرى ٩٦/١ ، ٢٤٢ ، ٢ / ٢٣٧ ، ٢٦١ ، ٤٦٥ . ابن عطية ٢٠١/١ ، ١٥١/٧ ، ٢٥١ ، ١٨٦/٩ ، ١٩١ . ٦٩/١٤ . الطبرسى ٦٢/١ ، ١٢ / ١٤٧ ، ١٦٨/٢٧ . ابن الجوزى ٥٥/٨ . الرازى ١١٨/٢ . برهان الزملكانى ٥٥ ـ ٦ . القرطبى ٧٦/١ . العلوى ٤٠٥/٣ . أبو حيان ١٠٤/١ — ٥ ، ١٥٨/٥ ، ٢٠٨ ، ١٥٢/٨ . الزركشى ٩٨/٢ ، ١٠٠ ، ١١٠ . الشوكانى ٥٠٠/٢ ، ٣ / ٢٦٣ ، ١٠٠/٥ . الآلوسى ١٩٤/١ ، ١٢ / ٢٠ ، ١٥ / ١٦٦ ، ٣٧/٢٧ . رضا ١٦١/١ ، ١١ / ٣٠٢ . الحمصى ٢١ ، ١٢٧ ، ١٦٤ ، ١٧٠ ، ١٧٤ ، ١٨٠ ، ٢٠٠ ، ٢٠٢ ، ٢٠٩ ، ٣١٨ ، ٣٢٠ ، ٣٢٥ ـ ٦ ، ٣٨٩ . شاكر ١٧ ، ١٨ . عرجون . ١٤٠ ، ١٤٢ . أمين ١٤٧ . الصباغ ٥٥ . عتر ١٥٣ ـ ٥ ، ١٦١ .

(٦) الكشاف ٩٦/١ .　　(٧) الكشاف ٢٤٢/١ . أبو حيان ١٠٥/١ .

(٨) إرشاد ٤٥/١ . الحمصى ١٧٠ . وانظر القاسمى ٧٢/١ .

(٩) المنار ٢٨/١٢ . الحمصى ٣٢١ . وانظر ٣٨٩ .

(١٠) الحمصى ٣٨٩ . وكذا ورد الوجه عند المراغى وأبى السعود ، وقد تعطى كلمتاهما مدلولا غير مدلول النظم ، ولكنى أعتقد أنهما أراداه .

(١١) القرآن ١٤٠ .　　(١٢) القرآن ١٤٢ .

٣ ـ الحق

ذكر الطبرى أن قتادة ذهب إلى أن وجه التحدى فى كون القرآن حقا وصدقا ، لا باطل فيه ولا كذب[١] . وعدّ ابن عطية الصدق أحد الوجوه[٢] .

٤ ـ التأليف

ذكر الجاحظ هذا الوجه مع النظم عندما تعرض لوجه التحدى[٣] . ولعله كان يرى الكلمتين بمدلول واحد .

وذهب ابن عطية إلى أن القرآن خُصّ بهذا التأليف ، وبه وقع الإعجاز على قول حُذّاق أهل النظر[٤] .

٥ ـ أخبار الغيب

ذكر البغوى الحسين بن مسعود (٤٣٦ ـ ٥١٠ / ١٠٤٤ ـ ١١١٧) أن محمد بن يزيد المبرد (٢١٠ ـ ٢٨٦ / ٨٢٦ ـ ٨٩٩) فرق بين وجه التحدى فى سورتى يونس والبقرة ، وذهب إلى أن المطلوب فى يونس : الخبر عن الغيب[٥] ، والأحكام ، والوعد والوعيد ، ورفض الباقلانى أن يكون التحدى فى الإنباء بالغيب ، لأن معنى ذلك أن المشركين يستطيعون أن يأتوا بمثل نظمه ، وهو موضع الإعجاز الحق[٦] .

ونسب ابن عطية هذا الوجه إلى جماعة من المتكلمين . ثم رفضه قائلا : فيه ـ عندى ـ نظر . وكيف يجىء التحدى بمثله بمماثله فى الغيوب ردا على قولهم : « افتراه » ؟ وما أُلزِموا ـ قط ـ إتيانا بغيب . فبَيَّن أن البشر مقصِّر عن ذلك[٧] .

ويبدو أنه سها فقبل التحدى بالغيب فى تفسيره لسورة هود ، حيث قال عن المماثلة فى يونس : هذه مماثلة تامة فى غيوب القرآن ومعانيه ونظمه ووعده ووعيده ، وذهب

---

(١) الجامع ٣٧٣/١ . وانظر الزرقانى ٦٩/١ . الصابونى ٩٧ .

(٢) المحرر ٢٠١/١ ـ ٢ . وانظر أبو حيان ١٠٤/١ ـ ٥ . رضا ١٦٢/١ .

(٣) حجج ١٣١/٣ ، ١٤٣ . عبد الفتاح لاشين ٤٣١ . سلطان ٦٠ .
وانظر الباقلانى ٢٦٠ ـ ١ . الطوسى ١٠٥/١ . الزمخشرى ٤٦٥/٢ . ابن عطية ٢٠٢/١ . أبو حيان ١٠٤/١ . الزركشى ٩٣/٢ . الحمصى ١٧٤ ، ٢٠٩

(٤) المحرر ٢٠٢/١ . (٥) معالم ١٦٥/١٢ .
وانظر ابن عطية ٢٠٢/١ ، ١٥١/٧ ، ٢٥٠ ـ ١ ، ١٩٢/٩ . الطبرسى ٦٢/١ . أبو حيان ١٠٤/١ ـ ٥ ، ٥ / ٢٠٨ ، ١٥٢/٨ . الجلالان ٦ . الفيروزآبادى ١٨١ . أبو السعود ٦٣٨/١ . الآلوسى ٢١/١٢ . رضا ١٦١/١ ـ ٢ ، ١٢ / ٢٨ . الزرقانى ٦٩/١ . الحمصى ٢١ ، ٢٤ ، ١٥٧ ، ١٦٠ ، ١٧٠ ، ١٧٣ ـ ٤ ، ١٨٠ ، ١٩٥ ، ٢٠٠ ، ٢٠٢ ، ٢٠٩ ، ٣١٨ ، ٣٢٠ ، ٣٢٢ ، ٣٨٩ . الصابونى ٩٧ . عز ١٥٥ . (٦) وأرادوا بالغيب المجهول ماضيه وحاضره ومستقبله ، إعجاز ٢٥٠ .

(٧) المحرر ١٥١/٧ ، ٩ / ١٩١ . وانظر شاكر ١٧ .

إلى أن المماثلة المطلوبة فى هود مقصورة على النظم . وعلى هـذا المبـدأ عـاب مـن ادعـوا تقدم سورة هود فى النزول على يونس ليضطرو الترتيب التنازلى فـى التحـدى ، ورمـاهم بأنهم لم يلحظوا الفرق بين التكليفين ، فـى كمـال المماثلـة مـرة ، ووقوفهـا علـى النظـم مرة[١] .

٦ ــ الأحكام

ذكر المبرد فى وجوه التحدى فى سورة يونس ــ كما رأينا فى النص الذى أوردته فى الوجه السابق ــ المجىء بالأحكام[٢] .

ووسع محمد رشيد رضا التعبير عن هذا الوجه ، فقال : الاشـتمال علـى مثـل مـا فـى القرآن من تشريع دينى ومدنى وسياسى[٣] .

٧ ــ الوعد والوعيد

هو الوجه الثالث من وجوه التحدى فى سورة يونس عند المبرد[٤] .

٨ ــ البلاغة

جعلها المبرد مجردة وجه التحدى فى سورة هود ، دون أن يكون معها خـبر ولا وعـد ولا وعيد[٥] . ورأى محمد بن الحسن الطوسى (٣٨٥ ــ ٤٦٠ / ٩٩٥ ـــ ١٠٦٧) أنهـا الطبقة العليا من البلاغة[٦] .

وذكر محمد بن علـى الشـوكانى (١١٧٣ ـــ ١٢٥٠ / ١٧٦٠ ـــ ١٨٣٤) كمـال البلاغة[٧] ؛ ورضا البلاغة الحاكمة على العقول والألبـاب[٨] ؛ وأحمـد مصطفـى المراغـى

---

(١) المحرر ٧/١٥٠ ــ ١ . وانظر أبو حيان ٥/٢٠٨ .

(٢) البغوى ١٢/١٦٥ . الآلوسى ١٢/٢١ .
وانظر الحمصى ٢١ ، ٢٠٢ ، ٣٨٩ . الصابونى ٩٢ . عتر ١٥٥ .

(٣) المنار ١٢/٢٨ . وانظر الحمصى ٣٨٩ . العطار ٥٤ .

(٤) البغوى ١٢/١٦٥ . الآلوسى ١٢ / ٢١ .
وانظر ابن عطية ٧/٢٥١. أبو حيان ١/١٠٥، ٥/٢٠٨ . الفيروزآيـادى ١٨١ . رضـا ١١/٣٠٢. الحمصى ١٥٧ ، ٣١٩ . عتر ١٥٥ .

(٥) البغوى ١٢/١٦٥ . الآلوسى ١٢/٢١ .
وانظـر الطوسـى ٥/٣٧٩، ٤٥٧، ٦/٥١٧ ، ٩/٤١٧ . الزمخشـرى ٢/٢٣٧ ، ٤٦٥ . الطبرسـى ١١/١١٠ . العلـوى ٣/٤٠٥ . أبـو حيـان ٥/١٥٨ ، ٨/١٥٢ . الزركشـى ٢/١١٠ . الجـلالان ٦، ٢٣٣، ٢٤٤، ٣٢٢ . أبـو السـعود ٦٣٨، ٣٦٦، ٢/١٣ . الشـوكانى ٢/٤٦٢ ، ٥٠٠، ٣/٢٦٣ . الآلوسى ١/١٩٣ ــ ٤ ، ١١ / ١١٨ ، ١٢/٢٠ ــ ١ ، ١٥ / ١٦٦ . رضا ١/١٥٩ ، ١٦١ ـــ ٢ ، ٨/١٥١ ، ١٦١ ، ١١/٣٠٤ ، ١٢/٢٠ ، ٢٨ . الحمصـى ٢١ ، ١٦٤ ، ١٧٠ ، ١٧٤ ـــ ٥ ، ١٨٠، ٢٠٠، ٢٠٢ ، ٢٠٩ ، ٣١٩ ــ ٢١ ، ٣٢٤ ــ ٦ ، ٣٧٥ ، ٣٨٩ ، ٤١١ . عرجون ١٣٨ ــ ٩ ، ١٤١ ــ ٣ ، ١٥٥ . الصابونى ٩٢ . عتر ١٥٥ ــ ٧ .

(٦) التبيان ٦/٥١٧، ٩/٣١٢. وانظر عرجون ١٣٨، ١٤٢ ــ ٣، ١٥٥ .

(٧) فتح ٥/١٠٠ .

(٨) المنار ١٢/٢٨

البلاغة الساحرة للألباب[١] ؛ ومحمد الصادق عرجون مرة : بلوغ الذروة البلاغية حتى لا يلحق به في درجته وعلو طبقته أسلوب[٢] ، ومرة : الفَوْق [التفوق] البلاغي[٣] .

٩ ـ المعانى

رفض الطبرى أن يكون التحدى فى المعانى التى بايَن [فارق] القرآن بها سائر الكلام[٤] ، مما يدل على أن هناك من قال ذلك .

وذكر ابن عطية مرة المعانى مجردة[٥] ، ومرة رصف المعانى[٦] ، ومرة فصاحة المعانى التى يعرفونها[٧] ، ورابعة صحة المعانى[٨] ؛ وأبو حيان إتقان المعانى[٩] ؛ وأبو السعود مرة قوة المعنى[١٠] ، ومرة كمال المعنى[١١] ؛ والشوكانى فخامة المعنى[١٢] ؛ والآلوسى جزالة المعنى[١٣] ؛ والمراغى حسن المعنى[١٤] ، وعرجون ثروة المعانى المبدعة[١٥] ؛ ود . حسن ضياء الدين عتر حقائق المعانى[١٦] .

ونفى محمد الصباغ أن تكون المعانى هى المقصودة ، ورأى أن القصد أن يأتوا بما يستطيعون افتراءه واختلاقه من كل معنى أو غرض مما يعتلج فى نفوس البشر[١٧] . ولا أجد فرقا واضحا بين رأيه ورأى من عدوا المعانى من وجوه التحدى .

١٠ ـ البيان

عده الطبرى وجه التحدى ، لأن الله أنزل القرآن بلسان عربى ، فكلام العرب ـــ

---

(١) الحمصى ٣٨٩ . (٢) القرآن ١٣٨ .
(٣) القرآن ١٣٩ ، ١٤١ .
(٤) جامع ٣٧٥/١ . وانظر الزركشى ٩٩/٢ . شاكر ١٨ . الصباغ ٦٤ . أبو سليمان ١٠٧ . وانظر الرد على الاعتلال بجهل المعانى والمضمون القرآنى ، الذى أفقدهم القدرة على معارضة القرآن .
(٥) المحرر ١٥٢/٧ ، ٢٥٠ . وانظر القرطبى ٧٦/١ . أبو حيان ١٥١/٨ ـــ ٢ . الشوكانى ٥٠٠/٢ ، ١٥ / ١٦٦. الآلوسى ١١٨/١١، ٢١/١٢ ، ٣٧/٢ . رضا ١٦٢/١ . الحمصى ١٧٠، ١٧٤ ، ٢٠٠ ، ٢٠٩ ، ٣٨٩ . دروزة ٣٣٤ ، ٣٣٦ . عرجون ١٤١ ، ١٤٣ . عتر ١٥٣ ـ ٥ .
(٦) المحرر ١٨٦/٩ . (٧) المحرر ٢٠١/١ ـ ٢ . أبو حيان ١٠٤/١ .
(٨) القرطبى ٧٦/١ . وانظر أبو حيان ١٥١/٨ ـ ٢ . (٩) البحر ١٠٥/١ .
(١٠) إرشاد ٦٣٨/١ . الحمصى ١٧٠ .
(١١) إرشاد ١٣/٢ . الحمصى ١٧٠ . وانظر الآلوسى ١٦٦/١٥ ، ٢٧ / ٣٧ . الحمصى ١٧٤ .
(١٢) فتح ٥٠٠/٢ . الحمصى ٢٠٠ ، ٢٠٩ .
(١٣) روح ١١٨/١١ . (١٤) الحمصى ٣٨٩ . (١٥) القرآن ١٤٢ .
(١٦) بينات ١٥٥ . (١٧) لمحات ٦٤ . وأتى به دون نسبة أبو سليمان ١٠٧ .

لا شك ــ له مثل فى معنى العربية[١] . وذهب البغوى إلى أن حسن البيان هو وجه التحدى فى جميع الآيات[٢] . وذكر الزمخشرى البيان الغريب[٣] ، والطبرسى الفضل بن الحسن (٥٤٨/١١٥٣) براعة البيان[٤] ، وأبو السعود البيان البديع[٥] ، وعرجون الفوق البيانى[٦] ، بل بلوغ الذروة من براعة البيان[٧] ، ود . عتر الأسلوب البيانى[٨] ، وفصاحة البيان[٩] .

١١ ــ الرصف

ذهب الطوسى إلى عدة وجوه فى التحدى ، وكان منها حسن الترصيف[١٠] . وذكر ابن عطية الرصف مجردا مرة[١١] ، ورصف المعانى مرة[١٢] ، وأبو حيان بديع الرصف[١٣] .

١٢ ــ الجنس الأدبى

من الوجوه التى ذكرها الطوسى[١٤] ، وأبانها فقال : لا يجوز أن يقع المراد بالمثل إلا المثل فى الجنسية ، لأن مثله فى العين يكون حكايته ، وذلك لا يقع به تحد[١٥] .

١٣ ــ القِدم

ذكر ابن عطية عدة وجوه للتحدى ، أحدها القِدم . ثم عقب عليه بأن الوجوه التى ذكرها معه أبْين منه[١٦] .

---

(١) جامع ٥٧٤/١ ــ ٥ ، ٩١/١٥ ، ٢٧ / ٢٠ . وانظر الجرجانى ٢٥١ . البغوى ٣٩٢/٧ . الزمخشرى ٢٤٢/١ ، ٢٦١/٢ . الطبرسى ١٦٨/٢٧ . ابن الجوزى ٥٥/٨ . أبو حيان ١٠٥/١ ، ٢٠٨/٥. الشوكانى ١٠٠/٥ . الزرقانى ٦٩/١ ، ٣٢٥/٢. الحمصى ٢٤،٦٠ ، ١٧٠، ٤١١ . شاكر ١٧،١٨ . عرجون ١٣٨ ــ ٤٢ . الصابونى ٩٢، ٩٧ . الصباغ ٥٥ . عتر ١٥٥ ــ ٦ ، ١٦١ .

(٢) معالم ٢٩٢/٧ . وانظر الزمخشرى ٢٦١/٢ . الطبرسى ١٦٨/٢٧ . ابن الجوزى ٥٥/٨ . الشوكانى ١٠٠/٥ . رضا ١٦١/١ .

(٣) الكشاف ٢٤٢/١ . أبو حيان ١٠٥/١ .

(٤) مجمع ١٦٨/٢٧ . وانظر عرجون ١٣٩ ــ ٤٠ ، ١٤٢ .

(٥) إرشاد ٤٥/١ . الحمصى ١٧٠ . وانظر القاسمى ٧٢/١ .

(٦) القرآن ١٣٨ ، ١٤١ .

(٧) القرآن ١٥٥ .

(٨) بينات ١٥١ ، ١٥٦ .

(٩) بينات ١٥٦ ــ ٧ .

(١٠) التبيان ١٠٥/١ .

(١١) المحرر ٢٠١/١ / ١٥٠/٧-١ ، ٦٩/١٤ . وانظر أبو حيان ١٠٤/١ ، ١٥٢/٨ .

(١٢) المحرر ١٨٦/٩ .

(١٣) البحر ١٠٥/١ .

(١٤) التبيان ٤٥٧/٥ ، ٥١٧/٦ . وانظر أبو حيان ١٠٥/١ . ابن كثير ٤٤٧/١ . عتر ١٥٨ .

(١٥) التبيان ٤٥٧/٥ ، ٥١٧/٦ . وأتى به غير منسوب : الطبرسى ١٤٧/١٢ .

(١٦) المحرر ٢٠٢/١ . وانظر الزركشى ٩٣/٢ .

والحق إن هذا الوجه موضع نزاع كبير بين الفرق الإسلامية . وفى رأيى أنه لا يصلح أن يكون موضعا للتحدى إلا إذا كان المطلوب من المتحدَّين أن يكونوا أنبياء ، وأن يأتوا بقرآن من كلام الله .

١٤ — الإيجاز

من الوجوه التى ذكرها ابن عطية[١] .

١٥ — الجزالة

من الوجوه التى ذكرها ابن عطية : الجزالة فى التعريف بالحقائق[٢] . وخصصها الطبرسى بجزالة اللفظ[٣] ، والآلوسى بجزالة المعنى[٤] .

١٦ — الألفاظ

ذكر ابن عطية فى وجوه التحدى الألفاظ مجردة[٥] . ولعله أراد بها ما نسبه القرطبى إليه ، وعبر عنه بتوالى فصاحة الألفاظ[٦] . وجمع الجرجانى بين اللفظ والنظم ، لأنه كان يرى أن الألفاظ المتفردة لا بلاغة فيها[٧] .

١٧ — العلو

جعل ذلك محمد بن أحمد المعروف بابن جزى (٦٩٣ — ٧٤١ / ١٢٩٤ — ١٣٤٠) أحد الوجوه التى ذكرها[٨] . وعبر أبو السعود عن ذلك بعلو الرتبة وسمو الطبقة[٩] .

١٨ — الحكم

وجعل ابن جزى من الوجوه ما تضمنه القرآن من الحكم العجيبة[١٠] . وذكر أبو حيان الحكم والمواعظ والأمثال[١١] ، ورضا الاشتمال على العبر ، والأسوة الحسنة المعينة على التربية والتهذيب ، كما هو شأن القرآن فى قصصه ، وبتلك القصص فى علومها وحِكمها وهدايتها ، والاشتمال على حكم ومواعظ وآداب[١٢] .

---

(١) المحرر ١٥١/٧ ، ٦٩/١٤ . وانظر الطبرسى ٦٢/١ . أبو حيان ١٠٥/١ .
(٢) المحرر ١٥١/٧ . وانظر الزركشى ١١٠/٢ . عرجون ١٤٠ .
(٣) مجمع ٦٢/١ . وانظر الشوكانى ٥٠٠/٢ ، ٢٦٣/٣ . الحمصى ٢٠٠ ، ٢٠٩ .
(٤) روح ١١ / ١١٨ .
(٥) المحرر ١٥٢/٧ . وانظر شاكر ١٧ . عرجون ١٤١ . عتر ١٥٥ .
(٦) الجامع ٧٦/١ . (٧) دلائل ٦٠٦ . (٨) التسهيل ١٨٦/٢ . وانظر أبو حيان ١٠٥/١ . أبو السعود ٤٥/١ . الحمصى ١٧٠ . عرجون ٤٢ — ٣ ، ١٥٥ .
(٩) إرشاد ٤٥/١ . الحمصى ١٧٠ . وانظر القاسمى ٧٢/١ .
(١٠) التسهيل ٧٢/١. الحمصى ١٢٦ — ٧. وانظر أبو حيان ١٠٥/١، ١٥٢/٨. رضا ١٦٢/١ .
(١١) البحر ١٠٥/١ ، ١٥٢/٨ . وانظر رضا ١٦١/١ . الحمصى ٣٨٩ . عتر ١٥٥ .
(١٢) المنار ٢٨/١٢ . وانظر الحمصى ٣٨٩ .

١٩ ــ العلوم

وجعل ابن جزى من الوجوه أيضا : ما تضمنه القرآن من العلوم[١] . ورأينا أبا حيان في الوجه السابق يشير إلى ما فى القصص خاصة من علوم . وذكر عرجون غزارة العلوم والمعارف[٢] .

٢٠ ــ البراهين

وعدّ ابن جزى منها أيضا البراهين الواضحة[٣] .

٢١ ــ السياق

عد يحيى بن حمزة العلوى (٦٦٩ ــ ٧٤٥ / ١٢٧٠ ــ ١٣٤٤) جودة السياق أحد الوجوه[٤] .

٢٢ ــ الأسلوب

وجمع أبو حيان أكبر قدر من وجوه التحدى . وكان مما جمع : غرابة الأسلوب[٥] . وذكر الشوكانى بديع أسلوبه[٦] ، والآلوسى الأسلوب مجردا[٧] ، ورضا الأساليب العجيبة[٨] ، وعرجون البراعة في الأسلوب وتفوقه[٩] ، ود . عتر الأسلوب البيانى[١٠] .

واعترض د. محمد عبد الله دراز (١٣٧٧/١٩٥٨) على أن يكون المقصود فى التحدى الإتيان بمثل أسلوب القرآن . وإنما المقصود عنده الإتيان بكلام يساويه فى البلاغة ، مهما كان أسلوبه . واستدل على ذلك بأن المسابقات الأدبية لا تشترط أسلوبا واحدا[١١] .

٢٣ ــ القصص

وكان مما جمعه أبو حيان ما احتوى عليه القرآن من قصص[١٢] .

---

(١) التسهيل ٧٢/١ . الحمصى ٧٠١٢٦ . وانظر رضا ١١ / ٣٠٢ . الزرقانى ٦٩/١ . الحمصى ٢١٨ ، ٣٢٥ ، ٣٨٩ . عرجون ١٤٠ ــ ٢ . الصابونى ١٩٧ .

(٢) القرآن ١٣٩ ــ ٤٢ .

(٣) التسهيل ٧٢/١ . الحمصى ١٢٦ ــ ٧ . وانظر أبو حيان ١٠٥/١ ، ١٥٢/٨ . رضا ١٦٢/١ .

(٤) الطراز ٤٠٥/٣ .

(٥) البحر ١٠٥/١ .

(٦) فتح ١٠٠/٥ .

(٧) روح ١٩٣/١ . وانظر أبو حيان ١٠٥/١. الشوكانى ١٠٠/٥. رضا ١٥٩/١ ، ٢٦١ ــ ٢، ٣٠٢/١١ . الحمصى ٢٤ ، ٣١٨ ، ٣٢٣ ــ ٦ ، ٣٨٩ . عرجون ١٣٨ ، ١٤٠ ــ ٢ ، ١٥٥ . أمين ١٤٧ . الصباغ ٥٥ . عتر ١٥٦ ــ ٧ ، ١٦١ .

(٨) المنار ٢٨/١٢ . وانظر الحمصى ٣١٨ .

(٩) القرآن ١٣٨ ، ١٤٢ ، ١٥٥ .

(١٠) بينات ١٥٦ ، ١٦١ .

(١١) النبأ ٩٥ . الحمصى ١٧٥ ، ٤١١ .

(١٢) البحر ١٠٥/١ ، ١٥٢/٨ . وانظر المنار ١٦٢/١، ٢٨/١٢. الحمصى ٢٢٣ . العطار ٥٤.

وأضاف أبو حيان الوجوه التالية :

٢٤ ـ عجيب الرد[١] .

٢٥ ـ الاحتواء على الأمر والنهى[٢] .

٢٦ ـ السلامة من التبديل والتحريف .

٢٧ ـ كونه لا يَخْلق على كثرة الرد ، ولا تمله الأسماع ، ولا يمحوه الماء ، ولا تفنى عجائبه ، ولا تنتهى غرائبه ، ولا تزول طلاوته على تواليه ، ولا تذهب حلاوته من لَهوات تالية .

٢٨ ـ دوام آياته ، وكثرة معجزاته .

٢٩ ـ كونه من كتب الله المنزلة من قبل تشهد لهم بأن ما جاءهم به محمد ليس من عند الله[٣] .

ومن يمعن النظر فى هذه الوجوه التى ذكرها أبو حيان يجد واحدا منها مجرد استرسال فى الكلام ، وهو (لا يمحوه الماء) فالماء يمحو كل حبر يقع عليه ؛ ويجد بعضها لا تتبين حقيقته إلا بعد مدة من الزمن ، فلا يصلح للتحدى الفورى به ، وهو المطلوب ليؤمن العرب بالرسالة الجديدة .

٣٠ ـ الإحكام والتشابه

أحد الوجهين اللذين ذكرهما أبو طاهر مجد الدين محمد بن يعقوب الشيرازى الفيروز آبادى (٧٢٩ ـ ٨١٧ / ١٣٢٩ ـ ١٤١٥)[٤] .

٣١ ـ النسخ

الوجه الثانى عند الفيروزآبادى[٥] . ولا يصلح وجها للتحدى إلا فى الكتب المنجمة ـ إن وافقنا على عده من وجوه التحدى ـ ولم يشترط أحد التنجيم فيها .

٣٢ ـ الهدى

وجعل الجلالان وجه التحدى فى السور الصغيرة : الهدى والنور وإصلاح القلوب[٦]. وجعل رضا الهداية وجها فى التحدى كله ، وبخاصة فى القصص[٧] ؛ وعرجون ذكر سائر ضروب الهداية من المعانى والمقاصد التى قصد إليها القرآن فى إصلاح البشرية[٨] .

---

(١) البحر ١/١٠٥ . (٢) البحر ١/١٠٥ . وانظر ١٥٧ ، ١٨١ الفيروزآبادى.
(٤) البحر ١/١٠٥ . وانظر رضا ١٢/٢٨ . (٤) تنوير ١٨١ . الحمصى ١٥٧ .
(٥) تنوير ١٨١ . الحمصى ١٥٧ . (٦) ٢٣٣،٦، ٢٤٤، ٣٢٢ . الحمصى ٣٢٠ـ١ .
(٧) المنار ١/١٥٩ ، ١٦١ ، ١١/٣٠٢ ، ١٢/٢٨ . الحمصى ٣١٨ ، ٣٢١ ، ٣٢٥ . وانظر عرجون ١٣٩ ـ ٤٢ ، ١٤٦ ـ ٥١ . (٨) القرآن ١٣٩ ـ ٤٢ .

٣٣ ـ حسن الصياغة

ذكره أبو السعود فى وجوه التحدى[١] .

٣٤ ـ حيازة سائر نعوت الإعجاز

ذكره أبو السعود أيضا[٢] .

٣٥ ـ جودة الصناعة

ذكره الشوكانى[٣] . وربما كانت محرفة عن جودة الصياغة .

٣٦ ـ حسن الارتباط : ذكره الآلوسى[٤] .

٣٧ ـ حيازة النعوت الجليلة : ذكره الآلوسى أيضا[٥] .

٣٨ ـ التصرف

ذكر محمد رشيد رضا فى وجوه التحدى : الإتيان بالخبر الواحد بأساليب متعددة ، متساوية فى البلاغة وإزالة شبهة تخطر بالبال[٦]. واقتصر المراغى على كلمة التصرف[٧].

٣٩ ـ التأثير : ذكره رضا[٨] .

٤٠ ـ السلامة

وذكر رضا من الوجوه أيضا السلامة من كل عيب لفظى أو معنوى يخل بالفهم أو التأثير المطلوب[٩] .

وأضاف نعيم الحمصى الوجوه الآتية :

٤١ ـ ما فى القرآن من فكرة ، وعاطفة متأججة ، وخيال ، وحسن معرفة فى مخاطبة النفس حتى لكأن الروح تخاطب الروح[١٠] .

٤٢ ـ وفى عبارة أخرى مجملة : كل شيء ، كما يستفاد من لفظ المماثلة[١١] .

٤٣ ـ المحتوى : صرح محمد عزة دروزة بأن تحدى القرآن للعرب لم يكن تحديا لهم بالنظم ، وإنما بمحتواه ، لأن نظمه مشابه لنظمهم ، وكلماته وقواعده ، هى كلماتهم وقواعدهم ، وفى جملة (أساطير الأولين) التى حُكيت عنهم الدليل الحاسم على ذلك[١٢] .

---

(١) إرشاد ٦٣٨/١ . الحمصى ١٧٠ .

(٢) إرشاد ٤٥/١ . الحمصى ١٧٠ . وانظر القاسمى ٧٢/١ .

(٣) فتح ٤٦٢/٢ . الحمصى ٢٠٠ .

(٤) روح ١١٨/١١ .

(٥) روح ١١٨/١١ . الحمصى ٢٠٤ . وانظر رضا ١٦٢/١ . عتر ١٥٣ .

(٦) المنار ١٦١/١ . وانظر الحمصى ٣٨٩ .

(٧) المنار ١٦١/١ . الحمصى ٣٨٩ .

(٨) المنار ٣٠٢/١١ . الحمصى ٣١٨ ، ٣٢٥ ، ٤١١ .

(٩) المنار ١٦١/١ . وانظر الحمصى ٣٨٩ .

(١٠) فكرة ٢٤ .

(١١) فكرة ٢٤،٤٤٨. وانظر عتر ١٦١ .

(١٢) القرآن ٣٣٠ـ٣ ، ٣٣٨،٣٧٢،٣٧٨،٣٩٣ .

وأضاف محمد الصادق عرجون :

٤٤ ــ دقة الأداء[١] ،

٤٥ ــ الخلو من التناقض[٢] .

٤٦ ــ وأتى محمد على الصابونى بالروعة[٣] ،

٤٧ ــ وذكر د. حسن ضياء الدين عتر : صحة المبانى[٤] ،

٤٨ ــ وداود العطار : الأخبار

٤٩ ــ أو أى موضوع طرقه القرآن[٥] .

* * *

يكشف لنا هذا التتبع للوجوه التى أعلن العلماء أن القرآن تحدى العرب أن يأتوا بمثيل لها أنها كثيرة جدا ، ولكننا نستطيع أن نضعها فى صنفين : ما يتصل بالتعبير ، وما يتصل بالمضمون .

والوجه الذى حظى بالقبول الأعظم ــ قديما وحديثا ــ النظم والبلاغة . وقد وردا صريحين ، ووردت وجوه أو صفات أخرى ، هى من مرادفاتهما أو تتناول جوانب جزئية منهما مثل الرّصف والسرد ... إلخ .

و لم تلق الوجوه التى تنتمى إلى المضمون مثل هذا الرواج بل وصل الأمر إلى أن أباها كثيرون . إما لأنها مما استأثر به الله فلا تصلح للتحدى أو لأنها غير صالحة للتحدى أصلا.

ويكشف أن أبا حيان ــ من القدماء ــ حاول أن يذكر أكبر عدد من وجوه التحدى إن لم يكن قد قصد حصرها كلها . فتبعه من المحدثين الآلوسى ومحمد رشيد رضا ومحمد الصادق عرجون .

ويكشف أن القدماء اعترضوا على بعض الوجوه مثل القدم والإخبار بالغيب ، وأن بعض الوجوه الأخرى مثل السلامة من التبديل ودوام الآيات والتنزيل والنسخ لا تصلح وجوها للتحدى .

---

(١) القرآن ١٤٢ .

(٢) القرآن ١٤٠ .

(٣) التبيان ٩٢ .

(٤) بينات ١٥٥ .

(٥) موجز ٥٤ .

وجوه المماثلة بمحمد

تعددت الأقوال كثيرا فى وجوه المماثلة بمحمد التى رأى العلماء أن القرآن عناها فى التحدى على النحو التالى :

١ ــ البشرية : ذكره الطبرى ، وتبعه كثيرون[١] .

٢ ــ الأمية : ذكره الطوسى ، وتبعه أكبر عدد من المفسرين[٢] ، وكان منهم من أتى به فى عبارات أخرى متعددة ، كما سنرى .

٣ ــ عدم إحسان الخط والكتابة (الأمية) : ذكره البغوى[٣] .

٤ ــ العروبة : ذكره جار الله الزمخشرى[٤] .

٥ ــ عدم قراءة الكتب (الأمية) : ذكره الزمخشرى ، وتبعه كثيرون[٥] .

٦ ــ عدم الأخذ من العلماء (الأمية) : ذكره الزمخشرى ، وتبعه كثيرون[٦] .

٧ ــ الفصاحة : ذكره الزمخشرى[٧] .

٨ ــ الصدق : انفرد به ابن عطية ، وهو وجه غريب[٨] .

٩ ــ السحر والشعر على زعمكم أيها المشركون : ذكرهما ابن عطية[٩] .

١٠ ــ الكهانة على زعمكم أيها المشركون : ذكره ابن عطية وحده[١٠] .

---

(١) جامع ١/١٧٤ . أبو حيان ١/١٠٥ ، ٥/١٥٨ . وانظر الطوسى ١/١٠٥ . الزمخشرى ١/٢٤٢ . الطبرسى ١/٦٢ . الرازى ٢/١١٨ . القرطبى ١/٢٣٢ . الزركشى ٢/٩١ . الشوكانى ١/١١٠ . الآلوسى ١/١٩٤ .

(٢) التبيان ١/١٠٥ . وانظر البغوى ١/٧٢ ، ٢٠٢ . الزمخشرى ١/٢٤٢ . ابن عطية ١/٢٠٢ . الطبرسى ١/٦٢ . الرازى ٢/١١٨ . القرطبى ١/٢٣٢ . أبو حيان ١/١٠٥ ، ٨/١٥٢ . ابن كثير ١/٦٠ . الشوكانى ١/١١٠ . الآلوسى ٢٧/٣٧ . رضا ١/١٦٠ ، ١٦٢ ، ١١ / ٣٠٣ . الحمصى ١٠٥ ، ١٧٣ ، ١٩٥ ــ ٦ ، ٣١٤ .

(٣) معالم ١/٧٢ . وانظر الطبرسى ١/٦٢ . أبو حيان ١/١٠٤ ــ ٥ .

(٤) الكشاف ١/٢٤٢ . أبو حيان ١/١٠٥ ، ٥/١٥٨، ٨/١٥٢ . وانظر الآلوسى ٢٧/٣٧ .

(٥) الكشاف ١/٢٤٢ . أبو حيان ١/١٠٥ . وانظر الطبرسى ١/٦٢ . الرازى ٢/١١٨ ، ١٧ / ٩٦ . الآلوسى ١/١٩٥ . الحمصى ١٠٥ ، ١٩٥ .

(٦) الكشاف ١/٢٤٢ . أبو حيان ١/١٠٥ ، ٨/١٥٢ . وانظر الرازى ٢/١١٨ ، ١٧/٩٦ . الآلوسى ١/١٩٥ ، ٢٧/٣٧ . الحمصى ١٠٥ ، ١٧٣ ، ١٩٥ ــ ٦ .

(٧) الكشاف ٤/٢٥ . أبو حيان ٥/١٥٨ . وانظر الآلوسى ٢٧/٣٧ .

(٨) المحرر ١/٢٠٢ .

(٩) المحرر ١/٢٠٢ . وانظر أبو حيان ١/١٠٥ .

(١٠) المحرر ١/٢٠٢ .

١١ ــ عدم دراسة الأخبار (الأمية) : ذكره الطبرسى[١] .
١٢ ــ البعد عن العلم (الأمية) : ذكره الرازى[٢] .
١٣ ــ عدم الكتابة والقراءة (الأمية) : ذكره القرطبى[٣] .
١٤ ــ عدم الرحلة من بلده إلى غيره من الأمصار (الأمية) : ذكره أبو حيان[٤] .
١٥ ــ الجنون على زعمكم أيها المشركون : ذكره أبو حيان وحده[٥] .
١٦ ــ الألمعية : ذكره أبو حيان . ونسبه إلى الزمخشرى ، وهو غير موجود فى الكشاف[٦] .

ويبين هذا أن الوجوه جميعها أو أكثرها ذيوعا تدور حول البشرية والأمية ، وانفرد الزمخشرى ومن أخذ عنه بالفصاحة ، وابن عطية ومن أخذ عنه بما وجهه المشركون إلى محمد من اتهامات .

الاحتجاج لكون القرآن المطلوب مماثلته

استضعف الطبرى القول بأن محمدا هو المقصود ، ورأى أن القول الآخر هو الصحيح ، لأن الله قال فى سورة يونس : ﴿ فأتوا بسورة مثله ﴾ ومعلوم أن السورة ليست لمحمد بنظير ولا شبيه ، فيجوز أن يقال : فأتوا بسورة مثل محمد[٧] .

وأضاف محمود بن عمر الزمخشرى فى تعليل وجاهة هذا القول : أن القرآن جدير بسلامة الترتيب ، والوقوع على أصح الأساليب . والكلام ــ مع رد الضمير إلى المنزَّل أى القرآن ــ أحسن ترتيبا . وذلك أن الحديث فى المنزل لا فى المنزَّل عليه ــ أى محمد ــ وهو مسوق إليه ، ومربوط به . فحقُّه أن لا يُفَك عنه برد الضمير إلى غيره ، ألا ترى أن المعنى : وإن ارتبتم فى أن القرآن منزل من عند الله ، فهاتوا أنتم نبذا مما يماثله ويجانسه . وقضية الترتيب ــ لو كان الضمير مردودا إلى رسول الله ــ أن يقال : وإن ارتبتم فى أن محمدا منزل عليه ، فهاتوا قرآنا من مثله[٨] .

---

(١) مجمع ٦٢/١ . وانظر أبو حيان ١٠٥/١ ، ٨ / ١٥٢ .
(٢) مفاتيح ١١٨/٢ ، ٩٦/١٧ . وانظر الآلوسى ١٩٥/١ . الحمصى ١٩٥ ــ ٦ .
(٣) الجامع ٢٣٢/١ . وانظر أبو حيان ١٥٠/١ . الشوكانى ١١٠/١ .
(٤) البحر ١٠٥/١ ، ١٥٢/٨ . وانظر الآلوسى ٢٧ / ٣٧ .
(٥) البحر ١٠٥/١ . (٦) البحر ١٥٨/٥ . (٧) جامع ٣٧٤/١ .
وأتى به غير منسوب : الطوسى ١٠٥/١ . الحمصى ١٩٥ . وانظر الزمخشرى ٢٤٢/١ . الطبرسى ٦٢/١ . الرازى ١١٨/٢ . ابن جزى ٧٢/١ . أبو حيان ١٠٤/١ . ابن كثير ٦٠/١ . الزركشى ٩١/٢ . الآلوسى ١٩٥/١ . رضا ١٦٠/١ . الحمصى ١٢٦ ، ٣١٤ .
(٨) الكشاف ٢٤٢/١ ــ ٣ . وانظر الرازى ١١٨/٢ . أبو حيان ١٠٤/١ . الآلوسى ١٩٥/١ . الحمصى ١٩٥ .

واعتل أيضا بأنهم إذا خوطبوا جميعا — وهم الجمّ الغفير — بأن يأتوا بطائفة يسيرة من جنس ما أتى به واحد منهم . كان أبلغ فى التحدى من أن يقال لهم : ليأت واحد آخر بنحو ما أتى به هذا الواحد(١) .

وأخيرا احتج بأن هذا التفسير هو الملائم لقوله : ﴿ وادعوا شهداءكم ﴾(٢) .

وشرح الرازى ثانية العلل التى أضافها الزمخشرى ، فقال : إن الضمير — لو كان عائدا إلى القرآن — لاقتضى كونهم عاجزين عن الإتيان بمثله ، سواء اجتمعوا أو انفردوا ، وسواء كانوا أميين أو كانوا عالمين محصّلين . أما لو كان عائدا إلى محمد — ﷺ — فذلك لا يقتضى إلا كون أحدهم من الأميين عاجزا عنه ، لأنه لا يكون مثل محمد إلا الشخص الواحد الأمى — فأما لو اجتمعوا أو كانوا قارئين ، لم يكونوا مثل محمد ، لأن الجماعة لا تماثل الواحد ، والقارئ لا يكون مثل الأمى . ولا شك أن الإعجاز على الوجه الأول أقوى(٣) .

وأضاف علة جديدة ذهب فيها إلى أنا لو صرفنا الضمير إلى القرآن ، فكونه معجزا إنما يحصل لكمال حاله فى الفصاحة . أما لو صرفناه إلى محمد — ﷺ — فكونه معجزا إنما يكمل بتقرير كمال حاله فى كونه أميا بعيدا عن العلم . وهذا — وإن كان معجزا أيضا — إلا أنه لما كان لا يتم إلا بتقرير نوع من النقصان فى حق محمد — عليه السلام — كان الأول أولى(٤) .

وآخر ما أضاف قال : إنا لو صرفنا الضمير إلى محمد — عليه السلام — لكان ذلك يوهم أن صدور مثل القرآن ممن ليس مثل محمد فى الأمية ممكن . ولو صرفناه إلى القرآن لدل ذلك على أن صدور مثله من الأمى وغير الأمى ممتنع ، فكان هذا أولى(٥) .

وأضاف الآلوسى أنه — لو عاد الضمير إلى المنزَّل عليه — تُرك التصريح بمماثلة السورة ، وهو عمدة التحدى ، وإن فُهم(٦) .

---

(١) الكشاف ٣٤٣/١ .
وانظر الرازى ١١٨/٢ . أبو حيان ١٠٤/١ ابن كثير ٦٠/١ . الآلوسى ١٩٥/١ .
(٢) الكشاف ٣٤٣/١ .
(٣) مفاتيح ١١٨/٢ ، ١٧ / ٩٦ .
وانظر أبو حيان ١٠٤/١ . ابن كثير ٦٠/١ . الحمصى ١٧٣ ، ١٧٨ .
(٤) مفاتيح ١١٨/٢ . وانظر أبو حيان ١٠٤/١ .
(٥) مفاتيح ١١٨/٢ . وانظر الآلوسى ١٩٥/١ . الحمصى ١٧٣ .
(٦) روح ١٩٥/١ .

الاحتجاج لكون محمد المطلوب مماثلته

ذكر الآلوسى أن من رجح رد الضمير إلى محمد احتج بما يلى :

ــ اشتمال الكلام على معنى مستبدع مستجد[١] .

ــ الكلام مسوق للمنزل عليه ، إذ التوحيد والتصديق بالنبوة توأمان . فالمقصود إثبات النبوة ، فلا يلزم من الافتتاح بذكر ﴿ ما نزلنا ﴾ أن يكون الكلام مسوقا للمنزل[٢] .

ــ التحدى على ذلك أبلغ ، لأن المعنى اجتمعوا كلكم وانظروا : هل يتيسر لكم الإتيان بسورة ممن لم يمارس الكتب و لم يدارس العلوم[٣] ؟!

واستدل محمد عبده (١٢٦٦ ــ ١٣٢٣ / ١٨٤٩ ــ ١٩٠٥) على ذلك بدخول (من) الدالة على النشوء عليه[٤] .

التفرقة بين وجه المماثلة فى السور المختلفة

من المفسرين من لم يجعل وجه المماثلة المطلوب فى التحدى واحدا فى جميع الآيات ، بسبب المشكلة التى واجهتهم فى ترتيبها حسب نزولها .

فذهب محمد بن يزيد المبرد إلى أن المطلوب فى سورة يونس مثيل القرآن فى الخبر عن الغيب والأحكام والوعد والوعيد ، والمطلوب فى سورة هود عشر سور من غير خبر ولا وعد ولا وعيد ، وإنما مجرد البلاغة[٥] .

وذهب أبو عبد الله محمد بن أيوب المعروف بابن الضُّريس (٢٠٠ ــ ٢٩٤ / ٨١٥ ــ ٩٠٦) بأن التحدى وقع أولا بالبلاغة والاشتمال على ما اشتمل القرآن عليه من الأخبار عن المغيبات والأحكام وأخواتها ، ثم وقع فى سورة هود بالنظم وإن لم تشتمل على ما اشتمل عليه[٦] .

وتبع البغوى المبرد مع تعميم قوله ، فرأى أن التحدى فى سورة هود فى البلاغة مجردة ، وفى بقية السور فى الإخبار عن الغيب والأحكام والوعد والوعيد[٧] .

واتفق ابن عطية مع ابن الضريس فى وجه التحدى فى سورة هود . أما التحدى فى بقية السور فأعلن أنه قائم على الإخبار بالغيب والمعانى والنظم والوعد والوعيد . وعد هذا الفعل من القرآن غاية التوسعة[٨] .

---

(١) و(٢) و(٣) روح ١/١٩٥ .

(٤) المنار ١/١٦٠ .

(٥) البغوى ١٢/١٦٥ . الآلوسى ١٢/٢١ .

(٦) الآلوسى ١٢/٢١ . الحمصى ٢٠٢ .

(٧) معالم ٤/١٦٥ . وانظر عتر ١٥٥ .

(٨) المحرر ٧/١٥٠ ــ ١ ، ٢٥٠ ــ ١ ، ٩/١٩١ . أبو حيان ٥/٢٠٨ . عتر ١٥٥ .

وفرق محمد بن عمر الرازى بين قوله تعالى ﴿ من مثله ﴾ فى سورة البقرة ، و(مثله) فى بقية السور ، فى جواب السؤال عن سبب هذا الاختلاف فى التعبير :

والجواب أن محمدا — عليه السلام — كان رجلا أميا — لم يتلمذ لأحد ، ولم يطالع كتابا ، فقال فى سورة البقرة ﴿ فأتوا بسورة من مثله ﴾ يعنى فليأت إنسان يساوى محمدا فى عدم التلمذة ، وعدم مطالعة الكتب ، وعدم الاشتغال بالعلوم ، بسورة تساوى هذه السورة . وحيث ظهر العجز ظهر المعجز . فهذا لا يدل على أن السورة — فى نفسها — معجزة ، ولكنه يدل على أن ظهور مثل هذه السورة من إنسان مثل محمد فى عدم التلمذة والتعلم معجز .

ثم إنه — تعالى — بيَّن فى سورة يونس وأخواتها أن تلك السورة — فى نفسها — معجزة ، فإن الخلق — وإن تلمذوا وتعلموا وطالعوا وتفكروا — لا يمكنهم الإتيان بمعارضة سورة واحدة من هذه السور ..

ولا شك أن هذا ترتيب عجيب فى باب التحدى وإظهار العجز [١] .

وورد فى تفسير الجلالين أن التحدى فى آية سورة البقرة كان بالبلاغة وحسن النظم والإخبار عن الغيب ، وفى سورة يونس وهود والإسراء كان بالفصاحة والبلاغة على وجه الافتراء ، وفى السور الصغيرة معنوى بالهدى والنور وإصلاح القلوب ، مما لا يكابر فيه إلا الجهول المحجوب[٢] .

وذهب أبو السعود إلى أن التحدى فى سورة البقرة بعلو الرتبة وسمو الطبقة ، والنظم الرائق ، والبيان البديع ، وحيازة سائر نعوت الإعجاز ؛ وفى سورة يونس بالبلاغة ، وحسن الصياغة ، وقوة المعنى ؛ وفى سورة هود أهمل قوة المعنى من هذه الوجوه ؛ وفى سورة الإسراء البلاغة ، وحسن النظم ، وكمال المعنى[٣] .

وأعلن محمد رشيد رضا : الظاهر أن التحدى فى سورتى يونس وهود خاص ببعض أنواع الإعجاز ، وهو ما يتعلق بالأخبار كقصص الرسل مع أقوامهم ، وهو من أخبار الغيب الماضية التى لم يكن لمن أنزل عليه القرآن علم بها ولا قومه ، كما قال تعالى عقب قصة نوح من سورة هود : ﴿ تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ، ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا ﴾ ... ولعل وجه التحدى بعشر سور مفتريات دون سورة واحدة ، هو إرادة نوع خاص من أنواع الإعجاز ، وهو الإتيان بالخبر الواحد بأساليب متعددة متساوية فى البلاغة وإزالة شبهة تخطر بالبال[٤] .

---

(١) مفاتيح ٩٦/١٧ . وأورده غير منسوب : أبو حيان ١٠٤/١ ، وانظر الحمصى ١٠٥ .
(٢) ٦، ٢٣٣ ، ٢٤٤ ، ٣٢٢ . الحمصى ٣٢٠ — ١ .
(٣) فتح ٤٥/١ ، ٦٣٨ ، ٦٦٦ ، ٦٣/٢ . الحمصى ١٧٠ . (٤) المنار ١٦١/١ .

وذهب فى مرة أخرى إلى أن التحدى فى يونس مطلق ، بحيث تكون السورة مشتملة على مثل ما فى القرآن من تشريع دينى ومدنى وسياسى ، وحكم ومواعظ وآداب ، وأنباء غيبية محكية عن الماضى ، وأنباء غيبية على أنها ستأتى ، بمثل هذه النظم البديعة ، والأساليب العجيبة والبلاغة الحاكمة على العقول والألباب ، والفصاحة المستعذبة فى الأذواق والأسماع ، والسلطان المستعلى على الأنفس والأرواح .

ثم أراد أن يهون عليهم ، فأعلنهم : إذا كان ما تحديتكم به أولا من سورة واحدة لا يتسع لكل الأجناس والأنواع المطلوبة فأتوا بنوع واحد مما تدعون افتراءه كالقصص — فى علومها وحكمها وهدايتها — مكررا كتكراره لكل أنواعها[١] .

وذهب فى مرة ثالثة أن التحدى فى سورة يونس فى أسلوبه ونظمه وتأثيره وهدايته وعلمه[٢] .

وتابع د . حسن ضياء الدين عتر ابن عطية . وأعلن أن القرآن أمعن فى إفحام من تحداهم ، فتنزَّل عن مطالبتهم بالمماثلة فى المعنى والنظم معا ، وتحداهم بالنظم وحده فى سورة هود[٣] .

مدلول الشهداء

١ — روى أبو الفدا إسماعيل بن عمر المعروف بابن كثير (٧٠١ — ٧٧٤ / ١٣٠٢ — ١٣٧٣) عن إسماعيل بن عبد الرحمن السدى (١٢٨/٧٤٥) عن أبى مالك غَزْوان الغفارى أن المقصود بالشهداء الذين رخص القرآن للمعارضين أن يستعينوا بهم : الشركاء[٤] .

٢ — وعزا محمد بن جرير الطبرى إلى ابن عباس أنه قال : الأعوان[٥] .

وزكّى هذا التفسير . إذ قال : أما الشهداء فإنها جمع شهيد ، كما الشركاء جمع شريك ، والخطباء جمع خطيب .

والشهيد يسمى به الشاهد على الشىء لغيره بما يحقق دعواه .

---

(١) المنار ٢٨/١٢ . الحمصى ٣٢٢ ، ٣٢٤ . (٢) المنار ٣٠٢/١١ .
(٣) بينات ١٥٤ — ٦ . (٤) التفسير ٥٩/١ .
وأتى به غير منسوب : الطبرى ٣٧٩/١ ، ٩٢/١٥ . وانظر ابن عطية ١٥٣/٧ .
(٥) جامع ٣٧٦/١ — ٧ . الطوسى ١٠٥/١ . الراغب ٢٦٩ . ابن عطية ٢٠٢/١ . الطبرسى ٦٢/١ . ابن كثير ٥٩/١ . وأتى به غير منسوب : الطبرى ٣٧٣/١ ، ٣٧٩ . الزمخشرى ٢٤٣/١ ، ٢٤٦ . الرازى ١١٨/٢ . القرطبى ٢٣٢/١ . ابن جزى ٧٢/١ . أبو حيان ١٠٦/١ . أبو السعود ٤٦/١ . الشوكانى ١١٠/١ . الآلوسى ١٩٥/١ — ٦ . الحمصى ١٢٦ .

وقد يسمى به المُشاهد للشيء ، كما يقال : فلان جليس فلان ، يعنى به مجالسه ؛ ونديمه ، يعنى به منادمه ؛ وكذلك يقال : شهيده ، يعنى به مشاهده .

فإذا كانت الشهداء محتملة أن تكون جمع الشهيد ، الذى هو منصرف للمعنيين اللذين وصفت ، فأولى وجهيه بتأويل [تفسير] الآية ما قاله ابن عباس ، وهو أن يكون معناه : واستنصروا — على أن تأتوا بسورة من مثله — أعوانكم وشهداءكم الذين يشاهدونكم ويعاونونكم على تكذيبكم الله ورسوله ، ويظاهرونكم على كفركم ونفاقكم ، إن كنتم محقين فى جحودكم أن ما جاء به محمد اختلاق وافتراء ، لتمتحنوا أنفسكم وغيركم : هل تقدرون على أن تأتوا بسورة من مثله ، فيقدر محمد على أن يأتى بجميعه من قبل نفسه اختلاقا[1] ؟

ونسب أبو حيان هذا القول إلى مجاهد ، وإلى عبد الله بن مسلم المعروف بابن قتيبة (٢١٣ — ٢٧٦ / ٨٢٨ — ٨٨٩)[2] .

٣ — وعزا أبو حيان إلى ابن عباس أنه قال فى تفسيرها :

آلهتكم ، فإنهم كانوا يعتقدون أنهم يشهدون لهم عند الله[3] .

وتابعه فى هذا التفسير إسماعيل بن عبد الرحمن السدى ومقاتل بن سليمان (١٥٠/٧٦٧) والفراء[4] .

ونسبه إلى الفراء : الطوسى وابن عطية والطبرسى والقرطبى[5] .

ورفض الآلوسى أن يكون المراد بالشهداء الآلهة الباطلة ، لأن الأمر بدعاء الأصنام لا يكون إلا تهكما . ولو قيل : ادعوا الأصنام ، ولا تدعوا الله ولا تستظهروا به ، لانقلب الأمر عن التهكم إلى الامتحان ، إذ لا دخل لإخراج الله عن الدعاء فى التهكم . وفيه أن أى تهكم وتحميق أقوى من أن يقال لهم : استعينوا بالجماد ، ولا تلتفتوا نحو رب العباد[6] ؟

٤ — قوم يشهدون لكم أن ما صنعتموه مثل القرآن : قاله مجاهد بن جبر[7] .

---

(١) جامع ١/٣٧٧ — ٨ . وأتى به غير منسوب : الطوسى ١/١٠٥ . وانظر الطبرسى ١/٦٢. البغوى ٤/١٣٤ . الزمخشرى ١/٢٤١ . ابن عطية ٧/٢٥١ . أبو السعود ١/٤٦ .

(٢) البحر ١/١٠٦ . (٣) البحر ١/١٠٥ — ٦ . الفيروزآبادى ٥ . الجلالان ٦ .

(٤) البحر ١/١٠٦ .

(٥) التبيان ١/١٠٥ . المحرر ١/٢٠٣ . مجمع ١/٦٢ . الجامع ١/٢٣٢ .

وأتى به غير معزو : الطبرى ١٥/٢٦٠ . البغوى ١/٧٢ . الزمخشرى ١/٢٤٥ . الرازى ٢/١١٩ . ابن جزى ١/٧٢ . ابن كثير ١/٥٩ . الشوكانى ١/١١٠ . الحمصى ١٢٦ . العطار ٥٥ .

(٦) روح ١/١٩٦ .

(٧) الطبرى ١/٣٧٦ — ٧ . الطوسى ١/١٠٥ . الراغب ٢٦٩ . البغوى ١/٧٢ . ابن عطية ١/٢٠٣. الطبرسى ١/٦٢ . القرطبى ١/٢٣٣ . أبو حيان ١/١٠٦ . ابن كثير ١/٥٩ . وأتى به غير منسوب : =

ورأى الطبرى أن هذا القول لا وجه له ، لأن القوم كانوا ـ على عهد رسول الله ـ أصنافا ثلاثة .

أهل إيمان صحيح ، وأهل كفر صحيح ، وأهل نفاق بين ذلك .

أما أهل الإيمان فكانوا ـ بالله وبرسوله ـ مؤمنين . فكان من المحال أن يدّعى الكفار أن لهم منهم شهداء على حقيقة ما أتوا به ، لو أتوا باختلاق من الرسالة ثم ادعوا أنه للقرآن نظير .

وأما أهل النفاق والكفر فلا شك أنهم لو دُعوا إلى تحقيق الباطل وإبطال الحق ، لتنازعوا [أسرعوا] إليه مع كفرهم وضلالهم .

فمن أى الفريقين كانت تكون شهداؤهم لو ادعوا أنهم قد أتوا بسورة من مثل القرآن [١] .

وصرح الطوسى بأن قوما أجازوا هذا الوجه لأن العقلاء لا يجوز أن يحملوا نفوسهم على الشهادة بما يفتضحون به فى كلام أنه مثل القرآن ولا يكون مثله . كما لا يجوز أن يحملوا نفوسهم على أن يعارضوا ما ليس بمعارض فى الحقيقة[٢] .

٥ ـ العلماء : قاله محمد بن أحمد المعروف بابن كيسان (٢٩٩ / ٩١٢) . روى القرطبى : قال ابن كيسان : فإن قيل : كيف ذكر الشهداء ها هنا ، وإنما يكون الشهداء ليشهدوا أمرا أو ليخبروا بأمر شهدوه ، وإنما قيل لهم ﴿ فأتوا بسورة من مثله ﴾ ؟

فالجواب أن المعنى استعينوا بمن وجدتموه من علمائكم وأحضِروهم ليشاهدوا ما تأتون به ، فيكون الرد على الجميع أوكَد فى الحجة عليهم .

وعقب القرطبى على هذا الجواب : هذا هو معنى قول مجاهد[٣] .

٦ ـ كل من يُعتد بحضوره ممن له الحل والعقد : قاله الراغب الأصبهانى الحسين بن محمد (٥٠٢ / ١١٠٨) [٤] .

٧ ـ وذهب الرازى إلى أن فى المراد من (الشهداء) وجهين :

= الطبرى ٣٧٧/١ ، ٢٦٠/١٥ . الزمخشرى ٢٤٣/١ ، ٢٤٥ . الرازى ١١٨/٢ . ابن جزى ٧٢/١ . الزركشى ١١٠/٢ . أبو السعود ٤٦/١ . الشوكانى ١١١/١ . الآلوسى ١٩٥/١ ـ ٦ . رضا ١٦٠/١ . قطب ٤٨/١ . الحمصى ١٢٦ ، ١٩٦ .

(١) جامع ٣٧٨/١ . وأتى به دون نسبة : الطوسى ١٠٥/١ .

(٢) التبيان ١٠٥/١ . وأتى به دون عزو : الطبرسى ٦٣/١ .

(٣) الجامع ٢٣٣/١ .

(٤) المفردات ٢٦٩ . الآلوسى ١٩٥/١ .

الأول : من ادعوا فيه الإلاهية ، وهى الأوثان . فكأنه قيل لهم : إن كان الأمر كما تقولون من أنها تستحق العبادة ، لما أنها تنفع وتضر ، فقد دُفعتم — فى منازعة محمد — إلى فاقة شديدة ، وحاجة عظيمة فى التخلص عنها . فتعجلوا الاستعانة بها ، وإلا فاعلموا أنكم مبطلون فى ادعاء كونها آلهة وأنها تنفع وتضر . فيكون فى الكلام محاجّة من وجهين :

أحدهما : فى إبطال كونها آلهة .

والثانى : فى إبطال ما أنكروه من إعجاز القرآن ، وأنه من قِبل الله .

المراد الثانى : أكابرهم ، أو من يوافقهم فى إنكار أمر محمد . والمعنى : وادعوا أكابركم ورؤساءكم ، ليعينوكم على المعارضة ، وليحكموا لكم وعليكم فيما يمكن ويتعذر[١] .

ولم يقف الرازى عند هذين التفسيرين بل أراد المفاضلة بينهما فاستطرد : فإن قيل : هل يمكن حمل اللفظ عليهما معا ؟ وبتقدير التعذر فأيهما أولى ؟

قلنا : أما الأول فممكن ، لأن الشهداء جمع شهيد بمعنى الحاضر أو القائم بالشهادة . فيمكن جعله مجازا عن المعين والناصر . وأوثانهم وأكابرهم مشتركة فى أنهم كانوا يعتقدون فيهم كونهم أنصارا لهم وأعوانا . وإذا حملنا اللفظ على هذا المفهوم المشترك دخل الكل فيه .

وأما الثانى فنقول : الأولى حمله على الأكابر . وذلك لأن لفظ (الشهداء) لا يطلق ظاهرا إلا على من يصح أن يشاهد ويشهد ، فيتحمل بالمشاهدة ، ويؤدى الشهادة وذلك لا يتحقق إلا فى حق رؤسائهم .

أما إذا حملناه على الأوثان فيلزم المجاز فى إطلاق لفظ (الشهداء) عليها ، أو يقال : المراد : وادعوا من تزعمون أنهم شهداؤكم . والإضمار خلاف الأصل .

أما إذا حملناه على الوجه الأول فيصح الكلام ، لأنه يصير كأنه قال : وادعوا من يشهد بعضكم لبعض : لاتفاقكم على هذا الإنكار . فإن المتفقين على المذهب يشهد بعضهم لبعض لمكان الموافقة . فصحت الإضافة فى قوله : ﴿ شهداءكم ﴾ ، ولأنه كان فى العرب أكابر يشهدون على المتنازعين فى الفصاحة بأن أيهما أعلى درجة من الآخر . وإذا ثبت ذلك ، ظهر أن حمل الكلام على الحقيقة أولى من حمله على المجاز[٢] .

---

(١) مفاتيح ١١٨/٢ . وانظر ابن عطية ٢٥١/٧ . الفيروز آبادى ٥ .
(٢) مفاتيح ١١٨/٢ — ٩ .

مدلول الظهير

وفسر الفراء الظهير بالعَوْن[١] . واستدل عبد الملك بن هشام المعافرى (٢١٣/٨٢٨) على ذلك بقول الشاعر :

يا سمىَّ النبى : أصبحت للديـ ـن قواما ، وللإمام ظهيرا

وأعلن أن جمعه ظُهراء[٢] . وآثر الطوسى صيغة اسم الفاعل ، ففسر الظهير بالمعين[٣] . وفسره الشوكانى بالنصير[٤] . وعدل داود العطار إلى المصدر ففسر التظاهر بالتآزر والتعاون[٥] .

المقصودون بالدعوة للعون

جاءت فى تحديدهم الأقوال الآتية :
- الأولياء : قاله الطبرى[٦] .
- الشركاء : قاله الطبرى[٧] .
- الأعوان : قاله الطبرى[٨] .
- الآلهة : قاله الطبرى[٩] .
- الأنداد : قاله الطبرى[١٠] .
- الخلق : قاله الزمخشرى[١١] .

---

(١) معانى ١٣١/٢ . وانظر السيرة ٢٢٠/٢ . الطبرى ٣٧٨/١ . البغوى ١٢٧/٥ . الشوكانى ٢٦٣/٣ .
(٢) السيرة ٢٢٠/٢ .
(٣) التبيان ٥١٧/٦ . وانظر ابن عطية ١٥٣/٧ ، ٩ / ١٨٧ . الفيروز آبادى ١٨١ . الآلوسى ١٦٦/١٥ .
(٤) فتح ٢٦٣/٣ .
(٥) موجز ٥٥ .
(٦) جامع ٩٢/١٥ .
(٧) جامع ٩٢/١٥ . وانظر ابن عطية ١٥٣/٧ . ابن جزى ١٧١/٢ . قطب ١٨٦٢/٤ .
(٨) جامع ٩٢/١٥ ، ٢٦٠ . وانظر القرطبى ١٢/٩ . الشوكانى ٤٦٢/٢ . عتر ١٥٧ ، ١٦٠ . أبو الخشب ١٣ .
(٩) جامع ٢٦٠/١٥ . وانظر البغوى ١٣٤/٤ . ابن عطية ٢٥١/٧ . الفيروز آبادى ١٣٣ . الشوكانى ٤٦٢/٢ ، ٥٠٠ . الآلوسى ١١/ ١١٨ ، ٢١/١٢ . الحمصى ٣٨٩ . عتر ١٥٧ ، ١٦٠ .
(١٠) جامع ٢٦٠/١٥ .
(١١) الكشاف ٢٣٧/٢ . وانظر أبو حيان ١٥٨/٥ . الآلوسى ١١٩/١١ . رضا ٣٠٢/١١ . قطب ٤ / ١٨٦٢ . الحمصى ٣٨٩ .

— الأصنام : قاله ابن عطية[١] .
— الشياطين : قاله ابن عطية[٢] .
— كل ما كانوا يعظمونه : قاله ابن عطية[٣] .
— من خالف محمدا من جميع الأمم : قاله الطبرسى[٤] .
— الكهنة : قاله القرطبى[٥] .
— من شئتم : قاله ابن كثير[٦].
— أهل هذه اللسان العربية على كثرتهم وتباين مساكنهم : قاله الشوكانى[٧] .
— بنو آدم : قاله الشوكانى[٨] .
— الفصحاء : قاله سيد قطب[٩] .
— البلغاء : قاله سيد قطب[١٠] .
— الشعراء : قاله سيد قطب[١١] .
— أهل الأديان : قاله الصابونى[١٢] .
— السحرة : قاله الصابونى[١٣] .
— مصاقيع الشعراء : قاله عتر[١٤] .
— مصاقيع الخطباء : قاله عتر[١٥] .
— الأهل : قاله أبو الخشب[١٦] .
— الأقرباء : قاله أبو الخشب[١٧] .
— الأصدقاء : قاله أبو الخشب[١٨] .

---

(١) المحرر ٢٥١/٧ . وانظر الشوكانى ١٦٢/٢ . عتر ١٥٧ ، ١٦٠ .
(٢) و(٣) المحرر ٢٥١/٧ . (٤) مجمع ١٢ / ١٤٧ .
(٥) الجامع ١٢/٩ . وانظر الآلوسى ٢١/١٢ . الصابونى ٩٤ . عتر ١٥٧ .
(٦) التفسير ٥٩/١ ، ٤٤٧ . عتر ١٥٨ . وانظر الشوكانى ٢/ ٤٦٢ . الصابونى ٩٤ .
(٧) فتح ٤٦٢/٢ . (٨) فتح ٤٦٢/٢ ، ٥٠٠ .
(٩) فى ظلال ١٨٦٢/٤ . (١٠) فى ظلال ١٨٦٢/٤ . طبارة ٢٧ .
(١١) فى ظلال ١٨٦٢/٤ . (١٢) و(١٣) التبيان ٩٤ .
(١٤) و(١٥) بينات ١٥٧ . (١٦) و(١٧) و(١٨) القرآن ١١٣ .

الفصل الثانى

صورة التحدى

الأسباب المباشرة للتحدى

لاشك أن موقف قريش والعرب من الرسالة الإسلامية ، والحاجة إلى ما يؤيد محمدا ، ويبرهن على صدق نبوته ، كافيان لأن يتحداهم القرآن بما تحدى . ولكنى أتناول — فى هذا الفصل — ما جاء به علماء التفسير سببا لنزول بعض الآيات [1] .

١ — ذكر الطبرسى أن محمد بن مسعود العياشى (نحو ٣٢٠ / ٩٣٢) من كبار فقهاء الإمامية من الشيعة روى بإسناده عن أبى عبد الله العباس بن عبد المطلب (٥١ ق.هـ . — ٣٢ — ٥٧٣ — ٦٥٣) فى سبب نزول آية سورة هود — : أن رسول الله — ﷺ — قال لعلى بن أبى طالب (٢٣ ق.هـ — ٤٠ / ٦٠٠ — ٦٦١) : إنى سألت ربى أن يؤاخى بينى وبينك ففعل ، وسألت ربى أن يجعلك وصيى ففعل . فقال بعض القوم : والله ، لصاع من تمر شَنٍّ بال أحب إلينا مما سأل محمد ربه ، فهلا سأله ملكا يعضده على عدوه أو كنزا يستعين به على فاقته . فنزلت الآية [2] .

وواضح أن لا صلة بين الخبر وسياق الآية .

٢ — وروى الطبرسى أيضا عن ابن عباس فى سبب نزولها : أن رؤساء مكة من قريش أتوا رسول الله — ﷺ — فقالوا : يا محمد ، إن كنت رسولا فحوِّل لنا جبال مكة ذهبا ، أو ائتنا بملائكة يشهدون لك بالنبوة [3] .

٣ — ذكر ابن كثير أن محمد بن إسحاق (١٥١ / ٧٦٨) روى عن ابن عباس أن آية سورة الإسراء نزلت فى نفر من اليهود جاءوا رسول الله — ﷺ — فقالوا له : إنا نأتيك بمثل ما جئتنا به . فأنزل الله هذه الآية [4] .

وعلق ابن كثير على هذا الخبر قال : فى هذا نظر ، لأن هذه السورة مكية ، وسياقها كله مع قريش ، واليهود إنما اجتمعوا به فى المدينة [5] .

٤ — وذكر أبو حيان عن ابن عباس أيضا أن سبب نزول آية سورة البقرة أن اليهود قالوا : هذا الذى يأتينا به محمد لا يشبه الوحى ، وإنا لفى شك منه . ثم رجح توجيه

---

(١) الباقلانى ٢٤ ، ٢٥١ . أبو موسى ١٨٤ . (٢) مجمع ١٢ / ١٤٦ .

(٣) مجمع ١٤٦/١٢ . وأتى به غير منسوب : أبو حيان ٧٧/٦ — ٨ .

(٤) التفسير ٦٧/٣ . ورواه دون أن ينسبه إلى ابن عباس : ابن هشام ٢١٩/٢ — ٢٠ . الآلوسى ١٦٧/١٥ . الحمصى ١٩ . ورواه سببا لآية البقرة : أبو حيان ١٠٢/١ ورجح كونها خطابا للكفار : رضا ١٦٢/١ . الحمصى ٣١٥ . (٥) التفسير ٦٧/٣ .

التحدى إلى جميع الكفار[١] .

٥ — وذكر البغوى أن آية سورة الإسراء نزلت حين قال الكفار : لو نشاء لقلنا مثل هذا[٢] .

٦ — وذكر الزمخشرى أن سبب آية سورة البقرة أن الكفار كانوا يقولون : لو كان هذا من عند الله ، مخالفا لما يكون من عند الناس ، لم ينزل هكذا نجوما سورة بعد سورة ، وآيات غِبَّ آيات ، على حسب النوازل ، وكِفاءَ الحوادث ، وعلى سَنن ما نرى عليه أهل الخطابة والشعر ، من وجود ما يوجد منهم مفرقا ، حينا فحينا ، وشيئا فشيئا ، حسب ما يعنّ لهم من الأحوال المتجددة والحاجات السانحة ، لا يلقى الناظم ديوان شعره دفعة ، ولا يرمى الناشر بمجموع خطبه أو رسائله ضربة ، فلو أنزله الله لأنزله خلاف هذه العادة ، جملة واحدة[٣] .

٧ — وذكر ابن عطية أن سببها أن جماعة من قريش قالت لرسول الله — ﷺ — يا محمد ، جئنا بآية غريبة غير هذا القرآن ، فإنا نقدر نحن على المجىء بمثل هذا[٤] .

٨ — وذكر الطبرسى أن آية سورة يونس رد من الله على قول الكفار : ائت بقرآن غير هذا أو بَدِّله ، وقولهم : إن محمدا افتراه[٥] .

٩ — وذكر القرطبى سببا لآية البقرة قول المشركين لما سمعوا القرآن : ما يشبه هذا كلام الله ، وإنا لفى شك منه[٦] .

١٠ — وذكر الرافعى أن العرب كان من عادتهم أن يتحدى بعضهم بعضا فى المساجلة والمقارضة بالقصيد والخطب ، ثقة منهم بقوة الطبع ، ولأن ذلك مذهب من مفاخرهم ، يستعلون به ، ويذيع لهم حسن الذكر وعلو الكلمة ، وهم مجبولون عليه فطرة ، ولهم فيه المواقف والمقامات فى أسواقهم ومجامعهم ، فتحداهم القرآن فى آيات كثيرة أن يأتوا بمثله أو بعضه[٧] .

١١ — وجعل د . محمد سعيد رمضان البوطى سببا لجميع آيات التحدى : أن العرب أنكروا أن يكون فى شىء من آى القرآن ما يدل على صدق محمد ودعوته[٨] .

١٢ — ولاحظ أحمد عز الدين خلف الله أن التحدى تتابع ما بين السورتين ٤٩ و٥٢ ، وأن السبب فى ذلك اشتداد البلاء على محمد من سفهاء قومه ، بعد وفاة أبى طالب وأم المؤمنين خديجة بعده بقليل[٩] .

---

(١) البحر ١٠٢/١ . روح ١٩٢/١ . الحمصى ٢٠ .
(٢) معالم ١٢٧/٥ . وانظر الآلوسى ١٦٧/١٥ . الحمصى ٢٠٢ .
(٣) الكشاف ٢٣٨/١ — ٩ . وذكره دون نسبة : الرازى ١١٦/٢ — أبو حيان ١٠٢/١ . الشوكانى ٢٦٣/٣ . الحمصى ١٠٢ .
(٤) المحرر ١٨٥/٩ . وانظر أبو حيان ٧٨/٦ .
(٥) مجمع ١١٠/١١ .
(٦) الجامع ٢٣١/١ — ٢ .
(٧) إعجاز ١٧٢ .
(٨) من روائع ١٥٢ — ٤ . وانظر عائشة ٥٨ — ٦٠ . حويش ٢٠٩ . عتر ١٥٣ — ٤ . فودة ٢٣١ . الذهبى ٦٦ .
(٩) القرآن ١٣٧ — ٨ .

سور التحدى العشرة

ماهيتها

أدى تحدى القرآن بعشر سور إلى حديث طويل ومتنوع بشأنها . وأول ما نتناوله : هل هى سور معينة أو غير معينة ؟

فقد نقل الكرمانى محمود بن حمزة (٥٠٥/١١١٠) عن ابن عباس : هذه السور التى وقع بها هذا التحدى معينة ، وهى سورة البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف والأنفال والتوبة ويونس وهود . وقوله : ﴿ فأتوا بعشر سور مثله مفتريات﴾[١] إشارة إلى السور المتقدمة [فى المصحف][٢] .

وأبدى الرازى شكه فى هذه الرواية فقال : وهذا فيه إشكال ، لأن هذه السورة مكية، وبعض السور المتقدمة على هذه السورة مدنية . فكيف يمكن أن يكون المراد من هذه العشر سور التى ما نزلت عند هذا الكلام . فالأولى أن يقال : التحدى وقع بمطلق السور التى يظهر فيها قوة تركيب الكلام وتأليفه[٣] .

وتابعه فى الشك أبو حيان ، وتجاوزه فى القطع ، فأعلن : هذه السور أكثرها مدنى ، فكيف تصح الحوالة بمكة على ما لم ينزل بعد . ولعل هذا لا يصح عن ابن عباس[٤] .

ووافقهم نعيم الحمصى الذى أعلن أن قول ابن عباس لم ينص عليه أكثر المتكلمين على الإعجاز . وإنما نصوا على أنها عشر من السور دون تعيين[٥] . وهو الظاهر من الآيات .

وذهب محمد رشيد مذهبا شبيها بالمذهب المنسوب إلى ابن عباس فرأى أن السور العشرة محددة ، وأنها من سور القصص . وقد انتهى ــ بعد استعراض سور القرآن ــ إلى اختيار السور الآتية المتباينة الطول : الأعراف ٢٠٦ آية ، يونس ١٠٩ آية ــ مريم ٩٨ آية ــ طه ١٣٥ آية ــ الشعراء ٢٢٧ آية ــ النمل ٩٣ آية ــ القصص ٨٨ آية ــ القمر ٥٥ آية ــ ص ٨٨ آية ــ هود ١٤٣ . ولاحظ أن السور السبعة الأولى نزلت متعاقبة ، وأن الثامنة والتاسعة متعاقبتان أيضا .

---

(١) سورة هود ١٣ .
(٢) البرهان ٢٣ . الرازى ١٧ / ١٩ . أبو حيان ٢٠٨/٥ . الفيروز آبادى ١٣٨ ــ ٩ . الآلوسى ٢٠/١٢. الحمصى ٢١ ، ١٥٧ ، ٢٠٢ . وأتى به غير منسوب : تناسق عطا ٤١ . وأسرار التكرار ٢٣ .
(٣) مفاتيح ١٩٥/١٧ . أبو حيان ٢٠٨/٥ . وانظر الحمصى ٢٠٢ .
(٤) البحر ٢٠٨/٥ . الآلوسى ٢٠/١٢ . ونسبه إلى الآلوسى : الحمصى ٢٠٢ .
(٥) فكرة ١٥٧ .

وقد وصلت هذه السور — فى رأيه — إلى النهاية من قوة التعبير وجماله ، ولكل منها نغم خاص من الترتيل ، ونوع جديد من التأثير يختلف من سورة إلى أخرى . وحكمة العشر — عنده — أنها تظهر على أكملها فى الإعجاز اللغوى[1] .

وقد علق سيد قطب على هذا قائلا : لقد حاول السيد رشيد رضا أن يجد لهذا العدد علة ، فأجهد نفسه طويلا . ونحسب أن المسألة أيسر من كل هذا التعقيد ، وأن التحدى كان يلاحظ حالة القائلين وظروف القول ، لأن القرآن كان يواجه حالات واقعة محددة مواجهة واقعة محددة ، فيقول مرة : ائتوا بمثل هذا القرآن ، أو ائتوا بسورة أو بعشر سور دون ترتيب زمنى ، لأن الغرض كان هو التحدى فى ذاته بالنسبة لأى شىء من هذا القرآن ، كله أو بعضه أو سورة منه على السواء . فالتحدى كان بنوع هذا القرآن لا بمقداره ، والعجز كان عن النوع لا المقدار ، وعندئذ يستوى الكل والبعض والسورة . ولا يلزم ترتيب ، إنما هو مقتضى الحالة التى يكون عليها المخاطبون ، ونوع ما يقولون عن هذا القرآن فى هذه الحالة . فهو الذى يجعل من المناسب أن يقال سورة أو عشر سور أو هذا القرآن . ونحن — اليوم — لا نملك تحديد الملابسات التى لم يذكرها لنا القرآن[2] .

واعترض على هذا التحديد أيضا نعيم الحمصى متسائلا : أيكون ما هو أقل عددا من العشر غير معجز ؟ ثم عبر عن رأيه الخاص فصرح بأن الذى يراه أن السورة الواحدة منها معجزة ، وأن القرآن كله معجز : القليل منه والكثير[3] .

وواضح أن تحديد عشر سور طلب القرآن معارضتها أمر غير مرضى ، سواء كانت السور التى حددها النص المنسوب لابن عباس أو تلك التى عينها محمد رشيد رضا . والحق إنه لا توجد ضرورة لهذا التحديد . وإنما التحديد للسور التى يأتى بها المعارضون إن أمكنهم . أضيف إلى ذلك تحديد عشر معينة للتحدى يوحى بأن فى القرآن فاضلا ومفضولا .

---

(١) المنار ١٢/٣٢ — ٥ . الحمصى ٣٢٣ .
(٢) فى ظلال ١٨٦١ — ٢ . وانظر العمرانى ١٥ .
(٣) فكرة ٣٢٣ .

عددهـــا

ووقع اختلاف فى عدد السور المتحدى بها . ويبدو أن الطوسى جعلها عشرا أيضـا ، أى أن القرآن طلب منهم عشر سور : « كل سورة منها مثل سورة منه »[١] .

ورفض ابن عطية هذا الفهم وصرح بأن القرآن يقول لهم : عارضوا القدر منـه بعشـر أمثاله فى التقدير والغرض واحد . وليس المعنى : عارضوا عشر سور بعشر[٢] .

وتخيل الطبرسى من يقول : لم ذكر التحدى مرة بعشر سور ، ومـرة بسـورة ، ومـرة بحديث مثله ؟

وكان الجواب أن التحدى إنما يقع بما يظهر فيه الإعجاز من منظـوم الكـلام . فيجـوز أن يتحدى مرة بالأقل ، ومرة بالأكثر[٣] .

القصد من التحدى

فطن العرب ـ منذ جبههم القرآن بأمر التحدى ـــ إلى أن قصـده إبانـة عجزهـم عـن المجىء بمثله ، أو ما سماه العلمـاء بـالتعجيز[٤] ، ود . عائشـة عبـد الرحمـن بالمعـاجزة[٥] . وانفرد الرازى برفض هذا الفهم ، ذاهبا إلى أن الأمر ها هنا مبقى على حقيقتـه ، لأن الله لم يقل : ائتوا ، مطلقا بل قال : ائتوا إن كنتم صـادقين . وعلـى هـذا التقديـر ، ووجـود ذلك الشرط ، يجب الإتيان به ـ يريد يجب تنفيذ الأمر ـ وأما الأمر التعجيز ـ فـى كـلام الله ـ فقوله : ﴿ فإن الله يأتى بالشمس من المشرق ، فأت بها من المغرب . فبهت الذى كفر ﴾[٦] وعلى الرغم من ذلك ختم كلامه بأن قال : وليس هذا بحثا يـورث خلـلا فـى كلامهم[٧] . والحق إن المصير الأخير لكلامهم وكلامه هو العجز .

وفطن العلماء إلى أن القرآن قصد ـ إلى جانب التعجيز ـ أشياء أخرى رصدوها على النحو التالى :

---

(١) التبيان ٥/٤٥٧ . (٢) المحرر ٧/٢٥١ . أبو حيان ٥/٢٠٨ .

(٣) مجمع ١٢/١٤٧ .

(٤) البغوى ١/٧٢ . الزمخشرى ١/٢٤٥ ـــ ٦ . ابن عطيـة ١٤/٦٩ . الطبرسـى ١١/١١٠ . الرازى ٢/١١٩، ٢٧ / ٢٥٨ . القرطبى ١/٢٣٢ . ابن جزى ١/٧١ ، ٢/١٧١ ، ٤/١٣٢ . أبـو حيـان ١/١٠٦ . الشـوكانى ١/١١٠ ، ١٩٣ ـــ ٤ ، ١٩٦ . الآلوسـى ١/١٩٣ ، ١٩٦ . رضـا ١١/٣٠٢ . الحمصى ١٢٨، ١٨٩ . الصابونى ٩٣ .

(٥) الإعجاز ٥٨، ٦٠ ، ٦٢ . (٦) سورة البقرة ٢٥٨ .

(٧) مفاتيح ٢٧/٢٥٨ .

١ ــ التقريع بالعجز : أول من أشار إليه ــ من مصادرى ــ الجاحظ[١] .

٢ ــ التوقيف على النقص ، أى إعلام العرب بعجزهم خشية أن يكونوا غير شاعرين بذلك . وأول من أشار إليه الجاحظ[٢] .

٣ ــ التوبيخ : أول من أشار إليه الطبرى [٣] .

٤ ــ التهديد : أول من أشار إليه الطوسى[٤] .

٥ ــ التبكيت : أشار إليه الزمخشرى[٥] .

٦ ــ التهكم : أشار إليه الزمخشرى[٦] .

٧ ــ إزاحة العلل : أشار إليه الزمخشرى[٧] .

٨ ــ المساهلة وإرخاء العنان : أشار إليه الزمخشرى[٨] .

٩ ــ الإشعار بأن شهداءهم ــ وهم مَداره القوم الذين هم وجوه المَشاهد ، وفرسان المقاولة والمناقلة ــ تأبى عليهم الطباع ،وتجمح بهم الإنسانية والأنفة أن يرضوا لأنفسهم الشهادة بصحة الفاسد البين عندهم فساده ، واستقامة المحال الجلىّ فى عقولهم إحالته : أشار إليه الزمخشرى[٩] .

١٠ ــ التخجيل : أشار إليه الآلوسى[١٠] .

١١ ــ الإرشاد : أشار إليه الآلوسى[١١] .

١٢ ــ التعجيب : أشار إليه محمد رشيد رضا[١٢] .

---

(١) حجج ١٤٤ . الإتقان ٢/٣٢٧ ــ ٨ . الرافعى ١٧٥ ــ ٦ . حويش ٢٥٨ . الصباغ ٥٤ ــ ٥ . لاشين ٤٣٣ ــ ٤ . شحاتة ١٥٦ ــ ٧ . سلطان ٢١٤ . أبو فرحة ١١٠ ــ ١ . وانظر الجرجانى ٣٨. القرطبى ٨/٣٤٤ . الشوكانى ٢/٤٦٢ ، ٥٠٠ . الرافعى ١٧٥ ــ ٦ . إعجاز الخطيب ١/٢٣٣. عرجون ١٤٥ . أمين ١٤٧ . حويش ٩١ ، ٢٨٦ .

(٢) حجج ١٤٤ . الإتقان ٢/٣٢٨ . الرافعى ١٧٦ . حويش ٢٥٨ . الصباغ ٥٥ . لاشين ٤٣٤ . شحاتة ١٥٧ . سلطان ٢١٤ . وانظر ابن عطية ١٤/٦٩ .

(٣) جامع ١/٣٧٨ . وانظر ابن عطية ١٤/٦٩ . الشوكانى ٢/٤٦٢ . الآلوسى ١/١٩٢ .

(٤) التبيان ٥/٤٥٧ . وانظر عرجون ١٤٥ .

(٥) الكشاف ١/٢٣٩ . وانظر الآلوسى ١/١٩٣ ، ١٩٦ ، ١١ /١١٨ .

(٦) الكشاف ١/٢٤٥ . وانظر الرازى ١/١١٩ . أبو حيان ١/١٠٦ . الشوكانى ٤/١٧٢ . الآلوسى ١/١٩٦ ــ ٧ . الصابونى ٩٣ .

(٧) الكشاف ١/٢٣٩ .

(٨) و(٩) الكشاف ١/٢٤٥ . وانظر الآلوسى ١/١٩٦ .

(١٠) روح ١/١٩٣ .

(١١) روح ١/١٩٦ .

(١٢) المنار ١١/٣٠٢ .

١٣ ــ الإنكار : أشار إليه محمد رشيد رضا[١] .

١٤ ــ التأنيب : أشار إليه د. بكرى شيخ أمين[٢] .

١٥ ــ السخرية : أشار إليه أحمد عبد الحميد الشاعر[٣] .

فإذا عددنا التقريع والتوبيخ والتبكيت والتأنيب دلالة ، وكذا التهكم والتخجيل والسخرية ، ومثلهما إزاحة العلل ، اجتمعت لدينا تسع دلالات استخرجها العلماء من سياق آيات التحدى .

المتحدّون[٤]

تعددت أقوال العلماء فى الإفصاح عمن تحداهم القرآن كما يلى :

١ ــ قريش : روى الطبرسى عن ابن عباس أنهم رؤساء مكة من قريش[٥] ونقل الحمصى عن أبى حيان ما يدل على أنه استبعد الشطر الأول من العبارة واقتصر على الثانى ، أى على قريش[٦] .

٢ ــ اليهود : روى أبو حيان عن ابن عباس أيضا أنهم اليهود[٧] .

٣ ــ الكفار : روى الآلوسى عن الحسن البصرى أن خطاب التحدى للكفار[٨].

٤ ــ العرب : أتت إلينا من الجاحظ عدة أقوال . اقتصر فى أحدها على العرب ، فقال مرة : إن الله تحدى أقصى العرب وأدناها[٩] ، وقال أخرى : تحدى أقصاهم بعد أن أظهر عجز أدناهم[١٠] . وجمع بين العرب وقريش فى موضع آخر فقال : إن محمدا قال

---

(١) المنار ٣٠٢/١١ . (٢) التعبير ١٤٧ . (٣) القرآن ١٠٧ .

(٤) انظر الفصل الخاص بمن أعجزهم القرآن . (٥) مجمع ١٤٦/١٢ .

(٦) فكرة ٢٠ . وانظر أبو حيان ٧٨/٦ . حجج الجاحظ ٢٧٣/٣ . الإتقان ٣٢٦/٢ . الآلوسى ١٦٧/١٥ . الرافعى ١٧٥ . الحمصى ١٩، ٢٠، ٢٠٢ . إعجاز الخطيب ١٣٤/١ . حويش ٢٥٦ — ٧ . الصباغ ٥٤ . عبد الفتاح لاشين ٤٣٠ . سلطان ٦٠ . نيازى ١١٢ .

(٧) البحر ١٩٢/١ . ابن كثير ٦٧/٣ . وانظر ابن هشام ٢١٩/٢ — ٢٠ . الطبرى ٣٧٣/١ . المنار ١٦٢/١ . الآلوسى ١٦٧/١٥ . قطب ٤٨/١ . الحمصى ١٩،٣١٥ .

(٨) روح ١٩٢/١ . وانظر الطبرى ٣٧٢/١ — ٣ . الطوسى ١٠٤/١ . البغوى ١٢٧/٥ . الزمخشرى ٢٣٩/١ . الطبرسى ١١٠/١١ . أبو حيان ١٠٢/١ . ابن كثير ٥٩/١ . الآلوسى ٢٦٣/٣. البوطى ١٥٣ . خلف ١٥٥ .

(٩) الإتقان ٣٢٦/٢ . الرافعى ١٧٥ . الحمصى ٢٨ . إعجاز الخطيب ١٣٨/١ . أمين ١٤٨ . الصباغ ٥٤ . عبد الفتاح لاشين ٤٣٣ . شحاتة ١٥٦ . أبو فرحة ١١٠ . ومن العبث تتبع كون التحدى للعرب لأن أغلب الكتب ذكرته .

(١٠) الإتقان ٣٢٧/٢ . الرافعى ١٧٦ . الحمصى ٢٩ . إعجاز الخطيب ١٣٩/١ . الصباغ ٥٤ . عبد الفتاح لاشين ٤٣٤ . شحاتة ١٥٧ . أبو فرحة ١١١ . وانظر الزمخشرى ٩/١ .

لقريش خاصة ، وللعرب عامة — مع ما فيهما من الشعراء والخطباء والبلغاء والدهاة والحكماء ، وأصحاب الرأى والمكيدة والتجارب والنظر فى العاقبة : إن عارضتمونى بسورة واحدة فقد كذبت فى دعواى ، وَصَدقتم فى تكذيبى(١) .

وأكد حمد بن محمد الخطابى (٣١٩ — ٣٨٨ / ٩٣١ — ٩٩٨) كون التحدى للعرب قاطبة(٢) .

٥ — مشركو العرب وأهل الكتاب : ذهب الطبرى إلى أن التحدى كان يخاطب المشركين والمنافقين من العرب ، والكفار والضّلال من أهل الكتابين ، ومن يستعينون به من أعوانهم وأنصارهم(٣) . وبرر ذلك بأنهم إذا عجزوا عن ذلك — وهم أهل البراعة فى الفصاحة والبلاغة — علموا أن غيرهم — عما عجزوا عنه — أعجز(٤) .

وأعلن ابن جُزَى أن آية التحدى فى سورة يونس خاطبت العرب المشركين ومعهم شركاؤهم من الجن والإنس وغيرهم(٥) .

وسار معهم ابن كثير فى قوله : إنه تحداهم كلهم متفرقين ومجتمعين ، سواء فى ذلك أُميهم وكتابيهم(٦) .

٦ — وصرح نعيم الحمصى أن بول كراوس قال فى مقال له ، نشرته مجلة الأديب — سنة ١٩٤٣ / ٤ — ص ٣٢ — أن داعى الدعاة أبا نصر هبة الله بن موسى السلمانى الشيرازى المؤيد فى الدين (٤٧٠/١٠٧٨) روى عن ابن الراوندى أحمد بن يحيى (٢٩٨/٩١٠) : هبْ أن باع فصاحته طال على العرب ، فما حكمه على العجم الذين لا يعرفون اللسان ؟ وما حجته عليهم؟

أراد بذلك — فيما يرى الحمصى — أن الفصاحة إذا كانت ألزمت العرب بالإعجاز فإنها لا تلزم الأعاجم .

وذكر كراوس أن داعى الدعاة قال فى الرد عليه : إن الكلام ألفاظ مقدرة على معانٍ ملائمة لها . والكلام كالجسد ، والمعنى فيه روحه . ومعلوم أن الأجساد — من حيثً كونها أجسادا — لا تتفاوت كثيرا . فإنها — وإن رجح بعضها على بعض من حيث

(١) حجج ٢٧٣/٣ . إعجاز الخطيب ١٣٤/١ . حويش ٢٥٦ . عبد الفتاح لاشين ٤٣٠ . خلف ١٥٤ . وانظر الشافية ٥٧٨ — ٩ . إعجاز الخطيب ٢٦٦/١ . الصابونى ٩١ .

(٢) بيان ١٩ . إعجاز الخطيب ١٥٩/١ . عبد الفتاح لاشين ٤٤٢ . خلف ١٥٦ . أبو على ٩٩ — ١٠٠ . وانظر الزركشى ٩١/٢ . الحمصى ١٤٩ .

(٣) جامع ٣٧٢/١ — ٣ . وانظر الطوسى ١٠٤/١ . أبو حيان ٧٩/٦ .

(٤) جامع ٣٧٣/١ . وانظر فى ظلال ٤٨ . الحمصى ٣٤٩ .

(٥) التسهيل ٩٣/٢ .

(٦) التفسير ٥٩/١ — ٦٠ . وانظر الآلوسى ١٦٦/١٥ .

استقامة النظم وحسن الهندام — فهو أمر قريب . وليس كذلك التفاوت من جهة النفوس التى هى المعانى . فإن نفسا واحدة تقع بوزان الخلق كلهم ، من حيث افتقار النفوس إليها، والحاجة إلى الامتياز منها . والقرآن — كلام الله — هو بمثابة الجسد ، ومعناه روحه الذى كنى الله عنه بالحكمة . فلم يذكره فى موضع من الكتاب إلا قرنه بالحكمة .

وقد قاربت — أيها الخصم — بالإقرار بكونه معجزا من حيث لفظه للعرب الذين هم أهل اللسان — ثم أردفته بقولك : فما الحجة على العجم الذين ليسوا من اللسان فى شىء؟

فنقول : إن فى معناه المكنى عنه بالحكمة ما تقوم به الحجة على كل من تفتّق بالكلام لسانه على جميع اللغات وسائر العبارات . والحجة فيه أن ما كان ظاهره — الذى هو بمنزلة الجسد الذى لا يتفاوت بعضه عن بعض — كثير التفاوت بهذه المثابة من الإعجاز فما يقال فى معناه — الذى هو بمنزلة نفس شريفة تفتقر النفوس كلها إليها . فأين موقعها من الإعجاز ؟

وخالف على بن عيسى الرمانى (٢٩٦ — ٣٨٤ / ٩٠٨ — ٩٩٤) ابن الراوندى ورأى أن الحجة قامت على العربى والعجمى ، بعجز الجميع عن المعارضة ، وبذلك تبين المعجزة [١] .

واستنتج الحمصى أن الإعجاز عند داعى الدعاة — قائم على المعنى أكثر منه على الألفاظ ، والمعنى — عنده — هو روح الكتاب الكريم ، وهو الحكمة . فإذا كان القرآن معجزا للعرب بألفاظه ، فهو معجز للأعاجم بمعانيه التى هى روح تلك الألفاظ[٢].

وروى عبد الجبار بن أحمد الأسد آبادى (١٠٢٥/٤١٥) عن شيخه أبى هاشم عبد السلام بن محمد الجبائى (٢٤٧ — ٣٢١ / ٨٦١ — ٩٣٣) أن العجم يعرفون — فى الجملة — مزية القرآن — استدلالا بالعرب ، وإن لم يعرفوا فصاحة الكلام .

يقوّى ذلك أنهم يعرفون المتقدم فى الفقه ، إذ علموا تسليم الفقهاء له إلى ذلك ، وإن لم يعرفوا الفقه على التفصيل ، إذا عرفوه على الجملة ، وفصلوا بينه وبين سائر العلوم .

وشرح رأى أبى هاشم هذا بقوله : إن الجميع من العجم يعرف حال القرآن وما يختص به من المزية ، فى الجملة ، بعجز العرب عن معارضته ، مع توفر الدواعى . وذلك مما لا يحتاج — فى معرفته — إلى طريقة التفصيل .

---

(١) النكت ٨٩ .

(٢) فكرة ٧٢ .

يبين ما ذكرناه أنهم لو علموا فى بعض الأنبياء أنه حمل جسما ثقيلا ، وتعذر على غيره ، لعلموا أنه معجز ، وإن لم يعلم تفصيله . فكذلك يعلمون أنه أتى بكلام مخصوص من جنس كلامهم ، وتعذر عليهم . وهذا القدر يكفيهم[1] .

وكى نعرف رأى عبد الجبار الشخصى ينبغى أن نطلع على رده على من قال : إن العجم .. إذا لم يصح فيهم تأتّى مثل القرآن ولا تعذُّره ، فلا ينكشف ذلك فيهم أصلا — فكيف يصح التحدى فيهم ، والاحتجاج بالقرآن عليهم ؟ وهل حالهم فى ذلك إلا كحال العاجز إذا تحداه الرسول ببعض الأفعال ؟

قال فى رده : هذا قول بعيد ، وذلك لأنا لا نقول : إنه تحداهم ، وإنما تحدى أهل الشأن . وجعل تعذر المعارضة دلالة لهم ولسائر الناس ، على نبوته ، وعلى أن القرآن خارج عن العادة . فالعجم يعلمون أن تعذر المعارضة على أهل هذا الشأن هو الدلالة . فإذا أمكنهم معرفة ذلك ، فحالهم فى أن الحجة قائمة عليهم كحالهم لو عرفوا تعذر المعارضة من قبلهم لو كانوا من أهل الفصاحة .

وفضل عبد الجبار هذا الرد على قول من يقول : إن العجم يعلمون أنه إذا تعذر على من تقدم ، فهو أولى بأن يتعذر عليهم . وعلل ذلك بأنهم يعلمون بتعذره عليهم ، سواء تعذر على من تقدم أو لم يتعذر[2] .

وذهب عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجانى (٤٧١ / ١٠٧٨) إلى أن عجز العرب قامت به الحجة على العجم قيامها على العرب ، واستوى الناس قاطبة ، فلم يخرج الجاهل بلسان العرب من أن يكون محجوجا بالقرآن[3].

وذهب الحمصى إلى أن تحدى القرآن لم يقتصر على العرب ، دون العجم[4] .

وتساءل عبد الكريم الخطيب : كيف يكون القرآن حجة على غير العرب ممن لا سبيل إلى تحديهم به ، وهم لا يعرفون لغته .

ثم أجاب : إن القرآن دعوة عامة ، ورسالة شاملة للناس جميعا ، من عرب وغير عرب ، على مدى الأزمان والأجيال .

وقد دعا القرآن الناس جميعا — إلى الإيمان به ، وبالرسول الذى نزل عليه . واستجاب — ويستجيب دائما — كثير من غير العرب لهذه الدعوة ، فيدخلون فى الإسلام ، ويتصلون بكتابه ، ويتعلمون لغته ، بل ويحذقونها ، ويذوقون طعومها . ثم يكون لهم بعد

---

(١) المغنى ٢٩٥/١٦ — ٦ . خلف ١٥٢ — ٣ .

(٢) المغنى ٢٩٦/١٦ — ٧ . عائشة ٦٦ .   (٣) دلائل ١٠ . إعجاز الخطيب ٢٣١/١ . وانظر ابن عطية ٦/١ . إعجاز الخطيب ١١٤/١ . أبو زهرة ١٥ . حويش ٢٣٩ .

(٤) فكرة ١٦٦ . وانظر الصابونى ٩١ .

هذا نظرتان : نظرة تجمع بين لغتهم التى عاشوا بها قبل أن يدخلوا فى الإسلام ، وبين اللغة العربية التى عرفوها بعد أن دخلوا فى الإسلام . ومن خلال هذه النظرة يبدو لهم وجه الحكمة فى أن الله شرّف اللغة العربية بحمل هذه الرسالة ..

أما النظرة الأخرى فهى نظرة إلى اللغة العربية ، وإلى مكانها من القرآن . ومن هذه النظرة يتجلى إعجاز القرآن ..

وقد دخل فى الإسلام كثير من غير العرب : من فرس وروم وهنود ، دخلوه ومعهم لغاتهم التى عاشوا فيها ، وعرفوا أسرارها . ثم درسوا اللغة العربية ، لغة الدين الذى آمنوا به ، فعرفوا بلاغتها ، والأسرار المنطوية فيها . ثم عرفوا المعجزة القرآنية التى أعجزت أرباب البيان وأئمة الكلام ...

وعلى هذا نستطيع أن نقرر أن إعجاز القرآن إنما هو حجة على من يحسن العربية ، ويطلب للإيمان بالدعوة معجزة شاهدة لها .

ولكن ليس معنى هذا أن كل من لا يعرف الإعجاز القرآنى ، ولا يملك وسائل معرفته ، غير مطالب بالدخول فى هذا الدين الإسلامى . كلا .

فالإسلام رسالة إنسانية ، تدعو إلى الحق وإلى الخير . وليست دعوة الخير — فى ذاتها — فى حاجة إلى معجزة تشهد لها أنها من عند الله . وإنما كانت المعجزة للمكابرين المعاندين ، الذين لا يستجيبون للحق ، ولا يذعنون له[١] .

واقتفى أثرهم محمد الصادق عرجون فصرح بأن هذا التحدى لون من ألوان الإعجاز التى اشتمل عليها القرآن . وهذا اللون يختص به العرب ، لأنهم أهل العربية التى نزل بها القرآن . ويدخل معهم — تبعا لهم — من تعرَّب من أذكياء الأمم الأخرى ، فعرف من أساليب العرب وطرائقها فى كلامها وأداء أغراضها ما عرفه مصاقع خطبائها ، والمقاويل من حكمائها ، حتى بلغ الغاية البشرية فى التعبير عن أغراض الكلام .

أما التحدى بما وراء ذلك من صنوف الهداية التى تضمنها القرآن ، ونزل بها داعيا إليها ، فهو أمر يعم الناس جميعا . فيجب أن يبين فيه الإعجاز بيانا يثبت حجيته على كل من بلغه مدعوا إليه[٢].

ورفض عبد القادر أحمد عطا قول ابن عطية بأن الحجة قامت على العالم باعتراف العرب ببلاغة القرآن ، ورآه قولا لا يمكن تسليمه على إطلاقه هكذا ، إذ لا يمكن أن تكون البلاغة القرآنية الخارقة لبلاغة العرب هى سبب هداية الترك والفرس قديما ،

---

(١) إعجاز ١١٤ — ٦ .

(٢) القرآن ١٣٨ — ٩ .

والأوربيين حديثا . بل يمكن أن يكون عجز العرب عن المعارضة عاملا مساعدا ، وعنصرا واحدا من عناصر الدعوة عن طريق التفوق القرآنى فى جميع الميادين[١] .

وأعلن أحمد خلف الله أن من قصر التحدى على العرب ، وجعل عجزهم دليلا تفصيليا على عجز العالمين عن المعارضة ، لا يستند إلى النص القرآنى الصريح الموجه إلى العالمين جميعا ، ويتناقض مع عموم الرسالة الذى يقتضى عموم التحدى[٢] .

واتسع د . محمد بركات حمدى أبو على فى التعبير فأعلن أن التحدى لم يكن لعرب دون عرب ، ولا لقوم دون قوم ، بل تحداهم جميعهم ، وفى وقت واحد لا فى أوقات متفاوتة[٣] .

٧ ـ الكافة : أعلن على بن عيسى الرمانى فى مفتتح كتابه وأواخره ـ تحدى الكافة واحدة من الجهات السبعة التى يظهر منها وجوه إعجاز القرآن[٤] . وأكد هذا فى موضع متوسط من الكتاب ، فأعلن أن التحدى عمّ الجميع[٥] .

وعلل ذلك ـ وهو يشرح هذه الجهات فصرح بأنهم لا يجوز أن يتركوا المعارضة ـــ مع توفر الدواعى ـــ إلا للعجز عنها[٦] . فكشف بذلك أن التحدى يجب أن يقترن بالعجز، وبتوفر دواعى المعارضة ، ليُحكَم بالإعجاز .

ولعل أحمد عز الدين خلف الله كان يشرح قولة الرمانى عندما رأى أن التحدى عام كما يفهم من قوله تعالى : ﴿ وادعوا من استطعتم من دون الله ﴾ ﴿ وادعوا شهداءكم من دون الله ﴾ فالتحدى شامل لكل ما يمتد عليه ﴿ من دون الله ﴾ من الراغبين فى المعارضة . ولهم أن يحشدوا ما شاءوا من الأنصار ، ويستعينوا بما شاءوا من مخترعات ولو كانت العقول الإلكترونية[٧] .

٨ ـ معاصرو محمد : حكى أبو بكر محمد بن الطيب الباقلانى (٣٣٨ ـــ ٤٠٣ / ٩٥٠ ـ ١٠١٣) أن قوما زعموا أن أهل عصر محمد اختصوا بالتحدى دون غيرهم ، وأن عجزهم يكفى فى الدلالة . أما أهل العصر الراهن فليسوا بعاجزين عنه .

---

(١) أسرار ٢٤٥ . عظمة ٩٤ ـ ٥ . (٢) القرآن ١٥٥ . (٣) فى إعجاز ٩٩ .

(٤) النكت ٦٩ ، ١٠١ ، ١٧٩ . الإتقان ٢/٣٣٨ . صقر ١١،١٣ . فقيهى ١٤٦ ، ١٤٨ ـ ٩. ضيف ١٠٣ . آلوسى عبد الحميد ٢٦٢ عبد الفتاح لاشين ٤٣٨ ـــ ٤٤ . حويش ٢٦٦ ، ٢٧٠ . اتجاهات مطلوب ١٢٤ . خلف ١٥٦ . سلطان ٧٥ ـ ٦ . أبو موسى ٨٥ ـ ٦ . نيازى ١٢٩ .

(٥) النكت ٨٩ . وانظر ابن كثير ١/٦٠ . الحمصى ١٤٩ . عرجون ١٣٨ ، ١٤١ ـــ ٢ . الصابونى ٩١ ـ ٢ . (٦) النكت ١٠١ .. فقيهى ١٤٩ . عبد الفتاح لاشين ٤٤٠ . حويش ٢٧٠ . خلف ١٥٦ . سلطان ٧٦ . (٧) القرآن ١٥٤ ـ ٥ ، ١٦٥ ، ١٧٤ .

وخطّأ الباقلانى هذا الزعم ، لأن دلالة القرآن — عنده — عن معجزة عامة ، شملت الثقلين ، وبقيت ببقاء العصرين ، ولزوم الحجة بها فى أول وقت ورودها إلى يوم القيامة على حد واحد . وذلك بغض النظر عن أنه من الحق — عنده — أن عجز أهل العصر الأول يُعلم وجه دلالته ، ويغنى عن نظرٍ مجدَّد فى عجز أهل هذا العصر ، كما أن عجز هذا العصر يغنى عن النظر فى حال أهلٍ العصر الأول(١) .

واكتفى على بن محمد الماوردى (٣٦٤ — ٤٥٠ / ٩٧٤ — ١٠٥٨) برصد الاختلاف فيمن أعجزهم القرآن ، دون أن يبين رأيا خاصا ، فقال : وهكذا اختلفوا : هل يعتبر فيه عجز أهل عصر محمد أوفى جميع دهره على هذين الوجهين :

أحدهما يعتبر فيه عجز أهل العصر ، لأنه حجة على أهل كل عصر .

والوجه الثانى أنه يعتبر فيه عجز أهل كل عصر لعموم التحدى فيه لأهل كل عصر(٢).

ويبدو أن عبد القاهر يخالف الباقلانى ، لأنه يصف زمان النبى — ﷺ — بالزمان « الذى نزل فيه الوحى ، وكان فيه التحدى » ، ويصف عرب ذاك الزمان بالأصل والقدوة ، الذين اختصوا بعلم ما يدخل الكلام من تفاضل ، ومن عداهم تبع لهم وقاصر عنهم(٣) .

وسار عبد الكريم الخطيب فى ركاب الجرجانى . فرأى أن القرآن حين تحدى العرب بالكلمة وإعجازها ، إنما تخير زمانا ومكانا ، دعا فيه أهل هذا الزمان وذلك المكان إلى التحدى . وكان أهل هذا الزمان وذلك المكان بحيث لا ترى الحياة بعدهم أو قبلهم من بلغ أو يبلغ شأوهم فى هذا الميدان . وبهذا يكون إفحام هؤلاء القوم وإعجازهم حجة قائمة على الناس جميعا . فحين تسقط الرءوس لا قيام للأقدام(٤) .

ولم يذكر عرجون رأيا صريحا قاطعا ، إذ أعلن — ذات مرة — أن التحدى يشبه أن يكون خاصا بجيل العرب الذين عاصروا نزول القرآن وشُوفهوا به ، لأنهم كانوا أقدر على نظم الكلام فى صورته البشرية العليا ، كما كانوا أقدر على إدراك مواطن الإعجاز فى أسلوب الكلام المعجز .

وعالمنا اليوم — شرقه وغربه — ليس فيه قَوّام أصيل بالذوق العربى ، وإدراك أسرار التعبير الذى ينبع منه الإعجاز البيانى فى القرآن . ولو وجد هذا العبقرى فى عصرنا ، فإنه لا يخرج عن كونه حاكيا ومقلدا لأُصلاء العرب ، وفحول الخطباء والمترسِّلين فى الجاهلية

(١) إعجاز ٨ . عائشة ٦٥ — ٧ . وانظر أبو حيان ٧٩/٦ . دراز ٨٥ . الحمصى ٣٧٠ . إعجاز الخطيب ٢٦٤/١ . عرجون ١٥٥ — ٦ . عائشة ٦٥ . حويش ٢٥٢ . خلف ١٥٠ . الكومى ١٦ .

(٢) أعلام ٧٣ — ٤ .

(٣) الشافية ٥٧٥ — ٦ . عائشة ٦٦ — ٨ .

(٤) الخطيب ١١٤/١ .

وصدر الإسلام . والتقليد — مهما بلغ به صاحبه — فإنه عقيم ، ليس فيه افتنان ابتكار ، ولا تنوع ابتداع ، فهو محدود المدى والغاية . ومثل هذا لا يرتفع إلى درجة التحدى بإعجاز القرآن المبين(١) .

ورأى محمد أبو زهرة أن القرآن معجزة خالدة يتحدى الأجيال كلها(٢) .

وذهبت د . عائشة عبد الرحمن مذهب الجرجانى ، ورأت أن نفرق بين الإعجاز والتحدى . أما الإعجاز فقائم فى كل عصر ، لا يختص به أهل زمان دون زمان . وأما مناط التحدى فهو عجز بلغاء العرب — فى عصر المبعث — عن معارضة القرآن ، وهم أصحاب اللسان العربى الذين يدركون أسرار بيانه ، دون أن يُفهم من هذا أن حجة إعجازه خاصة بعصر دون عصر ، أو على العرب دون العجم .

وأعلنت أن الخلط بين ما فى ثبوت عجز المشركين من العرب عن المعارضة من حسم لموقف التحدى ، وبين خلود المعجزة وبقاء الحجة بها ثابتة على مر الدهر ، هو مَدْعاة الالتباس فى هذه القضية وطول الجدل فيها(٣) .

واتهمت الباقلانى بالاضطراب ثم قالت : أخشى أن أظلم القاضى الباقلانى بنقل فقرات من كلامه قد أراها تحدد موقفا له من قضيتى الإعجاز والتحدى . فالحق إننى ما أكاد أستبين له رأيا فى فقرة أنقلها من كلامه ، حتى يبدو لى فى فقرة أخرى تالية غير ما فهمته من الفقرة قبلها . وأحسبه ما تحير فى موقفه إلا لأنه لم يفصل بين الإعجاز باقيا أبدا ملزما للناس جميعا ، على اختلاف العصور وامتداد الزمن ، وبين التحدى مطروحا على المشركين فى عصر المبعث ، قد حسمه عجزهم عن أن يأتوا بمثله ، وفيهم أمراء البيان ومن يظاهرهم من جن فيما زعموا(٤) .

وسار د . عمر الملا حويش فى ركاب الباقلانى ، فأعلن أن آيات التحدى لم تقترن بزمن معين ، ولم تختص بجماعة دون أخرى ، ولا بجيل معين . وإنما جاءت مطلقة ، والمطلق يؤخذ على إطلاقه ما لم يقيد بنص(٥) .

٩ — الناس : أعلن الباقلانى أنه موجه إلى كل الناس(٦) .

ووصف عبد الكريم الخطيب القرآن مرة بمعجزة قاهرة ، تتحدى الناس جيلا بعد جيل ، وأمة بعد أمة(٧) ، ومرة أخرى بمعجزة تتحدى قدرة الناس(٨) . وذكر محمد عزة

---

(١) القرآن ١٥٥ — ٦ . (٢) المعجزة ١٥ .
(٣) الإعجاز ٦٥ — ٦ . أبو على ٣٢ ، ١٣٥ . (٤) الإعجاز ٦٦ — ٨ .
(٥) تطور ٢٥٢ . (٦) إعجاز ٢٥٠ . وانظر ابن حزم ٢٥/٣ . دلائل ١٠ . المنار ٥٩/١ ، ١٦١ . قطب ٤٨ . الحمصى ١٦٦ ، ٣٤٩ . الصابونى ٩٠ . عائشة ٦١ . الكومى ١٧ .
(٧) إعجاز ١٢١/١ . (٨) إعجاز ٣٠٤/١ .

دروزة أنه يشمل كل إنسان[١] .

وجعل محمد الصادق عرجون تحدى الناس جميعا موجهـا إلى مـا يتضمنـه القـرآن مـن صنوف الهداية[٢] .

١٠ ــ الملائكة : تعرض الباقلانى فى الحديث عن المتحدِّين ــ للملائكة عَرَضا فقال : لو كان القرآن وصف عجز الملائكة عنه ، لوجب أن نعرف ذلك بطريقة[٣] .

ولم يدخل عبد الجبار الملائكة فى اعتبار الإعجاز ، مثلهم فى ذلك مثل الجن . وقال: يبين ذلك أنا نعلم ــ بالسمع فى بعض الملائكة أنهم يطيرون فى الهواء ، وأنهـم يتصرفـون ضروبا من التصرف ، لو وقع مثلها ممن يدعى النبوة ، لكان معجزا . ولا يمنع وقوع مثلـه منهم من ذلك ، لأن عادتهم ليست معتبرة .

ويبطل ــ بهذه الطريقة ــ قول من قال : إنما يصح كون القرآن معجـزا ، إذا ثبـت أن الملائكة عجزت عن المعارضة ، وتعذر ذلك عليها ، لأن عادتهم غير معتبرة ، فتعذرها أو تمكنهم منها لا يختلف فى أنه لا يقدح فى حال القرآن[٤] .

ونقل جلال الدين عبد الرحمن بن أبـى بكـر السـيوطى (٨٤٩ ـــ ٩١١ / ١٤٤٥ ـــ ١٥٠٥) أن محمود بن حمزة الكرمانى قال فى غرائب التفسير : إنما اقتصر فى الآيـة علـى ذكر الجن والإنس لأنه ــ ﷺ ــ كان مبعوثا إلى الثقلين دون الملائكة[٥].

وعلل عبد الله بن عمـر البيضـاوى (٦٨٥ ـــ ١٢٨٦) عـدم ذكـر الملائكـة فـى آيـة التحدى بأنهم كانوا وسائط فى إتيانه[٦] .

وذهب أبو حيان إلى أن الملائكة يحتمل أن يكونوا مندرجين تحت لفظ الجن ، لأنه قد يطلق عليهم هذا الاسم كقوله : ﴿ وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا ﴾[٧] . وإن كان الأكـثر استعماله فى غير الملائكـة مـن الأشـكال الجنيـة المسـتترين عـن أبصـار الإنـس[٨] . ورأى الآلوسى أنه خلاف الظاهر[٩] .

ويبدو أن السيوطى أراد هذا القول عندما نسب إلى بعضهم أنه قال : الملائكة منويون فى الآية لأنهم لا يقدرون أيضا على الإتيان بمثل القرآن[١٠] .

---

(١) القرآن ٣٩٤ . (٢) القرآن ١٣٩ .
(٣) إعجاز ٤١ . أبو موسى ٢٢٢ .
(٤) المغنى ٢٩٨/١٦ ، ٣٠٧ . وانظر البيضاوى ٤١٣/١ . ابن كمال ١٣٣/١ . الحمصى ١٦٥.
(٥) معترك ٧/١ . وانظر أبو حيان ٧٧/٦ . الإتقان ٣٤٣/٢ . العطار ٥٦ .
(٦) أنوار ٤١٣/١ . ابن كمال ١٣٣/١ . الحمصى ١٦٥ . (٧) سورة الصافات ١٥٨ .
(٨) البحر ٧٧/٦ . وانظر الآلوسى ١٦٦/١٥ . الحمصى ٢٠٣ . (٩) روح ١٥ / ١٦٦ .
(١٠) معترك ٧/١ . الإتقان ٣٤٣/٢ . العطار ٥٦ . وانظر الحمصى ١٦٣ .

ورد شمس الدين أحمد بن سليمان المعروف بابن كمال باشا (٩٤٠ / ١٥٣٤) على قول البيضاوى بأن الملائكة أيضا عاجزون عن القرآن ، بدليل قوله تعالى : ﴿ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا ﴾[١] . وعلل عدم ذكرهم فى التحدى بأنهم لا يخرجون عن أمر الله وطاعته لعصمتهم[٢] .

وقال الآلوسى : تخصيص الثقلين بالذكر لأن المنكر لكونه من عند الله منهما لا من غيرهما ، والتحدى إنما كان معهما ، وإن كان محمد مبعوثا إلى الملك كما هو مبعوث إليهما ، لا لأن غيرهما قادر على المعارضة . فإن الملائكة — على فرض تصديهم لها ، وحاشاهم ، إذ هم معصومون لا يفعلون إلا ما يؤمرون — عاجزون كغيرهم[٣] .

١١ — جماعة المشركين : ذكر ابن عطية أن خطاب التحدى كان لجماعة المشركين[٤] . وذكرت د. عائشة عبد الرحمن أن صريح النص القرآنى لآيات المعاجزة أن التحدى للإنس والجن جميعا أن يأتوا بمثله ، لكن الخطاب فيها موجه إلى المشركين العرب الذين جادلوا فى المعجزة[٥] .

١٢ — الجن : يبدو أن تحدى الجن الذى صرحت به آية سورة البقرة أثار الجدال . فقد حكى الباقلانى أن بعض المتكلمين أعلن أن عجز الإنس عن القرآن يثبت له حكم الإعجاز ، فلا يعتبر غيره[٦] .

ولما كشف الباقلانى عما سماه المعانى التى يشتمل عليها بديع نظم القرآن ، وكان المعنى الخامس منها : أن نظم القرآن وقع موقعا — فى البلاغة — يخرج عن عادة كلام الجن كما يخرج عن عادة كلام الإنس ، فهم يعجزون عن الإتيان بمثله كعجزنا ؛ لما كان هذا توهم من يعترض ويقول : هذه دعوى منكم . وذلك أنه لا سبيل لنا إلى أن نعلم عجز الجن . وقد يجوز أن يكونوا قادرين على الإتيان بمثله ، وإن كنا عاجزين ، كما أنهم قد يقدرون على أمور لطيفة ، وأسباب غامضة دقيقة ، لا نقدر نحن عليها ، ولا سبيل لنا — للطفها — إليها .

ثم أجاب عن هذا الاعتراض بجوابين . قال فى الأول منهما : يمكن أن نعرف ذلك بخبر الله عز وجل[٧] .

---

(١) سورة النساء ٨٢ .
(٢) الرسالة ١٥ من رسائله ٣١/١ . الحمصى ١٦٥ — ٦ ، ١٨١ .
(٣) روح ١٦٦/١٥ . (٤) المحرر ٢٠١/١ . وانظر القرطبى ٢٣١/١ . قطب ٤٨ . الحمصى ١٩٠ — ١ ، ٣٤٩ ، ٣٨٩ . الشاعر ١٠٥ .
(٥) الإعجاز ٥٨ ، ٦١ .
(٦) إعجاز ٣٩ . وانظر الرازى ٢١ / ٥٤ . الآلوسى ١٥ / ١٦٦ .
(٧) إعجاز ٣٩ . وانظر المغنى ٢٩٧/١٦ .

وقال فى الثانى . يمكن أن يقال : إن هذا الكلام خرج على ما كانت العرب تعتقده من مخاطبة الجن ، وما يروون لهم من الشعر ، ويحكون عنهم من الكلام . وقد علمنا أن ذلك محفوظ عندهم ، منقول عنهم . والقدر الذى نقلوه من ذلك قد تأملناه ، فهو — فى الفصاحة — لا يتجاوز حد فصاحة الإنس ، ولعله يقصر عنها . وإذ كان الأمر كذلك ، صح ما وصف عندهم من عجزهم عنه كعجز الإنس[1] .

وفضّل هذين الجوابين على قول المتكلم الذى ذكرته آنفا ، مصرحا : ألا ترى أنه لو عرفنا من طريق المشاهدة عجز الجن عنه ، فقال لنا قائل : فدُلّوا على أن الملائكة تعجز عن الإتيان بمثله ، لم يكن لنا — فى الجواب — غير هذه الطريقة . وإنما ضعَّفنا جواب المتكلم ، لأن الذى حُكي وذُكر هو عجز الجن والإنس عن الإتيان بمثله ، فيجب أن نعلم عجز الجن كما علمنا عجز الإنس . ولو كان وَصَف عجز الملائكة عنه ، لوجب أن نعرف ذلك أيضا بطريقه[2] .

وأتى عبد الجبار بالسؤال الذى واجهه الباقلانى فى صياغة مخالفة بعض الشىء ، ثم أجاب عنه إجابة مستفيضة . قال : فإن قال : أفليس محمد قد تحدى الجن كما تحدى الإنس ، فيجب أن لا نعلم كون القرآن معجزا إلا بعد أن نعلم تعذر المعارضة على الجن.

قيل له : قد بينا أنا نعتبر — فى كون القرآن ناقضا للعادات — العادة المعروفة ، دون ما لا نعرفه من العادات . فإذا لم يكن لنا — فى العقل — طريق إلى معرفة الجن أصلا ، لأنهم لا يُشاهدون ، ولا تعرف أحوالهم بغير المشاهدة ، فيجب أن نعتبر أحوالهم وعاداتهم ، لأن اعتبار العادة فرع على معرفة أهل العادات . فإذا صح ذلك ، وعلمنا أنه لا معتبر بذلك ، فقد كفانا — فى معرفة كون القرآن معجزا — بخروجه عن عادة من تُعرف عادته .

وسار سير البلاقلانى فى الجواب الثانى مع زيادة شرح ، فقال : ثم إذا علمنا — بذلك - صحة نبوته ، وخبرنا بالجن وأحوالهم ، وأنهم كالإنس فى تعذر المعارضة عليهم، علمنا أن حالهم كحال العرب ، لأن العلم بإعجاز القرآن موقوف على هذا العلم.

يبين ذلك أنه لو لم يخبرنا بالجن ، كنا لا نعلم إيمانهم أصلا ، وكان لا يقدح ذلك فى العلم بأن القرآن معجز . وكذلك القول فى فقد المعرفة بحالهم . ولولا الخبر الوارد كنا لا نقول : إن المعارضة متعذرة ، فكان لا يقدح فى كون القرآن معجزا . وكان يحل — فى ذلك — محل أن يدعى المدعى النبوة ، ويجعل دلالة نبوته ، تمكنه من حمل الجبال الراسيات

---

(١) إعجاز ٣٩، ٤١ . عائشة ٦٣ .

(٢) إعجاز ٣٨ — ٤١ . وانظر أبو موسى ٢٢٠ — ٢ .

وطمر البحار ، فى أن ذلك إن تعذر على الإنس فقد صار دالا على نبوته ، وإن لم نعلم تعذره على الجن أو الملائكة[(١)] .

ورأى أبو حيان أنه لما كان الجن تفعل أفعالا مستغربة ـ كما حكى الله عنهم ـ فى قصة سليمان ، أُدرجوا مع الإنس فى التعجيز ، ليكون ذلك أبلغ فى العجز[(٢)] .

ويحتمل أن يكون ذكر الجن هنا لأنه ـ عليه السلام ـ بعث إلى الإنس والجن ، فوقع التعجيز للثقلين معا لذلك[(٣)] .

وذهب بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشى (٧٤٥ ـ ٧٩٤ / ١٣٤٤ ـ ١٣٩٢) إلى أن التحدى إنما وقع للإنس دون الجن ، لأن الجن ليسوا من أهل اللسان العربى الذى جاء القرآن على أساليبه . وإنما ذُكروا فى قوله : ﴿ قل : لئن اجتمعت الإنس والجن ﴾ تعظيما لإعجازه ، لأن الهيئة الاجتماعية لها من القوة ما ليس للأفراد . فإذا فرض اجتماع جميع الإنس والجن ، وظاهر بعضُهم بعضا ، وعجزوا عن المعارضة ، كان الفريق الواحد أعجز[(٤)] .

واستضعف الآلوسى الأول من قولى أبى حيان[(٥)] .

ونعت محمد الصادق عرجون آية سورة الإسراء بأنها من أقوى آيات التحدى العام بجملة القرآن ، وأصرحها فى الإعجاز . ثم قال : وهى فى حاجة إلى بيان وجه إدخال الجن ـ فى التحدى ـ مع الإنس :

أكان ذلك لأن الجن مدعوون لرسالة القرآن ، ومكلفون بها . فدخلوا فى التحدى لإقامة الحجة عليهم كما تقام على الإنس ، بعجزهم عن الإتيان بمثل القرآن ، أم جاء ذكر الجن فيها على سبيل المبالغة فى التحدى ؟ فيكون من قبيل ما ورد فى الآيات الأخرى من نحو قوله تعالى : ﴿ وادعوا من استطعتم من دون الله ﴾ وقوله : ﴿وادعوا شهداءكم من دون الله ﴾ ، ويكون المراد من الجن عقلاء عالم الغيب ، ومن الإنس عقلاء عالم الشهادة[(٦)].

وذهبت د . عائشة عبد الرحمن إلى أن تحدى الجن جاء على العرف الأدبى فقالت : نفهم من معاجزة الجن ما تواترت به المرويات من أن العرب كان الشعر يبهرها ، فتتصور أن لكل شاعر فحل تابعه من الجن ، يظاهره ويلهمه روائع القصيد[(٧)] .

---

(١) المغنى ١٦ / ٢٩٧ ـ ٨ . عائشة ٦٣ ـ ٤ .

(٢) البحر ٧٧/٦ . وانظر الآلوسى ١٦٦/١٥ .

(٣) البحر ٧٧/٦ . وانظر عرجون ١٤٢ .

(٤) البرهان ١١١/٢ . وانظر معترك ٦/١ ـ ٧. الإتقان ٣٤٣/٢ . الآلوسى ١٦٦/١٥ . القطان ٢٦٦ . العطار ٥٥ ـ ٦ .

(٥) روح ١٥ / ١٦٦ .

(٦) القرآن ١٤٢ .

(٧) الإعجاز ٦٢ .

ورأت أن هذا الفهم يغنى عن الخوض فى الجدل الغريب الذى أتى به الباقلانى ، والتعلق بمعتقدات العرب فى الجن ومغامرات شعرائهم مع الغيلان ، احتجاجا لفوت القرآن فصاحة الجن[١] .

١٣ ــ العالمون : ذهب الرازى إلى أن تحدى النبى العالمين وعجزهم عن الإتيان بمثله من وجوه الإعجاز[٢] .

وخطّأ أحمد عز الدين خلف الله من قصر التحدى على العرب ، وجعل عجزهم دليلا تفصيليا على عجز العالمين عن المعارضة . وأعلن أن من يفعل ذلك لا يستند إلى النص القرآنى الصريح الموجه إلى العالمين جميعا ، كما أنه يتناقض مع عموم الرسالة الذى يقتضى عموم التحدى[٣] .

وحكم محمد على الصابونى على القرآن بأنه ــ وحده ــ برهان ساطع ، بل براهين ساطعات ، لأن كل مقدار ثلاث آيات منه حجة قاطعة تقوم فى فم الدنيا إلى يوم الساعة، تتحدى العالم[٤] .

وصرح أحمد عبد الحميد الشاعر بأن القرآن لا يتحدى فردا أو جماعة محددة من الناس، وإنما يتحدى أمة بل يتحدى العالم كله[٥] .

١٤ ــ الأمم ــ أهل مكة والمدينة : أعطانا تقى الدين أحمد بن عبد الحليم المعروف بابن تيمية (٦٦١ ــ ٧٢٨ / ١٢٦٣ ــ ١٣٢٨) أربعة ممن تحداهم القرآن :

أهل مكة الذين بدأ التحدى عندهم[٦].

أهل المدينة الذين أعاد التحدى عندهم بعد الهجرة[٧] .

الأمم[٨] .

١٥ ــ جميع الخلق[٩] : وفصّل العلوى الخلق ، فصرح أنه تحدى جميع الخلق الأحمر والأسود والجن والشياطين[١٠] . فأضاف الشياطين .

وقسم محمد على الصابونى التحدى إلى عام وخاص ، وذهب إلى أن التحدى العام وارد لجميع الخلائق بما فيهم الفلاسفة والعباقرة والعلماء والحكماء[١١] .

١٦ ــ البلغاء : ذكر السيوطى أن الله دعا أهل البلاغة والخطابة ــ الذين يَهيمون فى كل

---

(١) الإعجاز ٦٤ ــ ٥ . (٢) مفاتيح ١٥٠/٢ . الحمصى ١٠٦ . وانظر الكومى ١٦ ــ ٧ .
(٣) القرآن ١٥٥ ، ١٥٨ ــ ٩ . (٤) التبيان ٩٦ ــ ٧ . (٥) القرآن ١٠٥ .
(٦) التفسير ١٥٠/٢ . وانظر أبو حيان ٧٩/٦ . (٧) التفسير ١٥٢/٢ .
(٨) التفسير ١٥٠/٢ . وانظر الزرقانى ٢٢٩/١ . إعجاز الخطيب ١٢١/١ .
(٩) التفسير ١٥٣/٢ . وانظر العلوى ٤٢٧/٣ ــ ٨ . الشربينى ١٦/٢ . الحمصى ١٧٤ . الصابونى ٩١ . خلف ١٥٨ . (١٠) الطراز ٤٢٧/٣ ــ ٨ . (١١) التبيان ٩١ .

واد من المعانى بسلاطة لسانهم — إلى معارضة القرآن[١] . وأحسب أنه أخذ هذا القول من تفسير أبى مسلم محمد بن بحر الأصبهانى (٢٥٤ — ٣٢٢ / ٨٦٨ — ٩٣٤)[٢].

وذكر الآلوسى — فى المتحدين الذين ذكرهم — بلغاء العرب وفصحاءهم المرتابين فى أن القرآن من عند الله[٣] .

وأعلن أحمد عبد الحميد الشاعر ذات مرة أن القرآن تحدى المشركين من العرب بل تحدى جميع المُقْرضين والنثريين[٤] .

وهذا القول بدهى لأن التحدى يجب أن يكون موجها للقادرين على البيان .

١٧ — واستنتج محمد بن أحمد الخطيب الشربينى (٩٧٧ / ١٧٥٠) من تغير صيغ الخطاب فى آيات التحدى ، أن القرآن تحدى — أولا — واحدا من الخلق ، ثم تحدى الخلق جميعهم[٥] .

ورد عليه الحمصى بأن التحدى كان عاما لجميع الخلق فى جميع السور ، وإن اختلفت الصيغ بين المفرد والجمع[٦] .

١٨ — الخصوم : وذكر الآلوسى فى المتحدين :

مُعاندى محمد[٧]، منكرى النبوات الذين حكى الله عنهم بقوله : ﴿ وما قدروا الله حق قدره ، إذ قالوا : ما أنزل الله على بشر من شىء ﴾[٨] .

وجعلهم أحمد عز الدين خلف الله ذات مرة أهل الريب[٩] .

وذكر د . رشدى عليان وزميلاه فيهم الخصوم ذوى الأفكار الخبيثة الباطلة الذين يطعنون به ، ويتشككون فيه[١٠] .

١٩ — البشر : ذهب محمود شاكر إلى أن التحدى موجه إلى البشر[١١] وذهب محمد على الصابونى إلى أن التحدى العام من قسمى التحدى آتٍ لجميع البشر بدون استثناء : عربهم وعجمهم ، أبيضهم وأسودهم ، مؤمنهم وكافرهم[١٢] .

وقال حسن دوح : تحدى البشرية كلها ، قديما وحديثا[١٣] .

---

(١) معترك ٦/١ . وانظر الآلوسى ١٩٤/١ .
(٢) معترك ٤/١ .
(٣) روح ١٩٤/١ . وانظر قطب ٣٨ .
(٤) القرآن ١٠٥ . والصواب أن يقول : جميع القارضين ، لأن الفعل من قرض الشعر ثلاثى .
(٥) السراج ٢٠/٢ . الحمصى ١٧٤ .
(٦) فكرة ١٧٤ .
(٧) روح ١٩٣/١ . وانظر حويش ٢٠٩ .
(٨) روح ١٩٣/١ .
(٩) القرآن ١٥٩ .
(١٠) علوم ١٢٣ .
(١١) ظاهرة ٤٤ .
(١٢) التبيان : ٩١ . وانظر فودة ٢٣٠ .
(١٣) حوار ٤٦. وانظر الكومى ١٦ .

تعليـــــق

يجدر بنا ـــ قبل أن نغوص فى هذا الفصل ـــ أن نطرح عنـه شـائبة علقـت بـه ، أعنـى قول الآلوسى بأن محمدا كان مبعوثا إلى الملائكة أيضا . فمعروف أن الله يبعث الرسل إلى مـن حـاد عـن الديـن الصحيـح أو الخلـق القويـم لهدايتـه ، وأن الملائكـة معصومـون عـن الانحراف . فليسوا ـــ إذن ـــ فى حاجة إلى الرسل .

وأعتقد أن القارئ سيلحظ ـــ أول ما يلحظ ـــ أن المتحدثين عن المتحديـن اسـتخدموا مجموعة من الألفـاظ التـى تـؤول إلى مدلـول واحـد ، مثـل الكافـة ، والعـرب والعجـم ، والناس ، والعالمين ، والجن والإنس ، والثقلـين ، وجميـع الخلـق . بـل اسـتخدم المتحـدث الواحد أحد هذه الألفاظ فى موضع ، وغيره فى موضع آخـر ، دون أن يعنـى أنـه يعطـى هذا اللفظ أو ذاك معنى زائدا أو ناقصا .

ونلحظ أربع قضايا شغلتهم فى هذا الصدد :

١ ـــ قضية العجم أو غير العرب : هل التحدى موجه إليهم أيضا .

وقد وصل عرجون فى هذه القضية إلى حل لطيف . فقد جعل العجم فرقتين :

فرقة تعربت ، ووصلت إلى درجة رفيعة من القدرة البيانية ، وهؤلاء مناط التحدى .

وفرقة بقيت على عجمتها ، فليس التحدى موجها إليها بطبيعة الحال .

كما جعل الإعجاز ذا شقين :

إعجازا فى البلاغة يتحدى العرب ومن استعرب من العجم .

وإعجازا فيما تضمنه القرآن من الهداية ، وذاك يتحدى الناس جميعا .

وعلى الرغم من التفرقة بين العرب والعجم ، احترز أصحاب القول . فأعلنوا أن ذلك لا يعفى العجم من اعتناق الإسلام ، بـل ذهـب بعضهـم إلى وجـوب أن يؤمنـوا بإعجـاز القرآن ، اعتمادا على عجز العرب الخُلَّص .

٢ ـــ وقضية الجن : فقد ذهب الزركشى ـــ على الرغم من صراحة الآيـة ـــ إلى أنهـم ليسوا من تحداهم القرآن ، لكونهم أصحاب لغة خاصة ، مثلهم فى ذلـك مثـل العجـم . وذهب أبو حيان إلى أن تحديهم كان لما يسبغ على الكلام من بلاغة . ود . عائشة إلى أنه يسير فى ركاب العرف العربى فى أصل الإبداع الشعرى .

٣ ـــ وقضية الملائكة ، التى لا أصل لها ، وإنما دفع إليها حب الجدل .

٤ ـــ وقضية العصر : فقد ذهب جماعة من القرون الأولى إلى أن التحدى مقصور على معاصرى محمد وحدهم . وأيدهم فى ذلك الجرجانى ، وعرجون فـى قـول مسـتتر بعـض الاستتار . أما الذى صاح بهذا القول فهو د . عائشـة لأنهـا فصلـت بـين التحـدى والإعجـاز فصلا تاما . وقصرت التحدى على من عاصر محمدا . أما الإعجاز فأعلنت بقاءه بقاء الحياة .

وهذا الرأى هو الذى جعلنى أفصل الحديث عن التحدى عـن الحديـث عـن العجـز ، وأضع كلا منهما فى فصل خاص ، على الرغم من التداخل الشديد بينهما .

ترتيب آيات التحدى

لما كان المطلوب فى آيات التحدى قد تغير ، فقد بذل العلماء جهودا طائلة ، لترتيب هذه الآيات وفق نزولها على النبى ـ ﷺ ـ .

ويبدو أن أقدم البحوث اقتصرت[١] على ترتيب سورتى يونس وهود وحدهما ، لأن الأولى تطلب من المتحدين سورة واحدة . والثانية تطلب عشرا .

وقد سار أبو العباس محمد بن يزيد المبرد مع جمهرة العلماء ، وأعلن أن سورة يونس نزلت أولا . ومعنى ذلك أن طلب سورة واحدة سبق طلب عشر [٢] . وتلك كانت المشكلة عندهم . وقد حلها المبرد باختلاف نوع المطلوب فى الحالتين .

وأورد البغوى التساؤل والجواب . قال فإن قيل : قد قال فى سورة يونس : ﴿ فأتوا بسورة مثله ﴾ وقد عجزوا عنه ، فكيف قال : ﴿ فأتوا بعشر سور ﴾ فهو كرجل يقول لآخر : أعطنى درهما ، فيعجز ، فيقول : أعطنى عشرة ؟

الجواب : قد قيل : سورة هود نزلت أولا [٣] .

وخالفهما ابن عطية فوصف من قدم نزول سورة هود على يونس ، لأنه لا يصح ـ فى نظره ـ أن يُعجَّزوا فى واحدة فيكلَّفوا عشرا ، والتكليفات سواء ؛ وصفه بأن لم يلحظ الفرق بين التكليفين : فى كمال المماثلة مرة . ووقوفها على النظم مرة [٤] .

و لم يتعرض جار الله محمود بن عمر الزمخشرى بشىء لترتيب النزول ، واكتفى بأن قال : تحداهم أولا بعشر سور ثم بسورة واحدة ، كما يقول المخاير فى الخط لصاحبه : اكتب عشرة أسطر نحوما أكتب ، فإذا تبين له العجز عن مثل خطه قال : قد اقتصرت

---

(١) البغوى ٤/١٦٥ . الآلوسى ١٢/٢٠ . الحمصى ١٧٤ ، ١٨٠ ـ ١ . عتر ١٥٨ . وانظر ابن عطية ٧/٢٥٠ . الحمصى ١٦١ ، ٢٠٢ .

(٢) البغوى ٤/١٦٥ . الحمصى ١٧٤ ، ١٨٠ . وانظر ابن عطية ٧/٢٥٠ ـ ١ . الآلوسى ١٢/٢١ . ونسبه إلى المبرد : الحمصى ١٨٠ .

(٣) معالم ٤/١٦٥ . وانظر الطوسى ١/١٠٤ . الزمخشرى ٢/٢٦١ . الرازى ١٧/١٩٥ . ابن جزى ٢/١٨٦ . الآلوسى ١٢/٢٠ . الحمصى ٢١ ، ١٢٧ ، ١٢٩ . عرجون ١٤٤ .

(٤) المحرر ٧/٢٥٠ . أبو حيان ٥/٢٠٨ .

منك على سطر واحد[١] . ويشى ذلك بأنه يوافق البغوى فى نزول سورة هود قبل يونس.

و لم تقتصر فئة أخرى من العلماء على سورتى يونس وهود ، وتجاوزتهما إلى غيرهما من السور ، بل إلى كل سور التحدى عند بعضهم .

فعل ذلك الطوسى الذى لم يتعرض صراحة لشىء من ترتيب النزول . واكتفى بالقول بأن الله قال لهم : ﴿ فأتوا بعشر سور مثله مفتريات ﴾ ثم قال : ﴿ فأتوا بسورة مثله ﴾ وقال فى موضع آخر : ﴿ بسورة من مثله ﴾ [٢] .

وناقش الرازى أسبقية يونس وهود مناقشة عقلية وقال : اعلم أن التحدى بعشر سور لابد وأن يكون سابقا على التحدى بسورة واحدة ، وهو مثل أن يقول الرجل لغيره : اكتب عشرة أسطر ...

إذا عرفت هذا فنقول : التحدى بالسورة الواحدة ورد فى سورة البقرة وفى سورة يونس . أما تقدم هذه السورة [هود] على سورة البقرة فظاهر ، لأن هذه السورة مكية وسورة البقرة مدنية . وأما فى سورة يونس فالإشكال زائل أيضا ، لأن كل واحدة من هاتين السورتين مكية . والدليل الذى ذكرناه يقتضى أن تكون سورة هود متقدمة فى النزول على سورة يونس حتى يستقيم الكلام الذى ذكرناه [٣] .

و لم يكتف الرازى بهذا بل أعطانا ترتيبا شاملا للآيات مرتين . قال فى الأولى منهما : اعلم أن التحدى بالقرآن جاء على وجوه :

أحدها قوله : ﴿ فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى ﴾ ــ القصص ٤٩ .

وثانيها قوله : ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ﴾ ــ الإسراء ٨٨ .

وثالثها قوله : ﴿ فأتوا بعشر سور مثله مفتريات ﴾ ــ هود ١٣ .

ورابعها قوله : ﴿ فأتوا بسورة من مثله ﴾ ــ البقرة ٢٣ .

ونظير هذا كمن يتحدى صاحبه بتصنيفه فيقول : ائتنى بمثله ، ائتنى بنصفه ، ائتنى

---

(١) الكشاف ٢/٢٦١ . الحمصى ٢١ . وأورده دون نسبة : الرازى ١٧/١٩٥ . البيضاوى ١/٣٢٤ .

(٢) التبيان ١/١٠٤ . وانظر أبو حيان ٥/٢٠٨ . (٣) مفاتيح ١٧/١٩٥ . عرجون ١٤٤ .

بربعه ، ائتنى بمسألة منه ، فإن هذا هو النهاية فى التحدى وإزالة العذر[١] . ومعنى هذا أن التحدى اتبع ترتيبا تنازليا [٢] ، وأضاف آية القصص .

وقال فى الثانية : اعلم أنه قد ظهر بهذا أن مراتب تحدى رسول الله – ﷺ – بالقرآن ستة :

فأولها أنه تحداهم بكل القرآن . كما قال : ﴿ قل : لئن اجتمعت ... ظهيرا ﴾ .

وثانيها أنه تحداهم بعشر سور قال : ﴿ فأتوا بعشر سور مفتريات ﴾ .

وثالثها أنه تحداهم بسورة واحدة كما قال : ﴿ فأتوا بسورة من مثله ﴾ .

ورابعها أنه تحداهم بحديث مثله فقال : ﴿ فليأتوا بحديث مثله ﴾ .

وخامسها أنه – فى تلك المراتب الأربعة – كان يطلب منهم أن يأتى بالمعارضة رجل يساوى رسول الله فى عدم التتلمذ والتعلم . ثم فى سورة يونس طلب منهم معارضة سورة واحدة من أى إنسان ، سواء تعلم العلوم أو لم يتعلمها .

وسادسها أن – فى المراتب المتقدمة – تحدى كل واحد من الخلق ، وفى هذه المرتبة تحدى جميعهم . وجوّز أن يستعين البعض بالبعض فى الإتيان بهذه المعارضة كما قال : (وادعوا ... صادقين) . وها هنا آخر المراتب [٣] .

وذهب القرطبى إلى أن الله طالبهم بحديث مثله فى سورة الطور ، ثم بعشر سور فى سورة هود . فلما عجزوا حطهم عن هذا المقدار إلى مثل سورة من السور القصار فى سورة البقرة [٤] .

---

(١) مفاتيح ١١٧/٢ . وانظر صبيح ١١٩ – ٢٠ .

(٢) مفاتيح ١١٧/٢ . الحمصى ٢١ ، ١٠٢ . وانظر ابن تيمية ٥١/٢ . العلوى ٣٦٩/٣ – ٧٠ . أبو حيان ١٥٨/٥ . ابن كثير ٤٤٧/١ . الزركشى ٩١/٢ ، ١١٠ . الإتقان ٣٢٥/٢ . الآلوسى ٢٠/١٢ . رضا ١٦٠/١ – ١ . الرافعى ١٧٣ ، ١٩٨ . صبيح ١١٩ – ٢٠ . الزرقانى ٢٢٩/٢ . قطب ١٨٦١/٤ . الحمصى ٢٢ ،١٠٢ ، ١٣٠ ،١٥١ ،١٦٢ ، ١٧٤ ، ١٨٠ –١ ، ١٩٠ ، ٢٠٨ ، ٢٤٢ ، ٣٣١ ، ٣٧٥ . دراز ٨٤ . فقيهى ١٧ . شاكر ٢٤ . القطان ٢٦٦ . عرجون ١٣٩ – ٤٤ . طبارة ٢٦ – ٧ . اللآلىء ٢٤٤ . الصابونى ٩٠ – ١ . أمين ١٤٨ – ٩ . حويش ٩١ –٢ . كفافى ١٣٨ . الصباغ ٥٥ . شحاتة ١٥٤ – ٦ .عتر ١٥٤ – ٦١ . قمحاوى ١٦٩ – ٧٠ . عليان ٢٢٠ . أبو فرحة ١٠٩ . الشاعر ١٠٦ – ٨ . فودة ٢٣١ . الدباغ ١٤ . أبو سليمان ١٠٣ – ٤ . الذهبى ٦٦ – ٧ . الرومى ٩٣ – ٤ . نيازى ١١٢ – ٣ . الكومى ١٦ – ٧ . أبو الخشب ١١٢ – ٣ .

(٣) مفاتيح ٩٧/١٧ ، ٥٥/٢١ .أبو حيان ١٥٨/٥ . وانظر الحمصى ١٧٤ ،٢٠٨ .

(٤) الجامع ٧٧/١ . وانظر الزرقانى ٢٢٩/٢ . الحمصى ١٩٠ . شحاتة ١٥٤ – ٥ .

وتجاهل ابن تيمية النزول . وطبق التحدى التنازلى تطبيقا شاملا . فذهب إلى أن الله تحداهم أن يأتوا بحديث مثله فى سورة الطور ، ثم بعشر سور فى سورة هود ، ثم بسورة واحدة فى يونس ، ثم تحداهم هم ومن استطاعوا أن يأتوا بسورة واحدة[١] . وكان هذا التحدى بمكة ، لأن هذه السور — يونس وهود والطور — مكية [٢] .

واتبع العلوى الترتيب التنازلى ، مقتصرا على ثلاث من المراحل التى نادى بها الرازى ، فقال : نزَّلهم الله فى التحدى على ثلاث مراتب :

الأولى بالقرآن كله فى سورة الإسراء .

الثانية بعشر سور منه فى سورة هود .

الثالثة بسورة واحدة فى سورة البقرة .

ثم قال بعد ذلك : ﴿ فإن لم تفعلوا ، ولن تفعلوا ﴾ فنفى القدرة لهم على ذلك بقضية عامة ، وأمرٍ حتم لا تردد فيه . فدلت هذه الآيات على التحدى مرة بالقرآن كله ومرة بعشر سور ، ومرة بسورة واحدة . وهذا هو النهاية فى بلوغ التحدى . وهذا كقول الرجل لغيره : هات قوما مثل قومى ، هات كنصفهم ، هات كربعهم ، هات كواحد منهم[٣] .

واتبع ابن كثير الرازى، والعلوى وسمى مراتبهما مقامات ، وجعلها كما يلى :

التحدى بالقرآن كله

التحدى بعشر سور فى هود .

التحدى بسورة واحدة فى يونس ثم فى البقرة أيضا[٤] .

ورفض محمد رشيد رضا الترتيب التنازلى ، قائلا : هذا ترتيب معقول لو ساعد عليه تاريخ النزول . والظاهر أن التحدى فى سورتى يونس وهود خاص ببعض أنواع الإعجاز...

ولعل وجه التحدى بعشر سور مفتريات دون سورة واحدة هو إرادة .. الإتيان بالخبر

---

(١) التفسير ١٥١/٢ . وانظر ابن كثير ٤٤٧/١ . الحمصى ٢١ — ٢ ، ١٥١ . موسى لاشين ٢٤٤ . قمحاوى ١٦٩/٢ — ٧٠ .

(٢) التفسير ١٥١/٢ .

(٣) الطراز ٣٦٩/٣ — ٧٠ . الحمصى ٢١ ، ١٣٠ . العطار ٥٤ — ٥ . وانظر الزركشى ٩١/٢ ، ١١٠ . طبارة ٢٦ — ٧ . الصابونى ٩٠ — ١ .

(٤) التفسير ٤٤٧/١ . عتر ١٥٨ — ٩ . وانظر الإتقان ٣٢٥/٢ . رضا ١٦٠/١ — ١ . القطان ٢٦٦ . الرومى ٩٣ — ٤ . الكومى ١٦ — ٧ .

الواحد بأساليب متعددة متساوية فى البلاغة ... والتحدى بمثل هذا لا يظهر فى قصة مخترعة مفتراة بل لا بد من التعدد الذى يظهر فيه التعبير عن المعنى الواحد ، والقصة الواحدة بأساليب مختلفة ، وتراكيب متعددة ، كما نرى فى سوره . فتحداهم بعشر سور مثله فى هدايتها وبلاغتها وأسلوبها واشتمالها على الحكم والعبر والأسوة الحسنة المعينة على التربية والتهذيب ، كما هو شأن القرآن فى قصصه ، كأنه يقول : أدع لكم ما فى سور القصص من الإخبار عن الغيب ، وأتحداكم أنتم وسائر الذين تستطيعون الاستعانة بهم على الإتيان بعشر سور مثل سور القرآن فى قصصها ، مع السماح لكم بجعلها قصصا مفتراة من حيث موضوعها . فإن جئتم به مثل سوره القصصية فى سائر مزاياها اللفظية والمعنوية ، فأنا أعترف لكم بدحض حجتى عليكم .

وأما اكتفاؤه فى سورة يونس بعدها بالتحدى بسورة واحدة فى مقام الرد على قولهم: افتراه ، فلأنه لم يقيده بكونها مفتراة ، لا من باب التخفيف عليهم بالواحدة بعد عجزهم عن العشر ، فيدخل فيه خبر الغيب والتزام الصدق .

فعلم من هذا التفصيل أن التحدى بإعجاز القرآن لذاته فى جملته . والتحدى ببعض أنواع إعجازه فى عشر سور مثله ، وبسورة مثله ، كليهما ثابت فى السور المكية قبل نزول آية البقرة وسورتها بعد الهجرة فى المدينة المنورة .

ولما كان كفار المدينة الذين يوجه إليهم الاحتجاج أولا وبالذات هم اليهود — وهم يعدون أخبار الرسل فى القرآن غير دالة على علم الغيب — تحداهم بسورة من مثل النبى — ﷺ — فى أميته ، ليشمل ذلك وغيره مع بقاء التحدى المطلق بسورة واحدة مثله على إطلاقه غير مقيد بكونه من مثل محمد — ﷺ —[(١)] .

وعاد مصطفى صادق الرافعى إلى الترتيب التنازلى فأعلن أن التحدى كان مقصورا على طلب المعارضة بمثل القرآن كله ، ثم بعشر سور مثله ، ثم بعشر مفتريات لا يلتزمون فيها الحكمة ولا الحقيقة وليس إلا النظم والأسلوب ... ثم قرن التحدى بالتأنيب والتقريع فى المطالبة بسورة واحدة ، ثم استفزهم بعد ذلك جملة واحدة كما يُنفَخ الرماد الهامد فى سورة البقرة [(٢)] .

---

(١) المنار ١/١٦١ — ٢ . الحمصى ٣١٤ — ٥ ، ٣٢٢ . وانظر قطب ٤/ ١٨٦١ .

(٢) إعجاز ١٧٣ ، ١٩٨ .

ورفض سيد قطب الترتيب التنازلى معلنا أنه ليس عليه دليل . بل الظاهر أن سورة يونس سابقة ، والتحدى فيها بسورة واحدة ، وسورة هود لاحقة والتحدى فيها بعشر . وحقيقةً إن ترتيب الآيات فى النزول ليس من الضرورى أن يتبع ترتيب السور . فقد كانت تنزل الآية فتلحق بسورة سابقة أو لاحقة فى النزول ، إلا أن هذا يحتاج إلى ما يثبته. وليس فى أسباب النزول ما يثبت أن آية يونس كانت بعد آية هود . والترتيب التحكمى فى مثل هذا لا يجوز .

كما رفض رأى محمد رشيد رضا ، وختم بأن جاء برأى جديد قال فيه : نحسب أن المسألة أيسر من كل هذا التعقيد ، وأن التحدى كان يلاحظ حالة القائلين وظروف القول ، لأن القرآن كان يواجه حالات واقعة محددة ، ومواجهة واقعة محددة . فيقول مرة: ائتوا بمثل هذا القرآن ، أو ائتوا بسورة ، أو بعشر سور ، دون ترتيب زمنى ، لأن الغرض كان هو التحدى فى ذاته بالنسبة لأى شىء من هذا القرآن : كله أو بعضه أو سورة منه على السواء . فالتحدى كان بنوع القرآن لا بمقداره . والعجز كان عن النوع لا عن المقدار . وعندئذ يستوى الكل والبعض والسورة ، ولا يلتزم ترتيب . إنما هو مقتضى الحالة التى يكون عليها المخاطبون ، ونوع ما يقولون عن هذا القرآن فى هذه الحالة. فهو الذى يجعل من المناسب أن يقال سورة أو عشر سور أو هذا القرآن . ونحن اليوم لا نملك تحديد الملابسات التى لم يذكرها لنا القرآن[1] .

وفصّل نعيم الحمصى الأمر فقال : نحن إذا رجعنا إلى ترتيب السور التى فيها التحدى فى القرآن كما جاء به السيوطى رأينا أن سورة الإسراء نزلت أولا ، ويتلوها سورة هود ثم سور الطور ثم البقرة ، والثلاث الأولى مكية . ثم يذكر فى استثناءات الآيات المدنية من السور المكية رأيا مآله أن آية التحدى فى سورة الإسراء مدنية . وبهذا تكون آية سورة هود ــ وفيها التحدى بعشر سور ــ قد نزلت قبل آية الطور ، وفيها التحدى بمثل القرآن . وهذا يخالف ترتيب الجمهور الذى ذكره فى الجزء الثانى من الإتقان .

وإذا رجعنا إلى ترتيب السور لدى صاحب الكشاف ، نجد عنده نفس ترتيب السور لدى صاحب الإتقان . إلا أنه لا يذكر أن آية سورة الإسراء مستثناة . وبهذا يكون التحدى بحسب صاحب الكشاف قد وقع أولا بمثل القرآن ثم بعشر سور ثم بمثل القرآن ثم بسورة[2] .

---

(١) فى ظلال ٤/١٨٦١ ــ ٢ . الحمصى ٣٥٧ ــ ٨ .　　(٢) فكرة ٢٢ .

وإذا رجعنا إلى ترتيب نولدكه للسور ، نجدها عنده على الترتيب التالى : سورة الطور ثم الإسراء ثم هود ثم البقرة . و لم يذكر استثناءات الآيات المدنية من المكية .

فإذا اعتبرنا استثناء آية التحدى من سورة الإسراء المكية صحيحا فجعلناها مدنية ، وأخرناها فى الترتيب عن آية سورة البقرة ، وصلنا إلى رأى الجمهور فى الترتيب ، بحيث يكون التحدى وقع أولا بمثل القرآن فى سورة الطور ، ثم بعشر سور فى هود ، ثم بسورة واحدة فى يونس والبقرة . ثم يقطع أمل الإنس والجن فى التحدى فى سورة الإسراء .

ولا شأن لهذا الاختلاف فى ترتيب آيات التحدى إلا إثبات أن القرآن قد تحدى العرب بما يستدعيه المنطق من التحدى بالأصعب فالأسهل .

فإذا أخذنا فى تفسير بعض الآيات بما يقول به بعضهم من أن المقصود من ذكر المقدار ليس التحديد والعدد ، وإنما هو مجرد الإتيان بمثله ، لم يكن لهذا الترتيب قيمة منطقية أو عملية . والواقع أن هذا التحدى قد وقع فعلا ، وأن مسألة الكم لم تكن مقصودة ، لأن مقتضى الحال لم يكن يستدعى هذا التحديد فى المقدار .

وممن قال بهذا الرأى الشهاب الخفاجى ، ويؤيده أن آية سورة الإسراء ، وهى آخر هذه الآيات فى الترتيب لم تذكربها مسألة الكم ، بل قيل فيها : ﴿ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن ﴾ والمثل هنا ينطبق على القليل والكثير منه وعليه كله .

فإذا أخذنا بهذا الاعتبار ، وهو أن الكمّ لم يقصد فى هذا التحدى ، وإنما قصد الكيف، جنبنا أنفسنا عناء البحث فى الترتيب الصحيح الدقيق لهذه الآيات . ولا سيما إذا لاحظنا أن ترتيب الآيات فى سورها ليس دقيقا ومرتبا بحسب تاريخ النزول على الصحيح. فقد روى أن النبى — ﷺ — كان — إذا نزلت الآية — يقول لأصحابه : ضعوها فى مكانها من سورة كذا . وبعض المدنى يحتوى المكى وبالعكس . فالمسألة لا تعتمد على العقل . وإنما مآلها النقل ، ولا يمكن الاعتماد عليه إلى حد كبير . فقد كثر الاختلاف فيه كما قَلَّت فيه الدقة . وكذلك لا يمكن أن نستدل من قصر الآيات وطولها وأسلوبها على هذا الترتيب ، لأن بعض الآيات المكية أسلوبها مدنى . وبعض الآيات المدنية أسلوبها مكى ، ولأن قصر الآيات وطولها يتبع الفكرة وتأجج العاطفة لا مكان النزول وتاريخه[1].

إلى جانب ذلك ، أعجب نعيم الحمصى بأقوال محمد رشيد رضا . ورأى أنه قد

---

[1] فكرة ٢١ — ٣ ، ٤٤٨ .

أصاب كل الصواب حين ربط مقدار التحدى بسياق السورة التى ورد فيها وموضوعها ربطا منطقيا ضروريا طبيعيا ، و لم يكن ــ عنده ــ المقدار مجرد عدد يُذكر[١] .

وعلق د . محمد عبد الله دراز على الترتيب التنازلى وسورة البقرة فقال : انظر كيف تنزَّل معهم فى هذه المرتبة ، من طلب المماثل إلى طلب شىء مما يماثل . كأنه يقول : لا أكلفكم بالمماثلة العامة بل حسبكم أن تأتوا بشىء فيه جنس المماثلة ومطلقها ، وبما يكون مِثْلا على التقريب لا التحديد . وهذا أقصى ما يمكن من التنزل . ولذا كان هو آخر صيغ التحدى نزولا . فلم يجىء التحدى بلفظ (من مثل) إلا فى سورة البقرة المدنية. وسائر المراتب بلفظ (مثله) فى السور التى نزلت قبل ذلك بمكة[٢].

وتوسع محمد الصادق عرجون بآيات التحدى كثيرا فعدّ منها ما لم يعده غيره قال : تدرج القرآن فى تحديه ليقطع ريب كل مرتاب .

فالمرتبة الأولى تحديه بنفسه جملة . وذلك فى نحو قوله : ﴿ أو لم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة ، إن هو إلا نذير مبين * أو لم ينظروا فى ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شىء ، وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم ، فبأى حديث بعده يؤمنون ﴾[٣].

فقول الله : ﴿ فبأى حديث بعده يؤمنون ﴾ إنكار يتضمن التحدى بطلب الإتيان بحديث مثله فى خصائصه البيانية وهداياته الإلاهية .

وجعل من هذه المرتبة قوله : ﴿ الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها ، مثانى ، تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله . ذلك هدى الله ، يهدى به من يشاء ، ومن يضلل الله فما له من هاد ﴾[٤] وقوله : ﴿ فبأى حديث بعده يؤمنون ﴾[٥]. وآيتى الطور والإسراء .

والمرتبة الثانية من مراتب التحدى هى تحديه بعشر سور مثله . وأطلق لهم العنان فى اختراع المعانى ، إمعانا فى امتهانهم وإظهار عوار عجزهم . فلم يطالبهم بأن تكون السور العشر التى يجيئون بها على حده فى استواء المعانى ، بل عشر مفتريات لا يرجع فيهن إلى أصل سديد .

ويجىء بعد ذلك مرتبة ثالثة ، وهى مرتبة التحدى بأقل من عشر سور ، وقد نزل بها القرآن إلى التحدى بسورة واحدة . وذلك ورد فى سورتى يونس والبقرة[٦] .

وتجاهلت د. عائشة عبد الرحمن الترتيب التنازلى ، وسارت على الترتيب المعروف

---

(١) فكرة ٣٢٦ . (٢) النبأ ٨٤ . (٣) سورة الأعراف ١٧٤ ــ ٥ .
(٤) سورة الزمر ٢٣ . (٥) سورة المرسلات ٥٠ . (٦) القرآن ١٣٩ ــ ٤٤ .

للسور ، محددة بدء التحدى بأواسط العهد المكى ، الذى اشتد فيه الجدل من المشركين[١].

وتجاهل محمد الصباغ سورة يونس . ورأى أن التحدى كان — أولا — بالمثل فى سورتى الإسراء والطور ، ثم بعشر سور فى هود ، ثم بواحدة فى البقرة[٢] .

وتوسع أحمد خلف الله فجعل التحدى كان فى الإتيان :

١ — بكتاب — من عند الله — أهدى من القرآن والتوراة .

٢ — بمثل القرآن .

٣ — بسورة مثله .

٤ — بعشر سور مثله ، وليستعينوا فى افترائها بمن شاءوا .

٥ — بحديث مثله .

٦ — بسورة من مثله[٣] .

ورتب محمود بسيونى فودة التحدى على الطور ثم هود ثم البقرة ثم الإسراء التى سجل الله فيها عجزهم[٤] .

تعقيب

الخلاصة أن من العلماء من ركز كل اهتمامه على السورتين اللتين كانتا سبب المشكلة، مثل المبرد والزمخشرى ، ومنهم من عنى بترتيب ثلاث سور مثل الطوسى والقرطبى ، ومنهم من عنى بالسور الأربعة .

وانفرد الرازى بضم سورة القصص إليها ، وعرجون بضم آيات أخرى كثيرة .

والغريب أننا لا نجد ترتيبا واحدا ولا اثنين ، بل عدة ترتيبات للسور وسمى الرازى عناصر الترتيب مرة وجوها ، ومرة مراتب . وسماها العلوى مراحل ، وابن كثير مقامات .

وجلىّ اضطرار من أخذ بالترتيب التنازلى إلى تجاهل تاريخ النزول ؛ ومن أخذوا بتاريخ النزول إلى تلمس السبل فى وجوه التحدى للتغلب على مشلة التحدى بسورة ثم بعشر ، وهو أمر يتعارض مع النظر العقلى .

ووردت عبارة غريبة عند الرافعى تفيد أن التحدى بعشر سور وقع مرتين . وأعتقد أنها زلة قلم منه .

---

(١) الإعجاز ٥٨ — ٦٠ .
(٢) لمحات ٥٥ — ٦ . وانظر أبو سليمان ١٠٣ — ٤ .
(٣) القرآن ١٣٧ .
(٤) المرشد ٢٣١ .

حكمة التحدى

عرف العرب ــ منذ الوهلة الأولى ــ أن تحدى القرآن إياهم أن يأتوا بما يماثله ، وعدم إتيان أحد بهذا المثيل ، دليل على العجز ، وأن هذا العجز دليل على إعجاز القرآن .

وشاعت هذه المقولة ــ بسبب بداهيتها ـــ عند كل من تعرض للإعجاز ، مفصلة حينا، وموجزة آخر ، ومقتصرة على الإشارة السريعة حينا ثالثا . فمن العبث أن يحاول دارس تتبعها . وإنما يعنينى فى هذا الفصل ما نتج عنها أو دار حولها .

وفصل الرمانى بين هذين الشقين ، وجعل كلا من تحدى الكافة ، وترك المعارضة مع توفر الدواعى وشدة الحاجة ، وجهان مستقلان من وجوه الإعجاز السبع عنده[1] . وبرر ذلك بأنهم لا يجوز أن يتركوا المعارضة ــ مع توفر الدواعى ــ إلا للعجز عنها[2]

وأعلن الباقلانى : إنما احتيج إلى التحدى لإقامة الحجة ، وإظهار وجه البرهان على الكافة . لأن المعجزة إذا ظهرت فإنما تكون حجة بأن يدعيها من ظهرتْ عليه ، ولا تظهر على مُدَّع لها إلا وهى معلومة أنها من عند الله . فإذا كان يظهر وجه الإعجاز فيها للكافة بالتحدى ، وجب فيها التحدى ، لأنه تزول بذلك الشبهة عن الكل ، وينكشف للجميع أن العجز واقع عن المعارضة[3].

ووجد مصطفى صادق الرافعى حكمتين للتحدى :

إحداهما أن ذكره فى القرآن إنما هو أن يشهد التاريخ فى كل عصر بعجز العرب عن القرآن ، وهم الخطباء اللُّد ، والفصحاء اللُّسن ، وهم كانوا فى العهد الذى لم يكن للغتهم خير منه ، ولا خير منهم فى الطبع والقوة . فكانوا مظنة المعارضة والقدرة عليها ، حتى لا يجىء ــ بعد ذلك فيما يجىء من الزمن ــ مولّد أو أعجمى أو كاذب أو منافق أو ذو غفلة ، فيزعم أن العرب كانوا قادرين على مثله ، وأنه غير معجز ، وأنْ عسى أن لا يعجز عنه إلا الضعيف . ويالله من سمو هذه الحكمة ، وبراعة هذه السياسة التاريخية لأهل الدّهر . [4]

---

(١) النكت ٦٩ ، ١٠١ . الإتقان ٢/٣٣٨ . صقر ١١ . فقيهى ١٤٦ . ضيف ١٠٣ . لاشين ٤٣٨ ، ٤٤٠ . أبو موسى ٨٥ . وانظر عياض ٥٢٦ . عرجون ١٣٨ .

(٢) النكت ١٠١ .

(٣) إعجاز ٢٤ . أبو موسى ١٨٤ .

(٤) إعجاز ١٧٢ ــ ٣ . وانظر أمين ١٤٧ .

والثانية أن هذه الطريقة المعجزة التى نزل بها القرآن كانت السبب فى حفظ العربية واستخراج علومها ، وما كان أصل ذلك إلا التحدى بها . فإن من حكمة هذا التحدى أن يدعوهم إلى النظر فى أساليبه ووجه نظمه ، وتدبُّر طريقته ، وأن يروزوا [يختبروا] أنفسهم منها ويزنوها به ، حتى إذا استيقنوا العجز وأطرقوا عليه ، كان ذلك سببا لمن يخلفهم على اللغة إلى استبانة وجوه الإعجاز . فكشفت لهم عن فنون البلاغة ، وتأدت بهم إلى حيث بلغوا من تتبُّع كلام العرب ، والاستقصاء فيه ، والكشف عن محاسنه ...

ولولا ما صنعوا لخرج الناس إلى العجمة ، ولذهبت هذه الآداب ، ولما بقى فى الأرض إلى اليوم من يقول : إن القرآن معجز[1] .

ولا أستطيع أن أزعم أن الرافعى أول من قال هاتين الفكرتين . فالأولى مأخوذة من القول بأبدية التحدى ، والثانية شائعة فى كتب العلوم الإسلامية وبخاصة علم البلاغة .

وذكر أحمد عز الدين خلف الله أن تحدى القرآن للعرب ـ بعد عادات سلفت لهم فى التحدى فى مثل ذلك والمباراة والمنازعة فيه ـ كان الجديد فيه أنه لم يكن من أجل شىء مألوف عندهم ، وهو طلب السلطة والغلبة والاستعلاء ، بل كان من أجل الإقرار بصدق الرسالة ، وما يتبع ذلك من الإيمان بالله ورسوله[2].

---

(١) إعجاز ٢٥٢ ـ ٣ . وانظر الرافعى ٢٢٢ . طبارة ٢٦ . أمين ١٤٧ .

(٢) القرآن ١٣٨ .

الفصـــل الثالث

إثبات وقوع التحدى وصحته

١ ــ علنية التحدى

لم يصل إلى يدى نصوص من القرنين الأولين ، تتناول تحدى القرآن لخصوم الإسلام ، تحاول أن تبرهن على صحة هذا التحدى ، وأنه كان تحت أبصار هؤلاء الخصوم ، مما قد يدل على أنهم ــ هم أيضا ــ لم يحاولوا أن ينكروا وقوع التحدى .

وأول ما عثرت عليه من نصوص من قول الجاحظ ، الذى تعرض لهذه المسألة أكثر من مرة .

١ ــ فقد قال فى النص الذى أورده « الإتقان » : وهو ــ فى ذلك ــ يحتج عليهم بالقرآن ويدعوهم صباحا ومساء إلى أن يعارضوه[١]

٢ ــ وقال ذات مرة فى « حجج النبوة » : تحدى البلغاء والخطباء والشعراء ... فى المواضع الكثيرة ، والمحافل العظيمة[٢]

٣ ــ وعاد إلى ذلك ثانية ، مبينا طريق الذيوع ، قال : سمعوه فى كل منهل وموقف . والناس موكّلون بالخَطابات ، مولعون بالبلاغات . فمن كان شاهدا فقد سمعه ، ومن كان غائبا فقد أتاه به من لم يزوِّده[٣] .

٤ ــ واستدل ــ فى مرة ثالثة ــ من كثرة المراجعة التى أبداها الخصوم ؛ وذكرها القرآن فى سورتى الفرقان ويونس ، على أن التقريع لهم بالعجز كان فاشيا[٤].

وغير بعيد أن يكون ابن حزم أفاد من ثانى أقوال الجاحظ فى قوله : قد ذكرنا قيام البرهان على أن القرآن معجز ... بتعجيز رسول الله ــ ﷺ ــ الناس أن يأتوا بمثله ، وتبكيتهم بذلك فى محافلهم . وهذا أمر لا ينكره أحد : مؤمن ولا كافر ، وأجمع المسلمون على ذلك[٥] .

---

(١) الإتقان ٢ / ٣٢٧ . الرافعى ١٧٥ . الحمصى ٢٨ . إعجاز الخطيب ١ / ١٣٨ . أمين ١٤٨. الصباغ ٥٤ . عبد الفتاح لاشين ٤٣٣ . شحاتة ١٥٦ . أبو فرحة ١١٠ . وانظر مرسى لاشين ٢٤٥. حويش ٢٣٨ . شعبان ١ / ٣٢٩ .

(٢) رسائل ٣ / ٢٥١ . سلطان ٦٠ ، ٢١٣ . وانظر ابن حزم ٣ / ٢٥ . عياض ١ / ٥٠٤ . العلوى ٣ / ٣٧٥ .

(٣) رسائل ٣ / ٢٧٤ ، ٢٧٥ . إعجاز الخطيب ١٣٥/١ . حويش ٢٢٥/٢٥٨ . عبد الفتاح لاشين ٤٣١ . خلف ١٤٣ . وانظر عبد الجبار ٢٣٦/١٦ــ ٤٤ .

(٤) رسائل ٢٧٦/٣ . إعجاز الخطيب ١٣٦/١ .

(٥) الفصل ٢٥/٣ .

ومثله فى ذلك العلوى الذى أعلن أن محمدا كان يغشى محافلهم ، ويتلو عليهم القرآن ويَقْرع مسامعهم . ولا وجه لذلك إلا أنه يتحداهم به ، ويوجب عليهم طاعته . وهذا أمر ظاهر لا يمكن جحده ولا إنكاره[1] .

٥ ــ وذكر عياض بن موسى اليحصبى أن التحدى كان على رؤوس الملأ أجمعين[2] ، وابن تيمية أنه سمعه كل من سمع القرآن ، وعرفه الخاص والعام[3] .

٦ ــ وجاء نعيم الحمصى بالعبارة صريحة فقال : إن القرآن تحداهم علانية وبقوة [4] . وقال عفيف عبد الفتاح طبارة : سمع العرب آيات التحدى ، وانتشرت فيما بينهم ، ودارت على الألسنة [5] . ووصف محمد على الصابونى التحدى بالسافر [6] .

٢ ــ الجدل فى وقوع التحدى

١ ــ كرر الباقلانى الحديث عن حاجة الأنبياء إلى التحدى . فقال : إنما احتيج إلى التحدى لإقامة الحجة ، لأنها تزول ــ بها ــ الشبهة عن الكل ، وينكشف للجميع أن العجز واقع عن المعارضة [7] ، ولأن من الناس من لا يعرف كونه معجزا ، لأن الكلام المعجز لا يتميز من غيره بحروفه وصورته ، وإنما يحتاج إلى علم وطريق يتوصل به إلى معرفة كونه معجزا . فمتى رأى أهل ذلك اللسان قد عجزوا عنه بأجمعهم ــ مع التحدى إليه ــ صار ــ حينئذ ــ بمنزلة من رأى اليد البيضاء وانقلاب العصا ثعبانا يتلقف ما يأفكون [8] .

٢ ــ واعتمد الباقلانى فى إثبات وقوع التحدى والعجز على النقل : فأعلن أن ذلك مذكور فى المواضع الكثيرة من القرآن [9] فالذى يدل على ذلك ــ إذن ــ النقل المتواتر الذى يقع به العلم الضرورى ، فلا يمكن جحده [10] .

---

(١) الطراز ٣/٣٧٤ . (٢) الشفا ١/٥٠٤ . إعجاز الخطيب ١/٢٨٧
(٣) التفسير ٢/١٥٣. (٤) فكرة ١٩ . (٥) روح ٢٨ .
(٦) التبيان ٩٣ . (٧) إعجاز ٢٤ . وانظر حاجة الأنبياء إلى المعجزة .
(٨) إعجاز ٢٥١ . (٩) إعجاز ١٧ .
(١٠) إعجاز ١٨ . إعجاز الخطيب ١/١٧٥ــ١٨٠،٦ . عبد الفتاح لاشين ٤٥٤ــ٦ . وانظر العلوى ٣/٣٦٩، ٢٧٢ . الإيجى ١/٣٤٩. الحمصى ٤٢ .

وأعلن العلوى أن للملاحدة أسئلة ركيكة على كون القرآن معجزا : السؤال الأول منها قولهم : لا نسلم أن القرآن معجز . وعمدتكم فى إعجازه إنما هو التحدى . وقررتم التحدى على تلك الآيات التى تلوتموها ، ونحن ننكر تواترها . فإن المتواتر من القرآن إنما هو جملته دون الآحاد منه . ويؤيد ما ذكرناه ما وقع من التردد والاختلاف فى مفرداته دون جملته ، بدليل أمور ثلاثة :

أما أولا : فلأنه نُقل عن ابن مسعود أنه أنكر الفاتحة والمعوذتين أنها من القرآن . وبقى هذا الإنكار إلى زمن أبى بكر وعمر وعثمان .

وأما الثانى : فلما وقع من الخلاف الشديد فى (بسم الله الرحمن الرحيم) هل هى من القرآن أولا ؟ وقد أثبتها ابن مسعود فى صدر سورة براءة ، ونفاها أبى بن كعب (٢١ / ٦٤٢) وزيد بن ثابت (١١ ق . هـ — ٤٥ / ٦١١ — ٦٦٥) .

وأما ثالثا : فلما يحكى عن أبى بن كعب ، أنه أثبت فى القرآن آية القنوت ، وهى قوله : (اللهم اهدنى فيمن هديت) وقوله : (لو أن لابن آدم واديين من ذهب لابتغى لهما ثالثا) ونفى ذلك ابن مسعود وغيره .

فهذه الأمور كلها دالة على أنه غير متواتر فى تفاصيله ، وآيات التحدى من جملة التفاصيل ، فلهذا لم يُحكم بثبوتها فى المصحف . فلا يكون فيها دلالة .

ورأى العلوى أن الجواب من وجهين :

أما أولا : فلأنا نقول : القرآن بجملته وتفاصيله كلها منقول بالتواتر سواء من غير تردد فى ذلك .

والبرهان على ذلك هو أنا نعلم — بالضرورة من غير شك — أن فى هذا الزمان لو حاول أحد أن يدخل فيه حرفا ليس منه ، أو يخرج منه حرفا هو فيه ، لَوَقف على موضع الزيادة والنقصان جميعُ الصبيان ، فضلا عن أكابر العلماء وأفاضل الناس . فكيف تصح هذه الدعوى بأن تكون تفاصيله غير متواترة ؟

وأما ثانيا : فلأنا نعلم — بالضرورة — أن حال الناس — فى التشدد عن المنع من تغيير القرآن وتبديله فى عهد الصحابة — إن لم يكن أقوى من حال زماننا هذا فإنه ما كان أقل منه . فإذا لم يُؤثَر فيه خلاف وتردد فى زماننا ، فهكذا حاله من قبلُ . وهذا يبطل كلام

الملاحدة فى أنه غير متواتر التفاصيل[1] .

٣ ــ وتصور الباقلانى أن قائلا قد يقول : لعل محمدا لم يقرأ عليهم الآيات التى فيها ذكر التحدى ، وقرأ عليهم ما سوى ذلك من القرآن .

ثم أجاب : ذلك قول باطل ، يُعلم بطلانه بمثل ما يُعلم به بطلان قول من زعم أن القرآن أضعاف هذا ، يبلغ حِمْل جَمَل ، وأنه كُتم ، وسيظهره المهدى ، أو يدعى أن هذا القرآن ليس هو الذى جاء به محمد ، وإنما هو شىء وضعه عمر أو عثمان حين وُضع المصحف ، أو يدعى فيه زيادة أو نقصانا ! وقد ضمن الله حفظ كتابه أن يأتيه الباطل من بين يديه أو من خلفه ، ووعده الحق .

وحكاية قول من قال ذلك تغنى عن الرد عليه ، لأن العدد الذين أخذوا القرآن فى الأمصار والبوادى ، وفى الأسفار والحضر ، وضبطوه ، حفظا ، من بين صغير وكبير ، وعرفوه حتى صار لا يشتبه على أحد منهم حرف ، لا يجوز عليهم السهو والنسيان ، ولا التخليط فيه والكتمان . ولوزادوا أو نقصوا أو غيّروا ، لظهر .

وقد علمتَ أن شعر امرئ القيس وغيره ــ على أنه لا يجوز أن يظهر ظهور القرآن ، ولا أن يُحفظ كحفظه ، ولا أن يُضبَط كضبطه ، ولا أن تمسّ الحاجة إليه إمساسها فى القرآن ــ لو زيد فيه بيت ، أو نُقص منه بيت ، لا بل لو غُيّر فيه لفظ ، لَتبرّأ منه أصحابه ، وأنكره أربابه .

فإذا كان ذلك مما لا يمكن أن يكون فى شعر امرئ القيس ونظرائه ــ مع أن الحاجة إليه تقع لحفظ العربية ــ فكيف يجوز أو يمكن ما ذكروه فى القرآن مع شدة الحاجة إليه فى الصلاة التى هى أصل الدين ثم فى الأحكام والشرائع ، واشتمال الهمم المختلفة على ضبطه ؟

فمنهم من يضبطه لإحكام قراءته ، ومعرفة وجوهها ، وصحة أدائها .

ومنهم من يحفظه للشرائع والفقه .

ومنهم من يضبطه ليعرف تفسيره ومعانيه .

ومنهم من يقصد بحفظه الفصاحة والبلاغة .

ومن الملحدين من يُحصِّله لينظر فى عجيب شأنه .

---

(١) الطراز ٣/٣٧٢ ـ ٣ . الحمصى ١٣٠ـ ١ .

وكيف يجوز على أهل هذه الهمم المختلفة والآراء المتباينة ـــ على كثرة أعدادهم ، واختلاف بلادهم ، وتفاوت أغراضهم ـــ أن يجتمعوا على التغيير والتبديل والكتمان ؟[١].

واستدل الباقلاني على عدم كتمان شيء من القرآن باحتفاظه بالطعون التي وجهوها إليه ، مثل قولهم : ﴿ لو نشاء لقلنا مثل هذا ﴾[٢] و ﴿ إن هذا إلا اختلاق ﴾ [٣] ووصفه بالسحر ، والافتراء ، والأخذ من أساطير الأولين [٤] .

ولو جاز أن يكون بعضه مكتوما لجاز على كله ، ولو جاز أن يكون بعضه موضوعا لجاز ذلك في كله [٥] .

وأكمل عبد الجبار هذا الكلام وأوضحه وأجمله فأعلن : قد بينا ـــ من قبل ـــ صحة نقل القرآن وظهوره ، وأنه معلوم باضطرار : وفي جملته آيات التحدي ، وقد كان محمد يقرؤها عليهم ، ويقرئهم إياها ، ويؤديها إليهم ، وتتكرر على الأسماع . فكيف يصح ـــ مع ذلك ـــ إنكار تحديه وقد ظهر كظهور القرآن ؟

ومتى قال القائل : إن هذه الآيات ليست بظاهرة ، لزمه ـــ في أكثر القرآن ـــ ذلك . وفي ذلك من الجهالات ما لا خفاء به[٦] .

وأكده ابن تيمية حين قال : وهذا قد سمعه كل من سمع القرآن ، وعرفه الخاص والعام[٧] .

وعلى الرغم أن عبد الجبار بن أحمد الأسدآبادي كان يرى أن أمر التحدي أظهر وأشهر من أن يحتاج فيه إلى الإكثار ، فإنه أفاض في البرهنة على وقوعه . وعلل ذلك بأن بعض اليهود استعمل البهت في هذا الباب فأنكر التحدي [٨] .

فشارك الباقلاني في تخيل من يقول : إنما تركوا معارضته ومساواته لأنه لم يتحدهم ، لا لأنه معجز . ولو تحداهم ، وقرعهم بالعجز ، وأظهر أنه دلالة نبوته ، واشتد ـــ عند ذلك ـــ حرصهم ، لعارضوه . لكنه لما لم يفعل ذلك ، حل القرآن محل كلامه وسائر أحواله التي لم يحصل فيها ما يدعوهم إلى المشاركة والمعارضة . أو تخيل من يقول : إنما كان محمد يظهره تعريفا لشريعته لأنه يتضمنها . فمن أين تقولون إنه أظهره للذي تذكرونه من التحدي ؟ [٩] .

---

(١) إعجاز ١٨-٩. الحمصي ٧٤. وانظر المغني ١٦/٢٤٤.
(٢) سورة الأنفال ٣١ .
(٣) سورة ص ٧ .
(٤) إعجاز ١٩ – ٢٠ .
(٥) إعجاز ٢٠ .
(٦) المغني ١٦/ ٢٣٨ .
(٧) التفسير ٢/ ١٥٣ .
(٨) المغني ١٦/٢٤٣ – ٤ ، ٢٥٨ ، ٣١٦ .
(٩) المغني ١٦/٢٣٦ . وانظر العلوي ٣/٣٧٤ – ٥ .

ودفعه هذا التخيل إلى أن يقلب النظر فى قضية التحدى من جوانب عدة ، وإلى أن يرد على كل ما تصور أنه يرد على الخاطر من شكوك تبطل التحدى . كما نرى فيما يلى :

أ ـ التحدى نفسه

١ ــ يجب فى المعارف التى طريقها الإخبار : التصادق ، لأنها مما لا يمكن فيه إقامة دليل عقلى ، والمعوَّل فيها على تقرر المعرفة فى القلوب ، والتنبيه على نظائرها ، وبيان ظهور الأمر فيها . وكذا تحدى القرآن ، يُعلم بالخبر الذى بمثله يُعلَم أن محمدا أتى به .

وليس يخلو من خالف فى ذلك من : أن يكون عاقلا مخالطا للناس ، فلا بد من أن تكون معرفته بذلك كمعرفتنا . فلا فائدة فى إيراد الحجة عليه ، لأنه ــ إذا كان مع قيامها مكابرا فيه ــ فبأن يصح أن يكابر فيما نورده أولى .

أولا يكون بهذه الصفة ، فلا وجه لمكالمته ، لأنه لا فائدة فى إظهار الحجة عليه[١] .

٢ ــ إن قالوا : إنه قد أظهر أدلة على نبوته عند نفسه ، وإنما أنكرنا أن يكون تحدى بالقرآن .

قيل لهم : لا شىء مما يذكر أنه تحدى به إلا والقرآن أظهر منه . فلا يصح هذا القول[٢]

٣ ــ وإن قال إن محمدا لا يكون متحديا بمجرد تلاوة آيات التحدى لأنه ــ حينئذ ــ فى حكم الحاكى .

قيل له : لا فرق بين أن يتحدى بهذه الآيات أو بكلام يورده من تلقاء نفسه فى أنه يُظهر بذلك التحدى . ولكن وقوع المعنى بالقرآن أبين ، لأنه يدعى عجزهم قطعا من الله تعالى ، فيكون أوكد من ادعائه ذلك من قبله [٣] .

٤ ــ لو ثبت أن التحدى الواقع من محمد بالقرآن غير معلوم ، لم يخرج من أن يَصح أن يُستدل به على نبوته ، بأن يُتحدَّى به الآن ، على الوجه الذى أظهره المتكلمون . [٤]

---

(١) المغنى ١٦ / ٢٣٦ ــ ٧ .

(٢) المغنى ١٦ / ٢٤١ .

(٣) المغنى ٢٣٩/١٦ . وانظر العلوى ٣٧٥/٣ .

(٤) المغنى ١٦ / ٢٤٤ .

٥ ـ وقع التحدى فى أنه ـ ﷺ ـ كان يدّعى فى القرآن أنه من جهة الله ، وأنه خصه به ، وأنه كان ينتظر نزوله حالا بعد حال ، وكان يتلو عليهم قوله تعالى : ﴿ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا ﴾[١] وكان يتلو عليهم الآيات الدالة أنها من عنده ـ عزوجل ــ فى الأمر والنهى وغير ذلك . وهذا القدر كافٍ فى معنى التحدى. فكيف يصح أن لا يكون متحديا بذلك . ولا فرق بين أن يتحدى وبين أن يظهر من قصده ـ ﷺ ـ ادعاؤ النبوة ، وإظهار الميزة بذلك [٢] .

٦ ـ لو أن مكابرا ادعى أن محمدا لم يَدَّع النبوة أصلا ، لكان كمن قال : لم يكن محمد فى الدنيا ، ولا كان أولا بمكة ، ثم هاجر إلى المدينة . ولم يكن منه محاربةٌ فى الأيام المعروفة ، ولا اختص بمن اشتهر من أصحابه إلى غير ذلك .

فإذا لم يمكن فى هذا القائل إلا أن يُرَدّ إلى ما نعرفه بالأخبار ، ويُعدّ مكابرا ، فكذلك القول فى القرآن . لأن إيراده ذلك على الوفود الواردين ، ودلالته على أنه المختص به دون غيره ، أظهر من كثير من الأمور التى ذكرناها [٣] .

ب ـ آيات التحدى

١ ـ ثم وجه نظره إلى آيات التحدى نفسها واستعرض ما يمكن أن يوجه إليها من اعتراضات وفنّده فقال : متى قال القائل : إن هذه الآيات ليست بظاهرة ؛ لزمه ــ فى أكثر القرآن ـ ذلك . وفى ذلك من الجهالات مالا خفاء به [٤] .

٢ ـ فإن قال قائل : إن هذه الآيات نزلت متأخرة .

قيل له : إن ذلك ـ إن صح ـ لم يمنع من وقوع التحدى . وبعد ، فإن آيات التحدى نزلت بمكة ، والأمر فيها ظاهر ، فكيف يصح ما تدعيه ؟ [٥]

وفسر ذلك نعيم الحمصى بأن التحدى وقع إليهم مبكرا . [٦]

---

(١) سورة النساء ٨٢ .
(٢) المغنى ٢٣٦/١٦ ـ ٤٤ .
(٣) المغنى ١٦/ ٢٣٧ .
(٤) المغنى ٢٣٨/١٦ .
(٥) المغنى ٢٣٨/١٦ـ ٩ .
(٦) فكرة ٢٤ . وانظر فقيهى ١٨ .

جـ ــ صاحب التحدى

١ ــ لا يخلو ــ لو لم يتحدّ محمد بالقرآن ــ من أمرين :

إما أن يكون لأنه ليس بمعجز ، أو اعتقد محمد ذلك فيه . ولو كان كذلك لوجب ــ مع الدهر الطويل ، والاختلاف العظيم ، وما أورده المتكلمون عن إعجازه ــ أن يحصل فيه بعض المساءلة فى شىء من الأزمان .

وإما أن يقال : إنه لم يتحد به ــ مع علمه بأنه معجز ــ وهذا مما لا يجوز على محمد لأنه أعرف بذلك من غيره لفضل فصاحته ، ولأنه أحوج إلى التحدى به ، ودواعيه أقوى[١] .

٢ ــ ويقال لهذا السائل : هل تعلم أن محمدا ادعى النبوة طول أيامه التى كان فيها بمكة ثم بالمدينة ؟

فإن قال : لا

قيل له : فجَوِّز ــ إذن ــ أن يكون المدعى للنبوة فى تلك الأيام غيره ، بل جوز أن لم يكن فى الدنيا : أو كان بخراسان دون الحجاز . ومن بلغ هذا الحدّ خرج عن العقل [٢] .

وإن قال : لا أجيز ذلك لظهوره ووقوع المعرفة به ،

قيل له : أفيجوز أن يدعى النبوة فى الدهر الطويل ؛ ولا يدعى على نبوته دلالة ، ولا يظهر لنفسه ــ فيما يدعيه ــ اختصاصا ومزية ؟

فإن أجاز ذلك . عاد إلى مثل ما قدمناه من التجاهل والمكابرة . ولزمه أن يصفه ــ ﷺ ــ وكل من كان فى زمانه بالجنون والخروج من طريق العقل ، لأن من أجاز أن يبقى محمد المدة الطويلة ، يدعى النبوة ، ويُلزم غيره الانقياد له ... فلا هو يظهر لنفسه دلالة ، ولا القوم يطالبونه بذلك ، فقد وصفهم بنهاية الجهل والجنون . وحال القوم ــ عند المكذب والمصدق ــ بخلاف ذلك . فلا بد من أن يعترف بأن محمدا كان ــ مع ادعائه النبوة ــ يظهر ما يدعيه دلالة ، ويطالب القوم بذلك . وإذا وجب الاعتراف بذلك، فلا شىء أظهر فيما ادعاه من القرآن ، فكيف يصح أن ينكر تحديه به ، وجعله ذلك دلالة على نبوته ؟ [٣]

---

(١) المغنى ١٦/ ٢٤٤ ــ ٥ .

(٢) المغنى ١٦/٢٣٧ .

(٣) المغنى ١٦/٢٣٨ .

و لم يكتف عبد الجبار بهذا العرض لهذه الفكرة ، بـل كررهـا فـى معـارض شـتى مـن القول ، تتفق فى اللُّب ، وتختلف فى التفريعات[١] .

٣ ــ ويقال له : كيف يجوز أن لا يقتصـر مسيلمة الكـذاب علـى الدعـوى ، ويـورد شبهة صوَّرها بصورة الدلالـة . ويكـون ذلـك معروفـا ؛ ولا تقـع المعرفـة بتحـدى محمـد بالقرآن وغيره من معجزاته ؟ [٢]

د ــ المتحدون

١ ــ ثم نقل نظره من صاحب الدعوة إلى المدعوين ، فقـال : لا يجـوز أن يسـكتوا ــ وقد دعاهم إلى الدخول فى طاعته والتزام شريعته ــ أن يسكتوا عن مطالبته بمـا يتمـيز بـه منهم .

ومتى لم يُظهر ذلك لهم ، ألزموه وأظهروا من حاله ما تدعو النفوس إلى مثله .

إذن لابد من أن نقول : لولا ما أظهره من دلالة أو شبهة ادعاها عَلَما له ، لكثَّروا مـن القول وأظهروا التشنيع . ولا يجوز فـى ذوى العقـول خـلاف ذلـك . لأن ذلـك يتضمـن قلب العادات . ويجب أن يعلموا ــ بكف القوم عن هذه المطالبة ــ أن محمدا كـان يدعـى كون القرآن دلالة ، ويتحدى به [٣]

٢ ــ ثم يقال له : كيف يجوز أن تبلغ بهم قوة الدواعى إلى إبطال أمره وتوهين حاله ، مبلغا يحملهم على بذل المهج والأموال ، ومفارقة الأوطان والعشـيرة ، إلى غـير ذلـك ممـا تحملوه ؛ وكان يمكنهم ــ بدلا من ذلك ــ إفساد حاله بـأن يقولـوا : إنـك مقتصـر علـى الدعوى ، التى تمكن مساواتك فيها ، ولا تظهر مزيتـك علينـا ، وفضلـك فيهـا . فلمـاذا تلزمنا الانقياد لك ، دون أن نلزمك الانقياد لنا ؟

ومعلوم أنهم لو واقفوه هذه المواقفة ، لكان ذلك أظهر فـى إبطـال أمـره مـن كـل مـا يؤمَّل . فكيف جاز عدولهم عن ذلـك ، وكيـف يجـوز أن تدعوهـم الدواعـى إلى تكلـف المشاقّ فقط ؟[٤] .

٣ ــ ثم استدل على وقوع التحدى بالظروف التى أحـاطت بـالدعوة الإسـلامية ومـا أبداه خصومها من مقاومة ، فقال : صـح عـن طبقـة فـى زمانـه أنهـم تكلمـوا فـى بـاب

---

(١) المغنى ٢٤٠/١٦ ، ٢٤٢ ــ ٣ .
(٢) المغنى ١٦ / ٢٤٣ .
(٣) المغنى ٢٤٠/١٦ ــ ١ . وانظر فصل المتحدين .
(٤) المغنى ٢٤١/١٦ .

القرآن، حتى قال الوليد بن المغيرة : قد سمعت شعر الشعراء ، وخطب الخطباء ، وليس هو منها فى شىء . ثم قال : إن هو إلا سحر يؤثر . وقال أمية بن خلف بعدما ضاق ذَرْعه : لو شئنا لأتينا بمثله ، ظنا منه بأن محمدا تحداهم به من جهة مافيه من أساطير الأولين . إلى غير ذلك مما روى عنهم .

وهذا يدل على أنهم كانوا يعلمون عظَم حال القرآن ، كما يعلمون تحدى محمد به وادعاءه دلالة على نبوته . والأمر فى ذلك أظهر وأشهر من أن يُحتاج فيه إلى الإكثار(١).

وكانت الكلمة التى ختم بها هذا النقاش هى :

كل الذى ذكرناه يبين أن الأحوال الظاهرة ، التى لا شبهة فيها ، تقضى أنه — ﷺ — قد تحدى بالقرآن . فلو لم يثبت العلم الضرورى بالنقل لوجب إثباته بهذه الوجوه ، التى هى — فى القوة — بمنزلة النقل . فكيف وقد بينا : أن العلم بتحديه بالقرآن ، وجعله إياه دلالة على نبوته أظهر من أن يمكن أن يجحد ؛ وأن من جحده فهو بمنزلة من جحد نفس القرآن ، وإتيانه - ﷺ - به ، وادعاءه النبوة إلى غير ذلك من الأمور الظاهرة(٢) .

٣ — صفة التحدى

ووصف الطوسى آية التحدى فى سورة هود مرتين ، قال فى أولاهما هذه الآية صريحة بالتحدى(٣) ، وقال فى الثانية : غاية ما يمكن من التحدى والمحاجّة (٤) .

أما آية سورة البقرة فتدل عنده على تحدى الواثق ، لأنه لا يجوز لعاقل أن يقدم على جماعة من العقلاء يريد تهجينهم ، فيقول : أنتم لا تفعلون ، إلا وهو واثق بذلك ، ويعلم أن ذلك متعذر عليهم (٥) .

---

(١) المغنى ٢٤٣/١٦ . (٢) المغنى ٢٤٥/١٦ .

(٣) التبيان ٤٥٦/٥ . وانظر الطبرسى ١٤٧/١٢ .

(٤) التبيان ٤٥٧/٥. وانظر الطبرسى ١٤٧/١ .

(٥) التبيان ١٠٦/١ . وانظر الرازى ٢٠/٢ . ابن تيمية ١٤١/٢ — ٢ / ١٥٧ — ٠٨ ابن كثير ٦٠/١. والبداية ٦٥/٦ . عبده ١٣٧ — ٨ . رضا ١٦٢/١ ، ٣٠٣/١١ . الرافعى ١٧٣ . الزرقانى ٦٧/١، ٢٦٨/٢ . الحمصى ١٠٣ — ٤ ، ١٧٣ ، ٣١٩ . الخطيب ١٠/٢ . طبارة ٢٧ . اللآلئ ٢٤٤. الصباغ ٥٦ . أبو سليمان ١٠٤ . الرومى ٩٤ . أبو الخشب ١١٠ .

وقال الرازى . إنه عليه السلام — وإن كان متهما عندهم فيما يتصل بالنبوة — فقد كان معلوم الحال فى وفور العقل والفضل والمعرفة بالعواقب . فلو تطرقت التهمة إلى ما ادعاه من النبوة ، لما استجاز أن يتحداهم ، ويبلغ فى التحدى إلى نهايته : بل يكون وجلا خائفا مما يتوقعه من فضيحة يعود وبالها على جميع أموره .. فلولا معرفته — بالاضطرار من حالهم — أنهم عاجزون عن المعارضة لما جوّز من نفسه أن يحملهم على المعارضة بأبلغ الطرق[1] .

ولو لم يكن قاطعا بصحة نبوته ، لما قطع فى الخبر بأنهم لا يأتون بمثله . لأنه — إذا لم يكن قاطعا بصحة نبوته — كان يجوّز خلافه . وتقدير وقوع خلافه يظهر كذبه ، فالمبطل المزور البتة لا يقطع فى الكلام ولا يجزم به . فلما جزم دل على أنه كان قاطعا فى أمره[2].

ويبدو أن نعيما الحمصى أحس فى كلام الرازى شيئا من الغموض والتكرار ، فعلق عليه قائلا : أرى - هنا - أن الأجدر بصياغة المعنى الذى يريده الرازى أن تكون : إن شدة التحدى فى قوله ﴿ ولن تفعلوا ﴾ دليل على صدق النبى ، وعلى أن القرآن من عند الله الذى يعلم بعجز الناس عن معارضة القرآن ، لأنه كتبه فى لوح قدره ، ولأن القرآن كلامه ، فبديهى أن يعجز الناس عن الإتيان بمثله [3] .

واتفق معهم ابن تيمية الذى قال : هذا لا يقدم عليه من يطلب من الناس أن يصدقوه إلا وهو واثق بأن الأمر كذلك ، إذ لو كان عنده شك فى ذلك ، لجاز أن يظهر كذبه فى هذا الخبر ، فيفسد عليه قصده . وهذا لا يقدم عليه عاقل ، مع اتفاق الأمم — المؤمن بمحمد والكافر به — على كمال عقله ومعرفته وخبرته ، إذ ساس العالم سياسة لم يسسهم أحد بمثلها . ثم جعله هذا فى القرآن المتلو المحفوظ إلى يوم القيامة ، الذى يقرأ به فى الصلوات ، وسمعه العام والخاص ، والولى والعدو ، دليل على كمال ثقته بصدق هذا الخبر . وإلا لو كان شاكا فى ذلك ، لخاف أن يظهر كذبه عند خلق كثير ، بل عند أكثر من تبعه ومن عاداه . وهذا لا يفعله من يقصد أن يصدقه الناس . ولا يقول مثل هذا ويظهره هذا الإظهار ، ويشيعه هذه الإشاعة ، وقصد أن يخلده هذا التخليد إلا وهو جازم — عند نفسه — بصدقه . ولا يتصور أن بشرا يجزم بهذا الخبر إلا أن يعلم أن هذا مما يعجز

---

(١) مفاتيح ٢/١٢٠ . وانظر أبو سليمان ١٠٤ . عبده ١٣٧ — ٨ .

(٢) مفاتيح ٢/١٢٠ . الحمصى ١٠٣ — ٤ . (٣) فكرة ١٠٤ .

عنه الخلق ، إذ علم العالم بعجز جميع الإنس والجن إلى يوم القيامة ، هو من أعظم دلائل كونه معجزا ، وكونه آية على نبوته[١] .

ــ ووصف عياض بن موسى اليحصبى القرآن بأنه كان صارخا بهم فى كل حين ، ومقرعا لهم بضعة وعشرين عاما . على رؤوس الملأ أجمعين [٢] .

ووصف الطبرسى آية سورة يونس بأنها غاية فى التحدى والتعجيز [٣] ، والعلوى الآيات التى ذكر فيها التحدى بأنها واردة على جهة الإطلاق ، ليس فيها تحد بجهة دون جهة [٤] ، وابن كثير بالتحدى العام للعرب كلهم[٥] .

ووصف محمد عبد العظيم الزرقانى التحدى بالظاهر[٦] ، وسيد قطب بالعجيب [٧] والحجة التى لا سبيل إلى المماحكة فيها [٨] ، وبأنه قد ثبت العجز عنه ، وما يزال ثابتا ، ولن يزال[٩] . وذكر محمد عبد الله دراز أن القرآن تحداهم وكرر عليهم ذلك التحدى فى صور شتى [١٠] ، ومحمد حنيف فقيهى بالصارخ ؛ [١١] ، ومحمد صادق عرجون بالواضح [١٢] . ومحمد سعيد البوطى أنه أفرغ هذا التحدى فى قوالب مختلفة من اللفظ والأسلوب وأنهضهم إلى ذلك بالتقريع والتحميس ومختلف أشكال التحدى [١٣] .

ووصف تحدى سورة الإسراء بأنه من أقوى آيات التحدى العام بجملة القرآن وأصرحها فى الإعجاز[١٤] ، وتحدى سورتى البقرة ويونس بأنه أقوى ما جاء فى التحدى . وأصرح ما ورد فى آيات الإعجاز ، لما فيهما من القطع بعجز المتحدين مع التقريع والتهديد بالوعيد المرعب البالغ حدا لا يبقى معه شىء من ساكن العداوة إلا تحرك [١٥] .

وأعلن موسى شاهين لاشين : اليقين الذى لا يقبل الجدل أن النبى ــ ﷺ ــ تحداهم بالقرآن ، واليقين الذى لا يقبل الجدل أن هذا التحدى بلغ أقصاه بسورة البقرة ؛ [١٦]

---

(١) التفسير ٢/١٤١ - ٢ . وانظر ٢/١٥٧ - ٨ . (٢) الشفا ١/٥٠٤ .
(٣) مجمع ١١/١١٠ . (٤) الطراز ٣/٤٠٥ــ ٦ . وانظر عرجون ١٣٨ .
(٥) التفسير ١/٦٠ . الحمصى ١٤٩ . وانظر عرجون ١٣٨ . عائشة ٥٩ . الحمصى ١٧٤ .
(٦) مناهل ١/٦٧ . الصابونى ٩٥ . (٧) فى ظلال ٤٨ . الحمصى ٣٤٩ .
(٨) فى ظلال ٤٨ . (٩) فى ظلال ١٧٨٥ .
(١٠) النبأ ٨٤ . وانظر إعجاز الخطيب ١ / ٢٣١ .
(١١) نظرية ١٩ . (١٢) القرآن ١٤١ .
(١٣) من روائع ١٥٣ . وانظر الصابونى ٩١ . الشاعر ١٠٦ .
(١٤) القرآن ١٤٢ . (١٥) القرآن ١٤٥ ــ ٦ .
(١٦) اللآلئ ٢٤٤ .

ومحمد على الصابونى : طلب محمد منهم معارضة القرآن بعبارات قوية ، ولهجات واخزة ، تستفز العزيمة ، وتدفع إلى المباراة[١] . ووصفه بالتحدى السافر [٢] .

ووصفته د . عائشة عبد الرحمن بالتحدى الجهير [٣] ، وعمر الملا حويش بكثرة الآيات والصراحة [٤] . ووافقه محمد الصباغ فى الوصف بالكثرة [٥] .

وذهب أحمد خلف الله إلى أن آيات التحدى استقصت جميع صوره التى يزول معها كل عذر فى عدم الاستجابة له [٦] ، ووصف أحمد عبد الحميد الشاعر التحدى بالصارم[٧] ، وإبراهيم على أبو الخشب بالتحدى الصحيح [٨] ؛ ود. فهد الرومى بأن محمدا كرره حتى يسمع من لم يسمع [٩] .

---

(١) التبيان ٩٠ .
(٢) التبيان ٩٣ .
(٣) الإعجاز ٥٨ .
(٤) تطور ٩١ ، ٢٠٩ .
(٥) لمحات ٥٥ .
(٦) القرآن ١٣٦ .
(٧) القرآن ١١١ . ولعله : الصارخ .
(٨) القرآن ١١١ .
(٩) خصائص ٩٣ .

تعقيـــب

يتبين لنا من هذا الاستعراض أن الجاحظ هو الذى استهل الجدال فى قضيـة التحـدى ، وأنه قدم ـ من أجل إثبات حدوثه ـ عددا من الأدلة المتنوعـة امتـازت بأنهـا دارت علـى الألسنة ـ بعده ـ نصا واستلهاما .

ويتبين أن عبد الجبار بن أحمد الأسدآبادى هو الذى اضطلع بالقسط الأعظم من إثبات وقوع التحدى ، وأنه فطن إلى أن هذه المسألة ذات جهات متعددة ، يمكن أن توجه التهم منها . ففندها جميعها ، وأتى بأدلة متنوعة ، منها ما يعتمد على النظر العقلـى، ومنهـا مـا يعتمد على الاستنباط من القرآن ، ومنها ما يعتمد على النص القرآنى .

وعلى الرغم من ذلك ، لم أجد من اعتمد على أقواله ، غير العلوى قديما ، ود. عائشة عبد الرحمن حديثا . إذا استثنينا من أتى بهـا للتـاريخ لهـا . وأعتقـد أن السـبب فـى ذلـك اعتماده على الحوار العقلى . وما يشوب عبارته من بعض غموض ، إضافة إلى اعتزاليته .

وشارك الباقلانى ـ الأشعرى المذهب ـ الرجلين المعتزليين فى الدفاع . ولكن براهينـه تقوم على النهج النقلى . وتفيد من تواتر القرآن المعترف به من جمهرة علمـاء المسـلمين . وقد لقيت أقوالـه شـيئا مـن الـرواج ، غـير أنـه رواج لا يرتفـع إلى مستوى رواج أقـوال الجاحظ .

والظاهرة الجلية ـ عند الكتاب المحدثين ـ أنهم عدلوا عن الجدال فى التحدى إلى نعتـه بصفات توحى بوجوده ، وتجليه أمام الأنظار ، ومعرفة الجميع به .

(٢) إثبات صحة التحدى

التناسب بين التحدى القرآنى ومن تحداهم

كان الجاحظ أول من فطن ــ من مصادرى ــ إلى أن من أحكم الحكمة إرسال كل نبى بما يُفحم أعجب الأمور عند قومه ، ويُبطل أقوى الأشياء فى ظنهم[١] .

واستشهد على ذلك بما قال فيه : لما كان أعجب الأمور عند قوم فرعون السحر ، و لم يكن أصحابه ــ قط ــ فى زمان أشد استحكاما فيه منهم فى زمانه ، بعث الله موسى على إبطاله وتوهينه ، ونقض أصله ، لردع الأغبياء من القوم ، ولمن نشأ على ذلك من السفلة والطغام . لأنه لو كان أتاهم بكل شىء ، و لم يأتهم بمعارضة السحر حتى يفصل بين الحجة والحيلة ، لكانت نفوسهم إلى ذلك متطلعة ، ولاعتلّ به أصحاب الأشغاب ، ولشغلوا به بال الضعيف . ولكن الله أراد حسم الداء ، وأن لا يجد المبطلون متعلّقا ، ولا إلى اختداع الضعفاء سبيلا . مع ما أعطى الله موسى من سائر البرهانات ، وضروب العلامات .

وكذلك زمن عيسى : كان الأغلب على أهله ، وعلى خاصة علمائه : الطب ، وكانت عوامُّهم تعظم ــ على ذلك ــ خواصَّهم . فأرسله الله بإحياء الموتى ، إذ كانت غايتهم علاج المرضى . وأبرأ لهم الأكْمه [الذى يولد أعمى] ، إذ كانت غايتهم علاج الرَّمِد [الذى أصاب المرض عينيه] . مع ما أعطاه الله من سائر العلامات ، وضروب الآيات . لأن الخاصة إذا بخعت [خضعت] بالطاعة ، وقهرتها الحجة ، كان أنجع للعامة، وأجدر أن يبقى فى أنفسهم بقية .

---

(١) رسائله . ٣ / ٢٧٨ ــ ٨٠ . إعجاز الخطيب ١ /١٣٧ ــ ٨ . عبد الفتاح لاشين ٤٣٣ . نيازى ١٢٥ ــ ٦ . وانظر الطبرى ١ / ٣٧٣ . الباقلانى ٣٠٣ ــ عبد الجبار ١٦ / ٢٠٥ ، ٢٤٦ ــ ٧. الماوردى ٥٧ . الجرجانى ٤٧٥ . الكرمانى ٦ . ابن عطية ١ /٦٢ ، ٩/ ١٩١ . القرطبى ١/٧٧ ــ ٨. الإيجى ٣٥٤ . ابن كثير ١/٤٤٨ . الزركشى ٢/٩٨ . رشيد رضا ١/١٨٢ . الزرقانى ١/٦٧ ــ ٨. صقر ٥ ، ٨٨ ــ ٩ . الحمصى ١٣ . فقيهى ١٥ ــ ٦ القطان ٢٦٤ . إعجاز الخطيب ١/ ٧٢ ــ ٤ . طبارة ٢٨ ــ ٩ . الصابونى ٨٦ ــ حويش ٢٠٥ ــ ٧ . عبد الفتاح لاشين ٤٣٢ . شحاتة ١٣١. أبو حمدة ١٨ . قمحاوى : شبهات ٢٨ ، والإيجاز ٢/١٦٧ . طلبة ٢/١٦٧ . فودة ٢٢٤ ــ ٥ . الذهبى ٢٠ ــ ١ . نيازى ١٢٥ .

وكذلك دهر محمد : كان أغلب الأمور عليهم ، وأحسنها عندهم ، وأجلّها في صدورهم : حسن البيان ونَظْم ضروب الكلام ، مع علمهم له ، وانفرادهم به .. فبعثه الله فتحداهم بما كانوا لا يشكّون أنهم يقدرون على أكثر منه . فلم يزل يقرعهم بعجزهم ، حتى تبين ذلك لضعفائهم وعوامهم كما تبين لأقويائهم وخواصهم . وكان ذلك من أعجب ما آتاه الله نبيا . مع سائر ما جاء به من الآيات ومن ضروب البرهانات[1] .

وذهب الباقلاني إلى أن القرآن حير العرب فيه ، إذ كان من جنس القول الذى زعموا أنهم أدركوا فيه النهاية ، وبلغوا فيه الغاية . فعرفوا عجزهم ، كما عرف قوم عيسى نقصانهم فيما قدروا من بلوغ أقصى الممكن في العلاج ، والوصول إلى أعلى مراتب الطب . فجاءهم بما بهرهم ، من إحياء الموتى ، وإبراء الأكمه والأبرص ؛ وكما أتى موسى بالعصا التي تلقّفت ما دقّقوا فيه من سحرهم ، وأتت على ما أجمعوا عليه من أمرهم ؛ وكما سخّر لسليمان الريح والطير والجن ، حين كانوا يولعون من فائق الصنعة وبدائع اللطف[2] .

وذكر عبد الجبار أن الله رتب المعجزات . فجعل المعجز الذى أظهره على موسى مما الأغلب وضوحه لأهل زمانه ، وانكشافه لهم . فقد كانوا يتعاطون السحر . فلما ورد عليهم ما ورد من انقلاب العصا حية ، آمنوا لظهور الأمر . وكان اعترافهم وإيمانهم مقوّيا لدواعي غيرهم إلى البصيرة وشدة التأمل ، لأن من حق التابع أن يكون مقتديا بالمتبوع تقليدا ، أو سالكا سبيله بالتأمل . وكذلك فعل — تعالى — فيما أظهره على عيسى ، مما بهر عقول الأطباء في زمنه ؛ وفيما خص به آدم من تعريف الأسماء إلى غير ذلك .

ووجه الحكمة — في ذلك — ظاهر ، لأنه لو أظهر على كل أحد منهم في زمانه ما يخرج عن طريقة القوم ، لكثرت الشُّبَه ، وقل التصديق . وإذا ظهر ما لا يخرج عن طريقهم ، قويت البصائر ، وانكشف وجه التعذر . فيكثر التصديق ، وتقلّ الشبه .

وعلى هذا الوجه أجرى — تعالى — عادة الرسول ، في أن خصه بالقرآن ، الذى هو مُشاكل لصناعتهم وطريقتهم ، غير خارج عن الأمر الذى يشتد به اهتمامهم ، ويقوى له

---

(١) رسائله ٣ / ٢٧٨ — ٨٠ . إعجاز الخطيب ١ /١٣٧ — ٨ . عبد الفتاح لاشين ٤٣٢ — ٣ . نيازى ١٢٥ — ٦ . انظر عبد الجبار ١٦/٢٠٥ . الماوردى ٥٧ . الجرجاني ٤٧٥ . صقر ٥ . طبارة أبو حمدة ١٨ . طلبة ٨٦ . فودة ٢٢٤ — ٥ .

(٢) إعجاز ٣٠٣ .

افتخارهم ، وتظهر فضائلهم ومحاسنهم ، لكى تقل الشبه للعارف المقدّم ، فيعرف اضطرار المباينة ؛ والأتباع فيعرفون — بعجز الرؤساء منهم ، مع الدواعى — مثل ما يعرفه ذوو البصيرة منهم[١] .

وعبر الماوردى عن ذلك بقوله : معجز كل رسول موافق للأغلب من أحوال عصره ، والشائع المنتشر فى ناس دهره ، لأن موسى حين بُعث فى عصر السحرة خُصّ من فلق البحر يبسا ، وقلب العصا حية ، ما بهر كل ساحر ، وأذل كل كافر .

وبعث عيسى فى عصر الطب ، فخُص من إبراء الزَّمْنى وإحياء الموتى ، بما أدهش كل طبيب ، وأذهل كل لبيب .

ولما بعث محمد فى عصر الفصاحة والبلاغة ، خص بالقرآن — فى إيجازه وإعجازه — بما عجز عنه الفصحاء ، وأذعن له البلغاء ، وتبلد فيه الشعراء ، ليكون العجز عنه أقهر والتقصير فيه أظهر .

فصارت معجزاتهم — وإن اختلفت — متشاكلة المعانى ، متفقة العلل[٢] .

وأعلن ابن عطية : إنما جعل الله معجزات الأنبياء بالوجه الشهير أبرع ما يكون فى زمن النبى الذى أراد إظهاره . فكان السحر فى مدة موسى قد انتهى إلى غايته .

ولذلك قامت الحجة على العالم بالعرب ، إذ كانوا أرباب الفصاحة ، ومَظِنة المعارضة كما قامت الحجة — فى معجزة عيسى — بالأطباء ، وفى معجزة موسى بالسحرة[٣] .

وغير مجدٍ أن أتتبع أقوال الكتاب بعد القرن الخامس ، لأنها لا تخرج عما سلف إلا فى التعبير[٤] . ويمكن القول — دون أدنى خطأ — إن جميع من تعرضوا لهذه الفكرة من القدماء والمحدثين لم يضيفوا شيئا إلى ما قاله الجاحظ .

* * *

أما الفكرة الثانية فتقول بوجود علاقة بين المعجزات وتطور العقل البشرى ، بحيث تكون كل معجزة مناسبة للدور الحضارى للبشر فى عصرها .

ويمكن أن نجد إشارة موجزة إلى هذه الفكرة فى قول سيد قطب : العقيدة فى الله واحدة ، والدعوة إلى الخير واحدة . ولكن صورة هذا الخير فيها تفضيل ، والتشريع الذى يحققه فيه تفصيل ، يناسب نمو البشرية وقتها ، وتطورات البشرية بعدها ، بعد أن بلغت

---

(١) المغنى ١٦/٢٠٥ . حويش ٢٠٦ — ٧ . (٢) أعلام ٥٧ .
(٣) المحرر ١/٦٢ ، ٩/ ١٩١ . الزركشى ٢/٩٧. انظر القرطبى ١/٧٧ — ٨ .
(٤) انظر ابن كثير ١/٤٤٧ — ٨ . الزرقانى ١/٦٧ — ٩ . الحمصى ١٣. الصاوى الجوينى ١٩٦ .

سن الرشد فخوطبت بالقرآن خطاب الراشدين ، و لم تخاطب بالخوارق المادية التى لا سبيل فيها للعقل والتفكر(١) .

ونجد الفكرة صريحة فى قول مناع القطان : كان العقل البشرى فى أطوار نموه الأولى لا يرى شيئا يأخذ بلبه أقوى من المعجزات الكونية الحسية حيث لا يرقى عقله إلى السمو فى المعرفة والتفكير . فناسب هذا أن يبعث كل رسول إلى قومه خاصة ، وأن تكون معجزته فيما نبغ فيه قومه ، خارقة لما ألفوه ليحقق بعجزهم عنها إيمانهم بأنها من قوى السماء .

فلما اكتمل العقل البشرى أذن الله بفجر الرسالة المحمدية الخالدة إلى الناس كافة . وكانت معجزتها معجزة العقل البشرى فى أرقى تطورات نضجه ونموه — فحيث كان تأييد الله لرسله السابقين بآيات كونية تبهر الأبصار ، ولا سبيل للعقل فى معارضتها ، كمعجزة اليد والعصا لموسى ، وإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله لعيسى ، كانت معجزة محمد — فى عصر مشرف على العلم — معجزة عقلية ، تحاجّ العقل البشرى وتتحداه إلى الأبد(٢) .

ونجدها فى قول عبد الكريم الخطيب : اختلاف المعجزات فى أجيال الناس مما اقتضته دواعى الحكمة التى جاءت المعجزات من أجلها . ذلك أن الناس يختلفون باختلاف أزمنتهم وأمكنتهم . وإذ كانت غاية المعجزة أن يرى الناس فيها صدق الرسول ، وقيام الدليل على صحة دعواه ، فكان لابد أن تكون هذه المعجزة جارية مع تفكير من تلقاهم وتتحداهم ، آخذة بعقولهم وقلوبهم ، فيما يدور فى هذه العقول . وما يختلج فى تلك القلوب . وبهذا تستولى المعجزة على كيان الناس ، وتخرس ألسنتهم(٣) .

وفى قوله : كان من تدبير الحكيم العليم وتقديره أن تقع معجزات الرسل موقعها المناسب لها ، كى تُطلع الثمر المرجو منها . فيصيب الناس من ذلك الثمر على قدر ما فى نفوسهم من استعداد للالتقاء بهذا الخير ، والإفادة منه (٤) .

وصريحا فى قوله بعد أن ذكر معجزات نوح وهود وصالح : إننا نرى فى وجه تلك

---

(١) طبارة ٢٨ — ٩ . أبو زهرة ١١ . الصابونى ٨٦ . حويش ٢٠٥ — ٦ . كفافى ١٣٧ — ٨ . شحاتة ١٣١ . قمحاوى : شبهات ٢٨ . طلبة ٨٦ . السلامى ٥٤ . أبو فرحة ٨١ ، ١٠٧ . فودة ٢٢٤ — ٥ . الذهبى ٢٠ . الرومى ٩١ — ٢ ، ٩٦ .

(٢) فى ظلال ١٧٨٥ .

(٣) مباحث ٢٦٤ . انظر الإيجاز لقمحاوى ٢/ ١٦٧ — ٨ .

(٤) إعجاز ١/٧٣ .

المعجزات السماوية أثر الزمن فى سير الحيـاة الإنسـانية ، وفـى تقـدم خطـا الإنسـان نحـو النضج العقلى وبلوغ الرشد .

فكلما تقدم الزمن بالإنسان زادت معارفه ، وارتقت مفاهيمه . ومن معجزات الرسـل نرى الشواهد التى تشهد للعقل الإنسانى ، وللمنزلة التى بلغهـا مـن الإدراك والفهـم فـى سيره مع الزمن ، وتقدمه إلى الأمام خطوة خطوة ...

وتمضى الأيام والسنون ، ويجىء إبراهيم وقد قطعت الإنسانية مرحلة طويلة نحو النضج والرشد . فلا يكون إبراهيم هو الـذى يـأتى بـالمعجزة متحديـا ، وإنمـا يصنـع قومـه مـادة المعجزة بأيديهم . فيوقدون نارا ويؤججونها ، ثم يلقون إبراهيم فيها . وهنا تخرج المعجزة من هذه النار التى أوقدوها بأنفسهم ...

ثم تجىء دعوة موسى وعيسى وقد أشرفت الإنسانية علـى دور المراهقـة والتمييز مـن حياتها . فتجىء المعجزات من قبل النبى متحديه قاهرة ، تطلـع علـى النـاس مـرة ومـرة ، ليشهدها أكبر عدد منهم ، وليكون فيها عـبرة وذكـرى لمـن يتذكـر ويعـى ، فيؤمـن بهـا كثير، ويجحد بها كثير ...

وها أنت ذا ترى الزمن يخطو حثيثا إلى تلك المعجزة التى تخلد على الحياة ، وتصحـب الوجود الإنسانى كله على امتداد الزمن ، إذ لم يعد — بعد ذلك — إلا المعجزة التى تعيـش فى أجيال الناس ، بعد أن ظهرت المعجزات التى تعيش جيلا من أجيالهم .

وهكذا يقضى المنطق الذى رأينـا فيـه سـير الحيـاة والمعجـزات ، وقـد كـان : فكـانت المعجزة الخالدة ، معجزة نبى الإسلام[1] .

وتابعه محمد الصادق عرجون فقال : إذا أنزل الله المعجزات جاءت على مقتضى سـنة الله فى الرسالات إلى الأمم . فكل آية تـنزل علـى حسـب اسـتعداد الأمـة المرسـل إليهـا وحالها . وقد كانت الأمم السابقة تحمل عقولا ماديـة لا تؤمـن إلا بخرق قوانـين المـادة . فجاءت معجزات رسلها مناسبة لحالها واستعدادها .

أما محمد النبى الأمى خاتم الأنبياء ، فحسبه أن الله أنزل عليـه كتابـا هاديـا ، هـو آيـة نبوته ومعجزة رسالته ، لأن الله بعثه وقد بلغ العقل الإنسانى رشده ، وتحـرر مـن أغـلال التقليد وأسر الغرائز المادية ، وأتيح له الانطلاق فى آفاق الكون : يفكر ويستنبط ، ويعلـم ويستخرج ويستكشف [2] .

---

(١) إعجاز ٢/ ١٦٦ — ٢٠ .

(٢) القرآن ١٣٧ ، ١٤١ .

واختصر د . محمد عبد السلام كفافى وعبد الله الشريف فقالا : يمثل الإسلام آخر الرسالات السماوية ، وقد جاء زمانها حينما كانت البشرية قد بلغت شأوا بعيدا من النضج ، فى عصر تاريخى متأخر نسبيا ، فلم يعد من المقنع القيام بالمعجزات الشبيهة بالسحر . وإنما أصبح الوقت وقت الإقناع بالمنطق والحجة والدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة[١] .

وعاد محمد محمود الصواف إلى شىء من البسط فقال : كانت هذه الآيات والمعجزات حسية يوم أن كان العقل الإنسانى فى طوره البدائى ، ولم يبلغ فيه — بعد — سن الرشد ، ويوم أن كانت هذه العجائب تبلغ من نفسية الشعوب مبلغا لا تملك معه إلا الإذعان والتسليم بما ترى وتسمع مما يجىء به الرسل .

فلما بدأ النوع الإنسانى يتطور بعقله وفكره وتصوراته ، وبدأت الحياة العقلية تأخذ طريقها إلى الظهور والنماء ، لم تَعُدْ تلك الظواهر والعجائب والخوارق كافية على صدق الرسول ، وتدعيم دعوته ، وتسليم الناس له بيسر وبساطة . ولم يعد من السهل على العقل أن يذعن لمجرد شىء رآه خارجا عن عرف الحياة . لقد أصبح هذا العقل النيِّر الجديد يريد شيئا جديدا باهرا لا تخالطه الشكوك ، واليقين الذى يبدد ظلمات الشبهات . وما كان الله العظيم ليميز النوع الإنسانى — فى طفولته الأولى — بما يحفظ به حياته الدينية ، ثم يتركه بعد أن أخذ سبيله إلى النظر العقلى والاستقلال الفكرى ، دون أن يقيم من الحجج والأدلة والبراهين ما يتناسب والارتقاء الذى انتهى إليه . لذا كانت رحمته العظمى للبشرية جمعاء أن بعث فيهم رسولا منهم كافة للناس بشيرا ونذيرا . وأيده بالمعجزة الكبرى والمنة العظمى ، ألا وهى القرآن ، المعجزة العلمية ، والحجة العقلية ، والبرهان الساطع ، والنور اللامع ، الذى أعجز الفصحاء والبلغاء وأهل الفكر والعلم والذكاء والفطنة ، فى لفظه ومعناه[٢] .

وأختم بما قال د . عبد الله شحاتة : أيد الله رسله السابقين بمعجزات مادية ظاهرة ، تناسب البشرية فى أطوارها الأولى . جعل الله النار بردا وسلاما على إبراهيم ..[٢] .

---

(١) دراسات ١٣٨ . (٢) القرآن ١٥ — ٧ . (٢) علوم ١٣٠ .

تعقيب

يحتوى هذا الفصل على فكرتين :

مناسبة المعجزة لما برع فيه القوم المرسلة إليهم .

ومناسبة المعجزة للمرحلة الفكرية التى وصل إليها هؤلاء القوم .

أما الفكرة الأولى فقديمة ذكرها الجاحظ ، وأما الفكرة الثانية فحديثة ، ويمكن أن نعزوها إلى سيد قطب .

وتتفق الفكرتان فى أن القول الأول بهما هيمن على كل من تعرضوا لها بعده و لم يستطع أن ينميه ، فجاءت الأقوال مكررة لا تخرج من عبارة القائل الأول . قد أستثنى من ذلك البسط الذى لقيته الفكرة الثانية ، ولكنه بسط يمكن لملمته إلى الفكرة الأساسية .

زمان التحدى ومدته

تعرض الجاحظ لمدة التحدى مرتين . فجعلها فى « صحيح النبوة » نَيِّفا وعشرين سنة[1] . وحددها فى « الإتقان » بثلاث وعشرين سنة [2] .

وانفرد الخطابى بجعلها عشرين سنة [3] .

وأبهمها الباقلانى فجعلها سنين كثيرة [4] . وكرر الإشارة إليها . فقال مرة : تحداهم إليه حتى طال التحدى [5] ، وقال مرة : لم يفعلوا شيئا من ذلك مع طول المدة [6] . وقال ثالثة : التحدى إليه المدة الطويلة [7] ، أو سنين طويلة [8] .

وغَيّر التعبير فجعله مرة : وقوع الفسحة [9] ، وثانية تطاول زمان الفسحة [10] ، وثالثة فسح لهم فى الوقت [11] .

وغَيّر تغييرا ثالثا فقال : الأمد المديد [12] ، ورابعا فقال : أمهلهم [13] .

وقال الجرجانى عن زمان النبى ـ ﷺ ـ : « كان فيه التحدى » [14] . وهو قول يمكن أن نفهم منه مجرد وقوع التحدى فيه دون تحديد لمدته ، ويمكن أن نفهم أن التحدى استمر طول هذا الزمان فقط ، ويمكن أن نفهم أن هذا تحديد لزمان لا يتنافى مع استمرار التحدى فى أزمان أخرى .

---

(١) رسائل ٣/٢٧٧ . نيازى ١٢٣ . (٢) ٢/ ٣٢٨ . الرافعى ١٧٦ . الحمصى ٢٩ . إعجاز الخطيب ١/١٣٩ . طبارة ٢٨ . عبد الفتاح لاشين ٤٣٤ . شحاتة ١٥٨ . وانظر الباقلانى ١٦ . الإتقان ٢/٣٢٨ . صقر ٦ . الحمصى ٢٤ . فقيهى ١٨ . الصابونى ٩٤ . العطار ٥٨ . عليان ١٢٣ .

(٣) بيان ١٩ . فقيهى ١٥٥ . إعجاز الخطيب ١/١٥٩ . حويش ٢٧٣ ـ ٤ . عبد الفتاح لاشين ٤٤٢ ـ ٣ . وانظر فقيهى ١٥٥ . (٤) إعجاز ٢٨٩ .

(٥) إعجاز ٢٠ . إعجاز الخطيب ١/١٧٦ . عبد الفتاح لاشين ٤٥٦ .

(٦) إعجاز ٢١ . إعجاز الخطيب ١ /١٧٧ . عبد الفتاح لاشين ٤٥٧ . نيازى ١٣٩ . انظر الرافعى ١٩٨ . الدباغ ٧ . أبو على ٢١ .

(٧) إعجاز ٢٨٧ . وانظر الطوسى ١/١٠٤ . معترك ١/١ .

(٨) إعجاز ٢٨٩ . (٩) إعجاز ٢١ . إعجاز الخطيب ١/١٧٧ . عبد الفتاح لاشين ٤٥٧ . نيازى ١٣٩ . وانظر الرافعى ١٩٨ .

(١٠) إعجاز ٤٣ . (١١) إعجاز ٢٨٩ . أبو موسى ١٨١ .

(١٢) إعجاز ٢٨٧ . (١٣) إعجاز ٢٨٩ . وانظر الطوسى ١/١٠٤ .

(١٤) الشافية ٥٨٦ . عائشة ٦٨ . أبو على ١٣٥ ـ ٦ . وانظر فصل المتحدون .

وعاد عياض إلى الإبهام ثانية ، فأعلن أن التحدى استغرق بضعا وعشرين سنة[١] .

واكتفى ابن كثير بالقول بأن كل آيات التحدى مكية ثم تحداهم فى المدينة بما فى سورة البقرة [٢] .

وركّب الزركشى اثنتين من عبارات الباقلانى ، فذكر أن محمدا أمهلهم طول السنين[٣] .

وأجبر النظم شمس الدين أبا عبد الله محمد بن سلامة الضرير الإسكندرى (١١٤٩ / ١٧٣٧) فقال :

أقام فيهم فوق عشر يطلب إتيانهم بمثله فغُلبوا[٤]

واعتمد الرافعى على بعض عبارات الباقلانى ، فذكر التحدى مع انفساح المدة وتراخى الأيام مرة ، وانفساح الأمر مرة [٥] .

وجاء محمد عبد العظيم الزرقانى بتعبيرات جديدة ، فذكر أن القرآن طاول العرب فى المعارضة [٦] . وهم على رغم هذه المطاولة ينتقلون من عجز إلى عجز ، ومن هزيمة إلى هزيمة . فلما انقطعوا مدلهم الحبل[٧] . ولما عجزوا هذه المرة أيضا طاولهم مرة أخرى ، وأرخى لهم الحبل إلى آخره[٨] ؛ وأنه أعطاهم الفرصة الكافية لمناظرته ، وأنصفهم كل الإنصاف من نفسه [٩] .

ورأى سيد قطب أن التحدى ظل قائما فى حياة الرسول ــ ﷺ ــ وما يزال قائما إلى يومنا هذا [١٠] .

وذهب نعيم الحمصى إلى أن التحدى لا يقتصر على عصر دون آخر [١١] . وأنه وقع إلى العرب مبكرا ، وظل النبى بين ظهرانيهم يدعوهم إلى الإسلام ثلاثا وعشرين سنة ، ونزلت آيات التحدى فى فواصل زمنية متباعدة [١٢] .

وذهب محمود محمد شاكر إلى أن التحدى مستمر قائم إلى يوم الدين [١٣] . وإلى ان

---

(١) الشفا ٥٠٤/١ . إعجاز الخطيب ٢٨٧ . (٢) التفسير ٥٩/١ .
(٣) البرهان ٩١/٢ . وانظر معترك ١/١ . الإتقان ٣٢٥/٢ . أبو على ٢١ .
(٤) الحمصى ١٨٩ . (٥) إعجاز ١٣ ، ١٩٨ .
(٦) مناهل ٢٢٩/٢ . وانظر الصالح ٣١٣ . شحاتة ١٥٤ .
(٧) مناهل ٢٢٩/٢ . وانظر شحاتة ١٥٥ . فودة ٢٣١ .
(٨) مناهل ٢٢٩/٢ . وانظر شحاتة ١٥٥ . فودة ٢٣١ . أبو الخشب ١١٣ .
(٩) مناهل ٦٧/١ . الصابونى ٩٥ .
(١٠) فى ظلال ٤٨ . الحمصى ٣٤٩ . وانظر خلف ١٥٦ . العطار ٥٦ .
(١١) فكرة ١٦٦ . وانظر أبو زهرة ١٥ .
(١٢) فكرة ٢٤ . وانظر إعجاز الخطيب ١٨٠/١ . الصابونى ٩٥ .
(١٣) الظاهرة ٢٥ .

المدة المكية منه ثلاثة عشر عاما[١] .

وجعل مناع القطان التحدى إلى الأبد [٢] .

واحترس موسى شاهين لاشين ، فحول قول الجاحظ إلى قرابة ثلاثة وعشرين عاما[٣].

وأعلن محمد على الصابونى أن القرآن لم يحدد زمنا للمنافسة ، حتى يقول قائل منهم : إن الزمن لا يكفى ، وليس فيه سعة [٤] .

وفصلت د. عائشة عبد الرحمن التحدى عن الإعجاز ، وذهبت إلى أن القرآن بدأ — من أواسط العهد المكى — يواجههم بالتحدى والمعاجزة ، حسما لكل جدل أو ريب فيه[٥] . وحددت مدته — كما رأينا آنفا — بعصر البعثة النبوية فقط [٦] .

ورأى د. عمر الملا حويش أن آيات التحدى التى جاء بها القرآن لم تقترن بزمن معين ولا بجيل معين [٧] ؛ ومحمد الصباغ أن التحدى مستمر إلى يوم القيامة [٨] ، ود. حسن ضياء الدين عتر أنه على مرّ الزمن [٩] .

ولما كان أحمد خلف الله أثبت أن التحدى قد تتابع ما بين السور ٤٩ و ٥٢ ، وكان قد نقل عن ابن عبد البر أنه كان بين الإسراء والهجرة سنة وشهران [١٠] ، وكانت البقرة — وهى آخر سور التحدى — أول سورة نزلت بالمدينة[١١] .

لما كان كل هذا وجب ألا نتفق مع الحمصى ، ونرى أن نزول كل سور التحدى استغرق مدة لا تزيد عن السنتين .

وذهب داود العطار إلى أن التحدى ليس فى فترة دون الفترات الزمانية التالية [١٢] ؛ ود. رشدى عليان وزميلاه إلى أنه ماض إلى يوم القيامة [١٣] ، أو بعبارة أخرى ثابت قديما وحديثا ومستقبلا للخصوم ذوى الأفكار الخبيثة الباطلة [١٤] ؛ ومصطفى الدباغ أنه بقى قائما وسيظل إلى أن تقوم الساعة [١٥] .

---

(١) الظاهرة ٢٤ . (٢) مباحث ٢٦٤ . وانظر قمحاوى ٢/١٦٨ ، دروزة ٣٩٤ .
(٣) اللآلىء ٢٤٤ — ٥ . وانظر العطار ٥٨ .
(٤) التبيان ٩٤ — ٥ . (٥) الإعجاز ٥٨ . وانظر أبو على ٣٢ .
(٦) الإعجاز ٦٥ — ٨ . (٧) تطور ٢٥٢ . (٨) لمحات ٦٤ .
(٩) بينات ١٥٤ . (١٠) القرآن ١٣٧ — ٨ .
(١١) الإتقان ١/ ٣٣ . (١٢) موجز ٥٦ .
(١٣) علوم ١٢٢ . وانظر أبو سليمان ١٠٧ . الكومى ١٦ .
(١٤) علوم ١٢٣ . (١٥) وجوه ١١ .

واتفق د . أبو على مع د. عائشة عبد الرحمن فى أن قضية التحدى انتهت بانتهاء عصر المبعث المحمدى ، لأن التحدى وسيلة من وسائل الإعجاز القرآنى . أما الإعجاز ذاته فقائم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها[١] .

كما اتفق مع الخطابى فى تحديد مدة التحدى النبوى مع تغيير بسيط جعلها تتجاوز العشرين سنة [٢] . وعلل طول المدة بأن ذلك وقع ليحصل الشمول فى معنى التحدى ، وليتمثل فيها الأسلوب التربوى ــ الذى عُرف حديثا ــ لأن هذه تتساوى وقدرات القوم العقلية ، ومستواهم الثقافى ، وتراعى الفروق الفردية بينهم . وما وقع فيها من تدرج فى التحدى إنما كان مراعاة للمراحل التعليمية التى تُحدى بها القوم [٣] .

وأخيرا قال د. فهد الرومى : انقطع الوحى والتحدى مازال قائما لم ينقطع ولم ينته ، فهو ــ لقوته ــ امتد زمنا حتى شمل آباده وامتد مكانا حتى انتظم آفاق الأرض [٤] .

---

(١) فى إعجاز ٣٢ .
(٢) فى إعجاز ٩٩ .
(٣) فى إعجاز ٢١ ، ٢٤ ــ ٥ .
(٤) خصائص ٩٤ .

تعقيـــب

واضح أن الأقوال ـ فى هذا الفصل ـ سارت فى طريقين :

طريق إعطاء الخصوم الوقت الكافى لإنجاز رغبتهم فى الإتيان بمثيل للقرآن .

وطريق تحديد زمن التحدى .

أما الطريق الأول فقد وردت منه عدة عبارات ، تتباين فى الألفاظ ولكنها جميعا تؤول إلى مدلول واحد ، هو أن القرآن لم يضن عليهم بوقت .

وسار العلماء فى الطريق الثانى فى مسالك شتى :

فكان منهم من رأى أن زمان التحدى مقصور على مدة الوحى فقط .

وكان منهم من رأى تحديد مدة التحدى بحياة الرسول ـ ﷺ ـ دون أن يعنوا بالعصور بعده : أهى داخلة فى زمان التحدى أم غير داخلة .

وكان منهم من رأى أن التحدى لم ينقطع بانقطاع الوحى ، وإنما هو باق إلى أن تفنى الأرض ومن عليها ، وإن عبروا عن ذلك بعبارات مختلفة ، قد يوحى بعضها بانتهائه فى أوقات محددة .

واختلف عدد السنين عند من رأوا زمن البعثة زمانا للتحدى .وإنما وقع هذا الاختلاف لأن بعضهم اعتبر سنوات البعثة كلها زمنا للتحدى ، وعدل بعضهم الآخر ـ محقين ـ إلى اعتبار السنوات منذ نزول أول آية فى التحدى . وكان ذلك فى أواسط العهد المكى .

القـــدر المطلوب معارضته

كان القرآن واضحا في تحدى العرب أن يأتوا بمثيل له ، وفى التنازل إلى طلب أن يأتوا بسورة واحدة مماثلة لسوره ، عندما عجزوا عن المثيل الشـامل . وعلى الرغـم مـن ذلـك كان للعلماء المسلمين كلام كثير ، وبخاصة حول أدنى قدر وقع به التحدى والعجز .

وأقدم نص عثرت عليه فى هذا الصدد مافاه به الجاحظ ، وذهـب فيـه إلى أن السـورة القصيرة هى أقل المعجز ، حين قـال : لـو أن رجـلا مـن العـرب قـرأ ــ علـى رجـل مـن خطبائهم وبلغائهم ــ سورة واحدة ، طويلة أو قصيرة ، لَتَبيَّن له ــ فى نظامها ومخرجها ، وفى لفظها وطبعها ــ أنه عاجز عن مثلها . ولو تحدى بها أبلغ العرب لظهر عجزه عنها.

ونفى صراحة أن يكون الإعجاز فيما دون السورة ، إذ استمر فقال : وليس ذلك فـى الحرف والحرفين ، والكلمة والكلمتين . ألا ترى أن الناس قد كـان يتهيـأ فـى طبـائعهم ، ويجرى على ألسنتهم أن يقول رجل منهم : الحمـد لله ، وإنـا لله ، وعلـى الله توكلنـا ، وربنا الله ، وحسبنا الله ونعم الوكيل . وهذا كله فى القرآن غير أنه متفرق غير مجتمع .

ولو أراد أَنطقُ الناس أن يؤلف من هذا الضرب سـورة واحـدة ــ طويلـة أو قصـيرة ، على نظم القرآن وطَبْعه ، وتأليفه ومخرجه ــ لما قدر عليـه ، ولـو استعان بجميـع قَحْطـان ومَعدّ بن عدنان[1] .

وجليّ فى هذا النص أن الجاحظ يحصر الإعجاز فى السورة مهما كان طولها ، وينفيـه عن جزء الآية من الحرف والحرفين والكلمة والكلمتين . وتبقى المنطقـة الوسـطى ، أعنـى الآيات المجتمعة دون أن تكون سورة مستقلة ، والآية الواحدة المكتملة المعنى ، لم يتعـرض لها الجاحظ هنا .

ولكنه تعرض لها فى مواضع أخرى . فقد قـال وهـو يبـين خطـر المعارضـة لـو تمـت :

---

(1) رسائل ٢٢٩/٣ . الحمصى ٢٨ . إعجاز الخطيب ١٤٨/١ ــ ٩ . أبو موسى ٣٦٤ . انظر الباقلانى ٢٥٩ . المنار ٣٠٢/٢ ــ ٣ . الحمصى ١٨٩ ، ٣١٨ .

«سورة واحدة أو آيات يسيرة كانت أنقض لقوله ، وأفسد لأمره .. »[١] .

وتخيل فى موضع آخر من يحث العرب على معارضة القرآن ، ويقول لهم : « ليؤلف واحد من شعرائكم وخطبائكم كلاما فى نظم كلامه ، كأقصر سورة يحذ لكم بها ، وكأصغر آية دعاكم إلى معارضتها » [٢] .

ويعطينا هذا القول الحق أن نستنبط أنه كان يرى أن (أصغر آية واحدة) كافية للتحدى والإعجاز . ولكن هذا الاستنباط يتعارض مع أقواله السابقة . ولذلك أعتقد أن عبارة (أصغر آية) جرت على قلمه استرسالا فى الحديث على سهو منه ، أو أنها محرفة عن (أطول آية) التى سنراها عند الرمانى .

وأعطانا الباقلانى آراء على بن إسماعيل الأشعرى (٢٦٠ — ٣٢٤ / ٨٧٤ — ٩٣٦) وأصحابه وأتباعه ، فقال : الذى ذهب إليه عامة أصحابنا ــ وهو قول الشيخ أبى الحسن الأشعرى فى كتبه ــ أن أقل ما يعجز عنه من القرآن السورة قصيرة كانت أو طويلة أو ما كان بقدرها [٣] .

فاتفق الأشعرى مع الجاحظ اتفاقا تاما فى الشطر الأول من قوله ، و لم يخالفه فى الشطر الثانى وإنما وضح الآيات اليسيرة التى ذكرها سلفه .

واتفق معه فى عدم إعجاز ما هو أقل من آية ، قال : و لم يقم دليل على عجزهم عن المعارضة فى أقل من هذا القدر [٤] .

وإنما وقع الخلاف بينهما فى الآية الواحدة . فقد كان رأى الأشعرى فيها واضحا ومحددا ، قال : فإذا كانت الآية بقدر حروف سورة ــ وإن كانت سورة الكوثر ــ فذلك

---

(١) الإتقان ٣٢٧/٢ . الرافعى ١٧٥ . الحمصى ٢٨ . إعجاز الخطيب ١٣٨/١ — ٩ . أمين ١٤٨ . الصباغ ٥٤ . عبد الفتاح لاشين ٤٣٣ ــ ٤ . شحاتة ١٥٦ ــ ٧ . أبو فرحة ١١٠ ــ ١ . أبو موسى ٣٦٤ . نيازى ١٢٨ . وانظر معترك ٢/١ حويش ٢ . الحمصى ٢٨ .

(٢) رسائله ٢٧٤/٣ . الصاوى الجوينى ١٩٧ . إعجاز الخطيب ١٣٥/١ . حويش ٢٥٧ . عبد الفتاح لاشين ٤٣١ . انظر أبو موسى ٣٥٩ .

(٣) إعجاز ٢٥٤ ، ٢٥٨ ، ٢٨٦ . ابن حزم ٢٩/٣ . عياض ٧٣٥/١ . الزركشى ١٠٨/٢ . الإتقان ٣٤١/٢ . صقر ٨٥ . كفافى ١٣٩ . عبد القاهر لمطلوب ٢٤٨ . خلف ١٦٠ . سلطان ١٠٦ . فودة ٢٣٢ . انظر القطان ٢٧١ . قمحاوى ١٧٧/٢ .

(٤) إعجاز ٢٥٤ . ابن حزم ٢٦/٣ ، ٩٠/٥ . الزركشى ١٠٨/٢ . الإتقان ٣٤١/٢ . صقر ٨٥. موسى لاشين ٢٥٣ .

معجز[١] .

و لم يخرج الرمانى عن نطاق أقوال الجاحظ . فالكلام العجيب الحسن المفرد شذرات لا يظهر بها حكم . فإذا انتظم حتى يكون كأقصر سورة أو أطول آية ، ظهر حكم الإعجاز ، كما وقع التحدى فى قوله تعالى : ﴿ فأتوا بسورة من مثله ﴾ فبان الإعجاز عند ظهور مقدار السورة من القرآن [٢] .

وتناول إعجاز السور القصار فى آخر رسالته فقال : إن قال قائل : لعل السور القصار ممكنة للناس !

قيل له : لا يجوز ذلك من قبل أن التحدى قد وقع بها . فظهر العجز عنها فى قوله تعالى : ﴿ فأتوا بسورة من مثله ﴾ فلم يخص بذلك الطوال دون القصار [٣] .

وروى الباقلانى أن المعتزلة ذهبت إلى أن كل سورة برأسها فهى معجزة [٤] ، وأنهم حُكى عنهم نحو قول الأشاعرة ، إلا أن منهم من لم يشترط كون الآية بقدر السورة بل بشرط الآيات الكثيرة [٥] . ويبدو أنه كان يريد الجاحظ .

وروى السيوطى أن بعض المعتزلة ذهبوا إلى أن الإعجاز متعلق بجميع القرآن [٦] . ورأى أن آيتى البقرة ويونس تردان هذا القول [٧] .

وفهم الزرقانى من هذا القول أن المعجز ــ عندهم ــ هو كل القرآن لا بعضه وحكم على هذا الرأى بأنه بمنأى عن الصواب ، محجوج بآيات التحدى [٨] .

وذكر د . موسى شاهين لاشين أن المعتزلة يؤيدهم ظاهر قوله تعالى : ﴿ قل : لئن اجتمعت الإنس والجن ... لا يأتون بمثله ﴾ . ثم أعلن أنْ لا دليل لهم فى الآية لأن القرآن

---

(١) إعجاز ٢٥٤ . الزركشى ١٠٨/٢ . الإتقان ٣٤١/٢ . صقر ٨٥ . موسى لاشين ٢٥٣ . وانظر الزرقانى ٢٣٠/٢ . الآلوسى ١٩٤/١ . الحمصى ٢٣ ، ٨٢ ، ١٦٧ ، ١٧٧ . القطان ٢٧١ . إعجاز الخطيب ٢٧٦/١ ـ ٧ . طبارة ٢٨ . حويش ٢٠٦ ، ٢٣٨ ، ٢٧٢ . كفافى ١٣٩ . سلطان ٢٠٤ . أبو موسى ١٨١ . الذهبى ٧٢ . الكومى ١١ .

(٢) النكت ٧٢ . وانظر القرطبى ٧٧/١ .

(٣) النكت ١٠٣ ، ١٧٩ . الإتقان ٣٤٧/٢ . انظر الباقلانى ٢٥٤ . الزركشى ١٠٨/٢ . المنار ٣٠٤/١١ . الرافعى ١٩٩ ، ٢٠٤ . الحمصى ٣٢٠ . فقيهى ١٥٢ .

(٤) إعجاز ٢٥٤ . الزركشى ١٠٨/٢ . وانظر موسى لاشين ٢٥٢ . كفافى ١٣٩ . قمحاوى ١٧٦/٢ .

(٥) إعجاز ٢٥٤ . الزركشى ١٠٨/٢ . (٦) الإتقان ٣٤١/٢ . وانظر الحمصى ٦٠ ، ١٠٨ ، ٢٠١ . القطان ٢٧١ . العانى ١٨٢ . عطا ٢٤٤ . قمحاوى ١٧٦/٢ . فودة ٢٣٢ .

(٧) الإتقان ٣٤١/٢ . (٨) مناهل ٢٣٠/٢ . وانظر فودة ٢٣٢ .

يطلق على كله وعلى بعضه . ويردهم التحدى بعشر سور وبسورة واحدة[١] .

وعندما يعطينا الباقلانى آراءه الخاصة يؤكد الاتفاق بينهم وبين المعتزلة بعامة ، والجاحظ والرمانى بخاصة .

فقدر المعجز عنده السورة طالت أو قصرت [٢] . ولا يرى فرقا بين قوله هذا وقول من قال : مقدار كل سورة ، أو أطول آية ، فهو معجز ؛ لأن كل واحد من الأمرين معجز [٣] .

كذلك يرى ما بلغ قدر السورة من الآيات معجزا [٤] .

أما ما كان دون الآية كاللفظة الواحدة فليس بمفرده معجزا ، وإن كان عبارة عن كلام الله . وذلك لأن البلاغة لا تتبين فيه [٥] .

وخشى أن يحتج عليه محتج ببعض الآيات القرآنية ، فأبان أنها لا تتعارض مع قوله هذا، قال : أما قوله عزوجل : ﴿ فليأتوا بحديث مثله ﴾ فليس بمخالف لهذا لأن الحديث التام لا تتحصل حكايته فى أقل من كلمات سورة قصيرة [٦] .

ودافع الباقلانى عن إعجاز السور القصار خيفة أن يدعى ملحد ، أو يزعم زنديق : إنه لا يقع العجز عن الإتيان بمثلها أو بالآيات بمقدارها . فأقام الدفاع على رأى الرمانى السابق . ثم قال :

هذا قول لا يستقيم للملحد ، لأنه يزعم أنه ليس فى القرآن كله إعجاز ، فكيف يجوز أن نناظره على تفصيله .

إذا ثبت لنا — معه — إعجازه فى السور الطوال ، قامت الحجة عليه ، وثبتت المعجزة. ولا معنى لطلبه كثرة الأدلة والمعجزات . ونحن نعلم أن إعجاز البعض بما بيناه ؛ والبعض الآخر بأنه إذا ثبت الأصل ، لم يبق — بعد ذلك — إلا قولنا ، لأنا عرفنا فى البعض الإعجاز بما بينا : ثم عرفنا فى الباقى بالتوقيف ونحو ذلك[٧] .

وروى ابن حزم فى أثناء اعتراضه على آراء الأشاعرة أن سائر أهل الإسلام ذهبوا إلى

---

(١) اللآلىء ٢٥٢ . (٢) إعجاز ٢٨٦ . موسى لاشين ٢٥٣ . وانظر القرطبى ١/٧٧ . ابن كثير ١/٦٢ . العطار ٥٤ . طلبة ٨٧ . (٣) إعجاز ٢٨٦ . أبو موسى ١٨١ .

(٤) إعجاز ٢٥٨ . وانظر الآلوسى ١/١٩٤ . الحمصى ١١٣ . (٥) إعجاز ٢٦٠ .

(٦) إعجاز ٢٥٤ . الزركشى ٢/١٠٨ — ٩ . وانظر الإتقان ٢/٣٤١ لتغير الخبر فيه .

(٧) إعجاز ٢٥٦ .

أن القرآن كله — قليله وكثيره — معجز[1] .

وأعقب هذا بما يكشف رأيه الخاص ، قال : هذا هو الحق الذى لا يجوز خلافه . ولا حجة للأشاعرة فى قول الله ﴿ قل : وأتوا بسورة من مثله ﴾ . لأنه — تعالى — لم يقل : إن ما دون السورة ليس معجزا ، بل قد قال : ﴿ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ﴾ . ولا يختلف اثنان فى أن كل شىء من القرآن معجز [2] .

واستطرد فى مجادلة الأشعرية فقال : ثم نعارضهم فى تحديدهم المعجز بسورة فصاعدا. أخبرونا : ماذا تعنون بقولكم : إن المعجز مقدار سورة ؟ أسورة كاملة لا أقل ، أم مقدار الكوثر من الآيات ؟ ومقدارها فى الكلمات أم مقدارها فى الحروف ؟ ولا سبيل إلى وجه خامس .

فإن قالوا : المعجز سورة تامة لا أقل ؛ لزمهم أن سورة البقرة حاشا آية واحدة ، أو كلمة واحدة من آخرها أو من ثلثها أو من نصفها أو من أولها ، ليست معجزة . وهكذا كل سورة . وهذا كفر مجرد لاخفاء به ، إذ جعلوا كل سورة فى القرآن — سوى كلمة من أولها أو من وسطها أو من آخرها — مقدورا على مثلها .

وإن قالوا : بل مقدارها فى الآيات ؛ لزمهم أن آية الدَّين ليست معجزة ، لأنها ليست ثلاث آيات ، وأن آية الكرسى ليست معجزة لأنها ليست ثلاث آيات ؛ ولزمهم — مع ذلك — أن ﴿ والفجر ، وليال عشر ، والشفع والوتر ﴾ . معجز ، كآية الكرسى وآيتين ، لأنها ثلاث آيات . وهذا غير قولهم . ومكابرة ظاهرة أن تكون هذه الكلمات معجزة حاشا كلمة غير معجزة .

ولزمهم أيضا أن ﴿ والضحى والفجر والعصر ﴾ هذه الكلمات الثلاث فقط معجزات لأنهن ثلاث آيات . فإن قالوا هى مفترقات غير متصلات لزمهم إسقاط الإعجاز عن ألف آية مفترقة وإمكان المجىء بمثلها . ومن جعل هذا ممكنا فقد كابر العيان ، وخرج عن الإسلام ، وأبطل الإعجاز عن القرآن . وفى هذا كفاية لمن نصح نفسه .

ولزمهم أيضا أن قوله تعالى : ﴿ ولكم فى القصاص حياة ﴾ [3] ليس معجزا . وهذا نقض لقولهم : إنه فى أعلى درج البلاغة . وكذلك كل ثلاث آيات غير كلمة . وهذا

---

(1) الفصل ٢٩/٣ . الحمصى ٨٢ . وانظر الإتقان ٣٤١/٢ . الرافعى ٢٠٠ . الحمصى ٣٢٣ . القطان ٢٧١ . العمارى ٨٩ . الصباغ ٦٣ . سلطان ٢٠٤ . قمحاوى ١٧٦/٢ . أبو سليمان ١٠٧ .

(2) الفصل ٢٩/٣ .

(3) سورة البقرة ١٧٩ .

خروج عن الإسلام ، وعن المعقول .

وإن قالوا : بل فى عدد الكلمات ، أو قالوا : عدد الحروف ، لزمهم شيئان مسقطان لقولهم :

أحدهما : إبطال احتجاجهم بقوله تعالى : ﴿ بسورة من مثله ﴾ لأنهم جعلوا معجزا ما ليس بسورة . و لم يقل تعالى : بمقدار سورة ، فلاح تمويههم . والثانى أن سورة الكوثر عشر كلمات : اثنان وأربعون حرفا ، وقد قال تعالى : ﴿ وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان ، وآتينا داوود زبورا ﴾[1] : اثنتا عشرة كلمة : اثنان وسبعون حرفا . وإن اقتصرنا على الأسماء فقط ، كانت عشر كلمات : اثنين وسبعين حرفا . وهذا أكثر كلمات وحروفا من سورة الكوثر . فينبغى أن يكون هذا معجزا عندكم ، ويكون﴿ ولكم فى القصاص حياة ﴾ غير معجز .

فإن قالوا : إن هذا غير معجز ، تركوا قولهم فى مقدار إعجاز أقل سورة فى القرآن ، فى عدد الكلمات وعدد الحروف .

وإن قالوا : بل هو معجز ، تركوا قولهم فى أنه فى أعلى درج البلاغة ، ويلزمهم — أيضا — أننا إن أسقطنا من هذه الأسماء اسمين ، ومن سورة الكوثر كلمة ، ألا يكون شىء من ذلك معجزا .

فظهر سقوط كلامهم وتخليطه وفساده .

وأيضا ، فإذا كانت الآية والآيتان منه غير معجزة ، وكان مقدورا على مثلها ؛ فكل آية — على انفرادها — مقدور على مثلها . وإذا كان كذلك ، فكله مقدور على مثله . وهذا كفر .

فإن قالوا : إذا اجتمعت ثلاث آيات صارت غير مقدور عليها ؛ قيل لهم : هذا غير قولكم : إن إعجازه إنما هو من طريق البلاغة . [فطريق البلاغة] فى الآية كهو فى الثلاث ، ولا فرق .

ثم أعلن رأيه الخاص فقال : والحق فى هذا ما قاله الله تعالى : ﴿ قل : لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، لا يأتون بمثله ﴾ . وإن كل كلمة قائمة

---

[1] سورة النساء ١٦٣ .

المعنى نعلم أنها — إن تليت أنها من القرآن ، فإنها معجزة لا يقدر أحد على المجيء بمثلها أبدا ، لأن الله حال بين الناس وبين ذلك[١] .

وأجمل الزرقاني رأى ابن حزم دون أن يسميه ، فذكر أنه يقول بأن المعجز كل ما يصدق عليه أنه قرآن ولو كان أقل من سورة . ثم رفضه ورأى أن آيات التحدى لا تتفق معه [٢] .

وذكر د . موسى شاهين لاشين : قال قوم : يتعلق الإعجاز بقليل القرآن وكثيره ، لقوله تعالى : ﴿ فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين ﴾ .

ورُدّ هذا القول بأن الآية لا دلالة فيها على ما ادعوا ، لأن قبلها قوله : ﴿ أم يقولون: تقوَّله ؟ بل لا يؤمنون ﴾ وهم لم يدَّعوا أن محمدا تقول آية منه ، بل ظاهره ادعاؤهم تقوُّل محمدللقرآن . ولذا حملها بعضهم على أن التحدى فيها كان بالقرآن لا ببعضه . ثم تنزَّل فى التحدى إلى عشر سور ثم تنزَّل إلى سورة .

وقال القاضى فى رد استدلالهم بالآية : إن الحديث التام ، المتحدى به ، لا تتحصل حكايته فى أقل من كلمات سورة قصيرة [٣] .

وجمع الزمخشرى بين أقوال الجاحظ المتنوعة وصاغ منها قوله : تحداهم أن يأتوا بسورة من أصغر السور أو آيات شتى [٤] .

وخالف ابن عطية كل من سبقه . وسار فى اتجاه خاص ، طرح فيه قياس أقل المعجز، واعتبر قيمته . فقال : القدر المعجز من القرآن ما جمع الجهتين :

اطراد النظم والسرد .

وتحصيل المعانى وتركيب الكثير منها فى اللفظ القليل .

فأما مثل قوله تعالى : ﴿ مدهامتان ﴾ [٥] ، وقوله : ﴿ ثم نظر ﴾ [٦] . فلا يصح التحدى بالإتيان بمثله ، لكن بانتظامه واتصاله يقع العجز عنه . فخالف فى الشطر الأخير من قوله ابن حزم ، ووافق الباقين [٧] .

وروى عياض — دون أن يذكر أسماء — أقوال الأشعرى الذى نعته بأنه بعض أئمة المحققين وأقوال الجاحظ وابن حزم ، قال : أقل ما يقع الإعجاز فيه عند بعض أئمة

---

(١) الفصل ٢٩/٣ — ٣١ . الحمصى ٨٢ — ٣ . العمارى ٩٣ . خلف ١٦١ — ٣ .

(٢) مناهل ٢٣٠/٢ . فودة ٢٣٢ . (٣) اللآلىء ٢٥٢ . (٤) الكشاف ٢٣٩/١ .

(٥) سورة الرحمن ٦٤ . (٦) سورة المدثر ٢١ . (٧) المحرر ١٥٢/٧ .

المحققين — سورة ﴿ إنا أعطيناك الكوثر ﴾ أو آية فى قدرها[١] وذهب بعضهم إلى أن كل آية منه — كيف كانت — معجزة[٢] . وزاد آخرون أن كل جملة منتظمة منه معجزة ، وإن كانت من كلمة أو كلمتين .

ثم رأى أن القول الأول هو الحق ، لأن الله قال : ﴿ فأتوا بسورة من مثله ﴾ فهو أقل ما تحداهم به ، مع ما ينصر هذا القول من نظر وتحقيق يطول بسطه[٣] .

وفاجأ الفخر الرازى العلماء بإعلان أن السور القصار مقدور عليها لولا الصرفة . قال: إن قيل : قوله : ﴿ فأتوا بسورة من مثله ﴾ يتناول سورة الكوثر ، وسورة العصر : وسورة ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ ونحن نعلم بالضرورة أن الإتيان بمثلها أو بما يقرب منها ممكن ؟

فإن قلتم : إن الإتيان بأمثال هذه السور خارج عن مقدور البشر ؛ كان ذلك مكابرة. والإقدام على أمثال هذه المكابرات مما يطرق التهمة إلى الدين . ولهذا السبب اخترنا الطريق الثانى وقلنا : إن بلغت هذه السورة — فى الفصاحة — إلى حد الإعجاز ، فقد حصل المقصود . وإن لم يكن الأمر كذلك ، كان امتناعهم عن المعارضة — مع شدة دواعيهم إلى توهين أمره — معجزا .

فعلى هذين التقديرين يحصل المعجز [٤] .

وأكد هذا القول ثانية فقصر التحدى على مطلق السور التى يظهر فيها قوة تركيب الكلام وتأليفه [٥] .

وعلى رغم أن القرطبى يرى التحدى بالسور القصار ، فإنه يرى أن التحدى لا يعتبر إلا فى مقدار سورة أو أطول آية ، لأن الكلام كلما طال اتّسع فيه مجال التصرف ، وضاق المقال على القاصر المتكلف [٦] .

واتجه ابن النقيب اتجاها عمليا ، فحلل سورة الكوثر باعتبارها أقصر سور القرآن ، ليكشف عناصر إعجازها [٧] .

وفند ابن كثير رأى الرازى بأن التحدى القرآنى يعم كل سورة فى القرآن ، طويلة

---

(١) الشفا ١/٧٣٥ . وانظر الآلوسى ١/١٩٤ . فودة ٢٣١ .
(٢) الشفا ١/٧٣٥ . وانظر ابن النقيب ٥٢١ .　　(٣) الشفا ١/٧٣٥ .
(٤) مفاتيح ٢/١١٧ . ابن كثير ١/٦٢ . الحمصى ١٥٠ . أبو موسى ٣٥٨ .
(٥) مفاتيح ١٧/١٩٥ .　　(٦) الجامع ١/٧٧ .　　(٧) مقدمة ٥٢١ .

كانت أو قصيرة ، لأنها نكرة فى سياق الشرط ، فتعم كما هى فى سياق النفى عند المحققين من الأصوليين .

والصواب عنده أن كل سورة من القرآن معجزة ، لا يستطيع البشر معارضتها طويلة كانت أو قصيرة . قال الشافعى — رحمه الله — لو تدبر الناس سورة العصر لكفتْهم[(١)] .

وروى السيوطى : قال قوم : لا يحصل الإعجاز بآية ، بل يشترط الآيات الكثيرة .

وقال آخرون : يتعلق الإعجاز بقليل القرآن وكثيره لقوله : ﴿ فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين ﴾ .

قال القاضى — يريد الباقلانى — لا دلالة فى الآية ، لأن الحديث التام لا تتحصل حكايته فى أقل من كلمات سورة قصيرة [(٢)] .

وذهب الآلوسى إلى أن القرآن بجملته وأبعاضه حتى أقصر سورة منه معجز [(٣)] .

واستدل محمد رشيد رضا على أن المراد بقوله تعالى : ﴿ فأتوا بسورة ﴾ أية سورة ، طالت أو قصرت ، بتنكيرها . إلا أن يقال : إن التنكير للتعظيم . أو لنوع من السور يدل عليه دليل كالسور التى فيها قصص الأنبياء وأخبار وعيد الدنيا والآخرة [(٤)] .

وذكر أن بعضهم ذهب إلى أن المراد بالتحدى السور الطوال . وكان يقصد الرازى[(٥)].

وأضاف إلى ما قاله الرمانى فى الدفاع عن إعجاز قصار السور قوله : إذا كان التحدى بسورة مثله مفتراة خاصا بالسور التى فيها قصص الرسل مع أقوامهم بالتفصيل ، فهذه كلها من السور الطويلة كالأعراف ويونس وهود والحجر وطه والمؤمنون والطواسين والعنكبوت .

وإن كان يعم السور المشتملة على نذر أولئك الأقوام المكذبين لرسلهم من غير تفصيل لدعوتهم لهم ، فيدخل فى عمومه بعض سور المفصل أيضا كالذاريات والنجم والقمر والحاقة والفجر . ولا يدخل فيه على كل من التقديرين شىء من السور القصيرة ، لأنه ليس فيها شىء من ذلك .

---

(١) التفسير ٦٢/١ . الحمصى ١٥٠ — ١ . (٢) الإتقان ٢/ ٣٤١ .

(٣) روح ٣١/١ . عبد الحميد ٢٦٥ . وانظر الحمصى ٢٠١ . عرجون ١٤٢ . الصابونى ٩٢ .

(٤) المنار ٣٠٢/١١ . الحمصى ٣١٨ — ٩ . (٥) المنار ٣٠٢/١١ . الحمصى ٣١٩ .

ومن تأمل ما فى هذه السور من المفصل من التعبير عن المعنى الواحد بالعبارات العديدة ، مع تعدد أساليبها ، واختلاف نظمها ، وأنواع فواصلها ، وألوان بيانها وقوارع نذرها ، وصوادع وعيدها ؛ وقابليتها للترتيل بالنغمات المؤثرة اللائقة بكل منها ؛ فأجدر به — إن كان قد أوتى حظا من بيان هذه اللغة والشعور الذوقى ببلاغتها — أن يقتنع بأن إعجازها اللغوى كإعجاز قصص السور الطويلة أو أَظْهر ... وأن يتجلى له سر تأثيرها العجيب فى أولئك المكذبين من بلغاء قريش وغيرهم[١] .

واحتذى الرافعى الرمانى فى إبانة عجز العرب عن معارضة قصار السور فقال : فلو ذهبوا إلى معارضة السورة القصيرة — على قلة كلماتها ، وعلى أنها نَفَس واحد وجملة متميزة — لضاق بهم الأمر بمقدار ما يظن الجاهل أنه يَسَعهم . فإن ذلك الإحساس [بعجزهم] لا يزايلهم ، ولا يبرح يورد عليهم محاسن ذلك الأسلوب جملة ، ويغمرهم بها ضربة واحدة تنثال من ها هنا وهاهنا . فلا يكون إلا أن يقفوا متلدِّدين . وقد حاروا فى أى جهة يأخذون ، وأى جانب يتوجهون إليه [٢] .

وأضاف إلى ما قال الرمانى عجز المولدين والمحدثين ، إذ قال : على أن كلامنا آنفا فى عجز العرب عن معارضة السورة القصيرة من القرآن ، وعدم تأَتِّيهم لذلك بالسبب الذى بيَّناه ، لا يؤخذ منه أن غير العرب من المحدثين والمولدين وسائر من يكونون عربا فى اللسان دون الفطرة ، يستطيعون ما لم يتأتَّ لأولئك ... فإنهم ... أبعد من العرب فى أسباب العجز ، وأدنى إلى التقصير ، وأقرب إلى الهُجْنة إذا هم تعاطوه .

لأن أحدهم إذا قابل كلمات الآية أو السورة أو معانيها ، فإنه لا يعدو حالة من حالتين :

إما أن يتعلق على الألفاظ وأوزان الكلام فى اللسان ، ويمضى فى مثل نظم القرآن . فينظر فى الحرف بين الحرفين ملاءمة واحتباكا ، وفى الكلمة بين الكلمتين تناسبا واطرادا، وفى الجملة بإزاء الجملة وضعا وتعليقا . ويمر على ذلك حتى يخرج من السورة.

وهذه أسوأ الحالين أثرا عليه ، وأشدهما إزراء به ، وأبلغهما فضيحة له ، لأنها تنادى على كلامه بالصنعة ، وتدل فى مقاطعه على مواضع الكَلال والفتور ، وتومىء فى نظامه إلى عثرات الطبع ، إذ يعمل على السُّخرة ويأخذ بالمحاكاة ، دون أن يذهب فى البيان على سجيته ، ويمضى فى أسلوبه الذى يتعلق بمزاجه وأحواله النفسية ... فهذه إحدى الحالتين.

---

(١) المنار ١١/٣٠٤ — ٥ . الحمصى ٣٢٠ . (٢) إعجاز ١٩٩ .

والأخرى أن يكون من يريد معارضة السورة القصيرة قد ذهب مذهبا لا يتقيد فيه بنظم القرآن ولا بأسلوبه ، وإنما همه فى المعارضة أن يجوِّد المعنى ، ويبين اللفظ ويُجْزل قسطه من الصناعة ؛ وأن يتولى الكلام بالروية والنظر ، حتى يخرج مشرق الوجه ، مصقول العارض ، دقيق الصنعة ، بالغ التركيب .

وفى هذه الحالة تنتهى إلى عكسها ؛ لأن مثل ذلك لا يتأتى من أساليب البلغاء فى الألفاظ الموجزة والعبارة القصيرة ، إلا أن يكون مثلا مضروبا ، أو حكمة مرسلة ، أو نحو ذلك ، مما يقصِّر بطبيعته فى الدلالة ، وتستوفى القصةُ أو الحالةُ المقرونة به شرحَ معناه ، ويكون هو روحَ هذا المعنى ...

فأنت ترى أن معارضة السور القصار أشد على المولدين ومن فى حكمهم من إرادة الطوال بالمعارضة ، إن أرادوا مثل النظم أو لم يريدوه ، على أن المعارضة لا تكون شيئا يسمَّى ما لم تكن بمثل النظم والأسلوب[١] .

وقاس محمد عبد العظيم الزرقانى على القول بإعجاز أقصر سور القرآن ، سورة الكوثر التى تتألف من ثلاث آيات وما كان بقدرها ، فأعلن : كل مقدار ثلاث آيات من القرآن حجة قاطعة تقوم فى فم الدنيا إلى يوم الساعة تتحدى العالم ...[٢] .

وذهب نعيم الحمصى مذهبا موافقا لابن عطية فرأى أن مقدار المعجز — إن صح أن له مقدارا ، ولم يقصد به الروح العامة المنبثة فى القرآن دون نظر إلى الكمّ .. هو مقدار ما يؤدى فكرة كاملة . فربما نقص عن مقدار سورة الكوثر ، كآية ﴿ ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب ﴾ . وربما زاد عنها كثيرا ، أو كان آية واحدة كآية الدَّين [٣] .

وروى د . موسى شاهين لاشين أن قوما قالوا : الإعجاز لا يكون إلا بآيات كثيرة[٤].

---

(١) إعجاز ٢٠٤ — ٨ .

(٢) مناهل ٦٩/١ . الصابونى ٩٦ — ٧ .

(٣) فكرة ٢٣ — ٤ .

(٤) اللآلىء ٢٥٣ .

تعقيب

جليّ أن هذا الفصل يدور حول ثلاثة محاور : كان الجاحظ أول من أعمل الفكر فيها، ووصل إلى نتائج احتضنها العلماء ونسبوها إلى غيره تحيزا وجهلا . هذه المحاور هي:

١ ــ طول السورة التى يتحدى القرآن بها .

٢ ــ حكم ما يبلغ هذه السورة من آيات متعاقبة مستلة من إحدى السور ، أو آية واحدة طويلة .

٣ ــ حكم ما هو أقل من هذه السورة .

أما المحور الأول فقد وصل فيه الجاحظ إلى رأى قاطع ، ينص على أن التحدى يقع بالسورة طالت أو قصرت بل بأقصر السور . فتبعه فيه الأشعرى وأنصاره بل جمهور المسلمين .

و لم يشذ غير الفخر الرازى الذى رأى أن قصار السور لا يتبين الإعجاز البلاغى فيها واضحا بسبب قصرها . ولما كان يؤمن بإعجاز القرآن كله ، فقد رأى أن إعجاز هذه السور كان بالصرفة ، على خلاف السور الطويلة التى كان إعجازها ببلاغتها .

وساقت هذه السور القصار الرمانى وعددا من العلماء إلى إفرادها بالدفاع عن إعجازها .

ووصل الجاحظ فى المحور الثانى إلى وصف الآيات التى يحتاج إليها لتدخل فى نطاق التحدى باليسيرة . وواضح أنه وصف يشوبه عدم التحديد . ولذلك تنوعت الأوصاف التى جاء بها العلماء لتسد مسده ، فكان الوصف عند الزمخشرى بآيات شتى ، وعند د . موسى شاهين لاشين بآيات كثيرة . ووصل الوصف إلى الصيغة التى قبلها الجميع عند الأشعرى ، الذى نص على أن تكون هذه الآيات أو الآية بمقدار أقصر سورة فى القرآن . ولو أمعنا النظر فى أقوال الجاحظ وجدنا الأشعرى استنبط هذا الوصف منها .

وكان رأى الجاحظ فى المحور الثالث باتا ، فقد رفض أن يدخل ما كان دون السورة فى مجال التحدى والإعجاز . وحاز هذا الرأى موافقة الجميع غير ابن حزم . فقد كان هذا يقيم إعجاز القرآن على مجرد كونه وحيا من الله ، مما جعله يبسط مظلة الإعجاز على كل ما يصدق عليه أنه قرآن أو من القرآن ، حتى الكلمة الواحدة والحرف الواحد . وهو الحكم الذى لم يتفق معه فيه أحد من المفكرين .

ويبين هذا أن الجاحظ هيمن على الفصل كله ، و لم يستطع أحد — مهما كانت رتبته ممن تحدثوا فيه — أن يفلت من سيطرته . وما استطاع الأشعرى أن يفعله أمران :

— تحديد الآيات اليسيرة

— تطبيق الحكم المطبق على الآيات المتعاقبة على الآية الواحدة ، إذا بلغت فى الطول مبلغ السورة المتحدى بها .

وغريب أن يورد العلماء رأيين متعارضين للمعتزلة ، غير أن الذى شاع منهما أن القرآن بجملته . فاضطر السيوطى وغيره إلى الرد عليهم .

ولا يتبقى لدينا سوى ابن عطية ونعيم الحمصى ، اللذين هربا من التحديد الكمى إلى تحديد كيفى جيد ، ولكنه يبقى محل خلاف من يتخذه معيارا .

الجدل النظرى

كان على بن عيسى الرمانى أول من أقدم على إثبات صحة التحدى القرآنى . وأتى - من أجل ذلك - بحجتين :

١ - نظر فى أولاهما إلى إمكان المعارضة ، فرأى أن الأشياء على وجهين :

أ - مالا يمكن معارضته ، مثل التحدى بعدد يضرب فى عدد ، فينتج عنهما خمسة وعشرون ، غير خمسة فى خمسة ؛ ومثل الإتيان بجذر للمئة غير العشرة .

ب - ما يدخل تحت الممكن ، مثل التحدى بالبلاغة ، لأن الذى قدر على أن يأتى بسورة آل عمران والمائدة هو الذى قدر على الأنعام ، وهو الله الذى يقدر أن يأتى بما شاء من مُثُل القرآن . فأظهر الحِجاج على الكفار بأن أتى - فى المعنى الواحد - بالدلالات المختلفة ، وفى أعلى طبقة من البلاغة[١] .

وذهب الباقلانى إلى أنه لا يجوز أن يُعجَّز العباد عما تستحيل قدرتهم عليه ، كما يستحيل عجزهم عن فعل الأجسام . فنحن لا نقدر على ذلك ، وإن لم يصح وصفُنا بأنا عاجزون عن ذلك حقيقة . وكذلك معجزات سائر الأنبياء على هذا [٢] .

وروى ابن حزم أنه قال فى « الانتصار » قد صح وثبت أن العجز لا يكون إلا عن موجود[٣].

وأورد عبد الجبار - وهو يفند ادعاء الأشاعرة أن التحدى بالكلام القديم - شرطين رأى أنهما يجب أن يتوفرا فى المتحدى به ، ويبدو أنه أخذ ما قال أو بعضه عن شيوخه ، قال :

إذا كان المتحدى به متعذرا على الجميع بطل التحدى . ولو جاز لجاز التحدى بكل أمر يستحيل إيقاعه ، حتى ليصح التحدى بالجمع بين الضدين .

وإذا كان المتحدى به متأتيا للكل بطل التحدى[٤].

ويندرج تحت هذا النوع رد ابن حزم على على بن إسماعيل الأشعرى فقد عزا إليه قولين فى المعجز :

---

(١) النكت ٩٤ .
(٢) إعجاز ٢٨٨ . سلطان ١٠٥ . انظر أبو سليمان ٩٨ .
(٣) الفصل ٩٣/٥ .
(٤) المغنى ٣١٨/١٦ - ٩ . انظر العطار ٤٩ .

أما الأول فأن المتلوّ هو المعجز . وعلق ابن حزم عليه بأنه كقول المسلمين .

وأما الثانى الذى تحدى الله الناس بالمجىء بمثله فهــو الأول ، الـذى لم يـزل مـع الله ، ولم يفارقه ، ولا أنزل إلينا ولا سمعناه ، ولا سمعه جبريل ولا محمد قـط ، بـل لم يـزل غـير مخلوق . وأما الذى يُقرأ فى المصاحف ، ونسمعه من القرآن ، فليـس معجـزا بـل مقـدور على مثله[١] .

وعقب ابن حزم علــى القـول الثـانى مـرة فقـال : هـذا كفـر صحيـح ، وخـلاف لله ولجميع أهل الإسلام[٢]. وأطال فى مرة أخرى ففسر قوله . قـال : هـذا كـلام فـى غايـة النقصان والبطلان ، إذ من المحال أن يكلّف أحد أن يجىء بمثل ما لم يعرفه قـط ولا سمعـه . وأيضا فإنه خلاف القرآن لأن الله ألزمهم بسورة أو بعشـر سـور منـه . وكذلـك الكـلام ليس هو — عند الأشعرية — سورا ولا هو كثيرا بل هو واحد . فسقط هذا القول[٣].

وكان الباقلانى قد نسب القول الثانى إلى من سمـاهم « بعـض أصحابنـا » ولعلـه أراد بذلك بعض أتباع الأشعرى لا الأشعرى نفسه[٤].

كما رفض ابن حزم قول الباقلانى الفائت معلنا : إنه لا يجوز أن يعجز العاجز إلا عمـا يقدر عليه ، مع أن هذا الكلام منه موجب أنهم عجزوا عن مثـل مـا قـدروا عليـه . ومـا يُمتَرى فى أنه كان كائدا للإسلام ملحدا لا شك فيه . فهذه الأقوال لا ينطلق بهـا لسـان مسلم [٥] .

وذهب الرازى إلى أن التحدى لا بد أن يكون بشىء يصح أن يفعله المتحدَّى .

وتتفق هذه الأقوال مـع قـول الزركشـى : جـاء القـرآن علـى نهـج إنشـائهم الخطـب والأشعار وغيرها ، ليحصل لهم التمكن مـن المعارضـة ثـم يعجـزوا عنهـا . فيظهـر الفلـج [الفوز] بالحجة ، لأنهم — لو لم يتمكنوا — لكان لهم أن يقولوا : قد أتيت بما لا قدرة لنـا عليه . فكما لا يصح من أعمى معارضة المبصر فى النظر ، لا يحسن من البصير أن يقول : غلبتك — أيها الأعمى — بنظرى . فإن للأعمى أن يقول : إنمـا تتـم لـك الغلبـة لـو كنـت قـادرا وكـان نظـرك أقـوى مـن نظـرى . فأمـا إذا فُقـد أصـــل النظـر ، فكيــف تصـــح المعارضة؟[٦]. وقال إبراهيم على أبو الخشب : التحدى لا يكون تحديا إلا فى عمل يتـأتى للخصم أن يفعله ، ويعتاد مثله أن يأتى بمثله . فإذا بـان عجـزه ، وثبـت قصـوره ، لزمتـه

(١) الفصل ٢٥/٣ ، ٧٦/٥ .
(٢) الفصل ٢٥/٣ ، ٧٦/٥ .
(٣) الفصل ٢٥/٣ .
(٤) إعجاز ٢٦٠ .
(٥) الفصل ٩٣/٥ .
(٦) البرهان ١٢٢/٢ - ٣. وانظر معترك ٧/١ .

الحجة[١] .

٢ ــ وأعلن الرمانى فى الحجة الثانية على صحة التحدى القرآنى أن دلالة الأسماء والصفات [يريد الكلمات المفردة] متناهية ، وأما دلالة التأليف فليس لها نهاية . ولو قال قائل : قد انتهى تأليف الشعر حتى لا يمكن أحدا أن يأتى بقصيدة إلا وقد قيلت فيما قيل، لكان ذلك باطلا ، لأن دلالة التأليف ليس لها نهاية ، كما أن الممكن من العدد ليس له نهاية يوقف عندها ولا يمكن أن يزاد عليها .

ولهذا صح التحدى بالمعارضة فى التأليف لتظهر المعجزة [٢] .

والتقط أبو الحسن عبد الجبار بن أحمد الأسد آبادى هذه الحجة ، وبنى عليها فصلا كاملا فى « المغنى » أعلن فيه : جملة الكلمات ــ وإن كانت محصورة ــ فتأليفها يقع على طرائق مختلفة من الوجوه . فتختلف ــ لذلك ــ مراتبه فى الفصاحة . ولذلك لا يمتنع أن يقع فيه التفاضل ، ويبين بعض مراتبه من بعض ، ويزيد عليه قدرا يسيرا أو كبيرا .

وما هذا حاله ، فالتحدى صحيح فيه ، لأن فيه مقادير معتادة ، تصح فيها زيادات ــ فى الرُّتَب ــ غير معتادة . وصار ذلك ــ فى بابه ــ بمنزلة مقادير ما يمكن القادر منا أن يفعله ، أنها مقادير معتادة تصح فيها زيادات ــ فى مراتب ــ غير معتادة . فكما صح ــ فيما حل هذا المحل ــ التحدى ، فكذلك القول فيما ذكرناه من الكلام .

وأبان عبد الجبار أن العجز لا يجب أن يكون موقوفا على مالا يقدر العباد على مثله ، وأنْ لا فرق بين الخارج عن العادة فى وجه مخصوص ــ وإن كان من جنس ما يقدر العباد عليه ــ وبين إحياء الموتى ، وقلب العصاحية ، مما يتعذر على البشر جنسه ؛ وأنْ لا فرق بين ماله مقدار زائد على ما جرت به العادة بمثله وبين ما يكون له رتبة زائدة ــ فى بعض صفاته المعقولة ــ على ما جرت العادة بمثله[٣] .

وعلق عبد الكريم الخطيب على هذا القول بغية توضيحه : كأن عبد الجبار يريد بهذا أن يكشف شبهة ربما قامت فى بعض العقول ، وهى « الإعجاز بالكلمة » إذ ما عُرف من المعجزات ــ قبل القرآن ــ كان يقوم على أشياء مادية محسوسة تتحدى قوى الناس جميعا . فتبهرهم بأفاعيلها ، وتخرسهم بآثارها وأعاجيبها . أما أن يكون الكلام مادة للتحدى فذلك ما لم يعهده الناس قبل القرآن ، ولم يتصوروا وقوعه فى الحياة يوما من الأيام [٤] .

---

(١) القرآن ١١١ . (٢) النكت ٩٩ .

(٣) المغنى ١٦/٢٠٠ ــ ٣ ، ٢١٤ ــ ٥ . وانظر الشافية ٥٧٥ . الخطيب ١/٢١١ . خلف ١٤٥ .

(٤) إعجاز ١/٢١١ .

واتفق معهم عبد القاهر الجرجانى الذى ذكر أنه معلوم أن سبيل الكلام ما يدخله التفاضل، وأن للتفاضل فيه غايات ينأى بعضها عن بعض ، ومنازل يعلو بعضها بعضا[١].

٣ ــ وكشف عبد الجبار أن بعض الناس اعترضوا على تحدى محمد بالقرآن على جهل مؤلفه ، وقالوا : كيف يصح من محمد أن يتحدى بالقرآن ، ولم يثبت أنه من قبل الله ، وإنما يصح التحدى بهذا الشرط ؟ كما قالوا : إذ لم يثبت وقوع القرآن من جهة محمد ، فيجب أن لا يصح التحدى .

ورد عليهم بأنْ لا فرق ــ فيما ينقض العادة ــ أن تنتقض العادة بنفس العمل أو بتغير حال الفاعل ، بأن تكون العادة جارية فيه أنه لا يُمكّن إلا من فعل معتاد فإذا أُمكِن من خلافه كان معجزا . وكذلك فلو مكّن الملائكة من فعل ما يخرج عن العادة بيننا لكان معجزا . فلا فرق بين أن يقال : إن القرآن من قبل الله أو من قبل الرسول أو من قبل الملاك ، فى أن وجه الإعجاز يحصل فيه . فالمعتبر ــ فى ذلك ــ أن يكون الظاهر على الرسول ــ عند دعائه ــ مفارقا لما جرت العادة به : من غير أن تعتبر وجوه وقوعه ، وكيفية الحال فيه[٢].

٤ ــ وإن قال : أليس فى المسلمين من يدعى فى القرآن أنه ليس بدلالة ، وأن الذى يدل على نبوته سواه . فكيف يصح ما ادعيتموه ، وذلك يوجب كون هؤلاء جاحدين لما يعلمون ، أو أن يكون محمد تحدى بما ليس بدلالة ، وذلك لا يصح ؟

قيل له : ليس الأمر كما ذكرته ، لأن جماعة المسلمين يعترفون بما ذكرنا . وإنما اختلفوا فى وجه الإعجاز ، مع اتفاقهم على أنه معجز ، وعلى أن محمدا ادعاه دلالة وتحدى به .

فإن قال : فقد قال بعض المتكلمين كعَبّاد بن سليمان الضمرى وغيره إن القرآن ليس بمعجز ولا دلالة على نبوة محمد . فكيف يصح ماذ كرتموه ؟

قيل له : إنه لم ينكر كونه معجزا فى المعنى ، وإنما أداه إلى ذلك قوله : إن الأعراض لا تكون دلالة ، ولا المعدوم المقتضى ، فقال ــ لأجل ذلك ــ إنه لا يدل الآن ، وأن فى أيامه ــ ﷺ ــ كانت الدلالة جبريل الذى أُنزل به . كما يقال فى مجىء الشجرة : إنه ليس بدلالة ، وإن الدلالة هى الشجرة الجائية . وهذا كلام فى عبارة ، لا يمنع من أن يكون قائلا بما نقوله ، غير دافع له ، لأن الضروريات لا يجوز دفعها عن القلب .

وبعد ، فلو ثبت ما حكيته ، كان لا يمتنع جملة على أن العدد القليل يجوز فيه جحد ما نعرفه باضطرار . فكيف يكون ذلك قادحا فيما أوردناه [٣] .

---

(١) الشافية ٥٧٥ . الخطيب ٢٦٤/١ .
(٢) المغنى ٢١٥/١٦ ــ ٦ .
(٣) المغنى ٢٤٢/١٦ . وانظر العلوى ٣٧٥/٣ .

تعقيب

يبين هذا الفصل أن النقاش فيه دار بين القدماء . أما المحدثون فلم يشاركوا فيه . وإنما تعرض عبد الكريم الخطيب له وهو بصدد حكاية أقوال بعض القدماء .

ويبين أن العبء الأكبر وقع على كتفى عبد الجبار والرمانى المعتزليين . ولكنه لم يحرم من مشاركة من الباقلانى والجرجانى الأشعريين ثم ابن حزم الظاهرى ، ويحيى بن حمزة العلوى الزيدى .

ودار النقاش حول أربعة محاور :

ــ أن التحدى لم يكن فى شىء مستحيل .

ــ أن اللغة تتيح تفاوتا كبيرا فى التعبير .

ــ أن جهل المؤلف لا يقدح فى التحدى .

ــ أن اختلاف بعض المسلمين فى كون القرآن دلالة على النبوة لا يقدح فى التحدى أيضا .

ويبين أن المفكرين المسلمين حاولوا سد جميع المنافذ التى يمكن أن يسلكها سالك للطعن فى إعجاز القرآن ، عن طريق إثبات أن عدم معارضتهم للقرآن كان بسبب عجزهم عنه لا بسبب أى زعم آخر .

واقتضى منهم ذلك أن يوردوا الأدلة الكثيرة واحدا بعد الآخر على وقوع التحدى ، ومعرفة العرب الذين عاصروا نزول القرآن به ، بل معرفة كل القادرين على الإبداع باللغة العربية إلى أن تفنى الأرض ومن عليها .

ثم أوردوا الأدلة واحدا بعد الآخر على أن القرآن منح العرب كل ما ييسر لهم العمل فى المعارضة ، من جعل المعجزة من جنس الفن الذى برعوا فيه ، وفى وقت كانوا قد بلغوا الغاية فى هذا الفن ؛ ومن فسحة فى الوقت لم تتح لهم الشكوى من أى ضيق أو قسر ؛ ومن هبوط بالقدر المطلوب الإتيان بمثله من القرآن كله إلى عشر سور وأخيرا إلى سورة واحدة ، مهما بلغت من القصر .

وإذن فقد هيأ لهم القرآن كل ما كان من شأنه أن يدفعهم إلى المعارضة ، ويعينهم عليها . ولكن ماذا فعلوا ؟

المعارضـــة

الفصل الأول

المعارضات

أورد المؤرخون والرواة أخبارا متعددة ، تكشف أنه قد وقعت عدة محاولات لمجابهة القرآن ، وشَغْل الناس عنه ، والإتيان بما يماثله . ومن هذه المحاولات ما هو ثابت تاريخيا ، ومنها ما هو موضع شك كثير أو قليل .

النضر بن الحارث

أقدم ما عثرت عليه من المواجهات الأدبية الفعلية للقرآن ما فعله النضر بن الحارث (٢هـ. /٦٢٤ م) .

روى عبد الملك بن هشام المعافرى (٨٢٨/٢١٣) عن محمد بن إسحاق (٧٦٨/١٥١) أنه كان يَنْصِب لمحمد ـ ﷺ ـ العداوة ويؤذيه . وكان قد قَدم الحيرة من العراق ، وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس وأخبار رستم واسفنديار من أبطالهم . فكان ـ إذا جلس محمد مجلسا . فذكّر فيه بالله ، وحذّر قومه ما أصاب من قبلهم من الأمم من نقمته ـ خَلَفه في مجلسه إذا قام ، ثم قال : أنا ـ والله ، يا معشر قريش ـ أحسن حديثا منه ، فهَلمَّ إلىّ. ثم حدثهم بما جمع[1] .

وكان النضر يعدّ فعله هذا معارضة للقرآن ، بدليل أنه كان ممن حكى القرآن قوله في الآية ٣١ من سورة الأنفال : ﴿ لو نشاء لقلنا مثل هذا ﴾[2]. ولكن أحدا من علماء المسلمين لم يوافقه على هذا الادعاء ، ولم يذكروه في محاولات المعارضة التي ذكروها .

وإنما ذكر عكرمة بن عبد الله (٢٥ـ١٠٥ / ٦٤٥ ـ ٧٢٣) أنه عارض القرآن فقال: « والزارعات زرعا ، والحاصدات حصدا ، والطاحنات طحنا ، والعاجنات عجنا، والخابزات خبزا ، فاللاقمات لقما »[3].

وسنرى أن أكثر العلماء نسبوا هذا النص إلى مسيلمة الكذاب . وقد اعتذر مصطفى صادق الرافعي عن ذكره النضر وما استجلب من قصص ، لأنه كان يرى أنه مَخْرق بها لجهل العرب بها . وأعلن : لم يحفل أحد من المؤرخين ولا الأدباء بهذا الرجل ، لحماقته

---

(١) السيرة ٣٢١/١ .

(٢) نفسه . وانظر العلوى ٣٨٤/٣ . الرافعي ١٨٣ . الهندى ٢٢٨ . الحمصى ١٣٢،٢٦ ، ٣٣٢، ٣٣٥ . فقيهى ٢٠ . خلف ١٤٠ .

(٣) الماوردى ٧٢ .

فيما زعم . وإنما ذكرناه نحن إذ كنا لا نرى الباقين أعقل منه[1] .

هذيل بن يعفور

وذكر ابن الجوزى أن عبد الملك بن قريب المعروف بالأصمعى (١٢٢—٢١٦ / ٧٤٠ — ٨٣١) حكى عن هذيل بن يعفور من بنى سعد بن زهير أنه عارض سورة الإخلاص فقال : قل : هو الله أحد ، إله كالأسد ، جالس على الرَّصَد ، لا يفوته أحد [2] .

مسيلمة

ولكن المعارضة التى نالت أكبر قسط من عناية العلماء هى تلك التى اضطلع بها مسيلمة بن ثمامة الذى عرف بالكذاب (٦٣٣/١٢) . وزعم فيها أنه يتلقى من الله آيات مضاهية لآيات القرآن ، ينزل بها عليه ملاك يدعى « رحمان » .

١ — وأقدم خبر عن هذه المعارضة خبر الحوار الذى جرى بين وفد بنى حنيفة من قبيلة مسيلمة وبين أبى بكر الصديق عبد الله بن عثمان (٥١ ق . هـ - ١٣ / ٥٧٣ - ٦٣٤)

روى أبو عمر أحمد بن محمد المعروف بابن عبد ربه (٢٤٦— ٨٦٠/٣٢٨—٩٤٠) أن وفدا منهم قدم عليه ، بعد إيقاع خالد بن الوليد (٦٤٢/٢١) بهم وقتله مسيلمة . فسألهم أبو بكر : ماكان يقول صاحبكم ؟ فقالوا : أعِفنا يا خليفة رسول الله . قال : لابد أن تقولوا . فقالوا كان يقول : « يا ضفدع: كم تنقّين ، لا الشراب تمنعين ، ولا الماء تكدرين . لنا نصف الأرض ، ولقريش نصفها ، ولكن قريشا قوم لا يعدلون » . فقال لهم أبو بكر : ويحكم ، ما خرج هذا من إلّ ولا بَرّ . فأين ذُهب بكم ؟ ! [3] .

وذهب عمرو بن العاص (٥٠ ق.هـ-٤٣/٥٧٤-٦٦٤) مذهب أبى بكر ، فقد روى سعيد بن نشيط أن رسول الله — ﷺ — بعث عمرا إلى البحرين . فتوفى الرسول فأقبل عمرو حتى مر على مسيلمة . فأعطاه الأمان ثم قال : إن محمدا أُرسل فى جسيم الأمور،

---

(١) إعجاز ١٨٣ . وأتى به الحمصى ٢٦ دون نسبة إلى أحد . (٢) صيد ٤٠٦ .

(٣) العقد ٦٦/٢. الباقلانى ١٥٧— ٨، ٢٨١ . الثعالبى ١١٦ — ٧ . الماوردى ٧١ — ٢ . إعجاز الخطيب ٤٨٣/١ . وروى النص دون خبر أبى بكر : الجاحظ : الحيوان ٥/ ٥٣٠ . الخطابى ٥٠ . صيد ابن الجوزى ٤٠٤ . ابن تيمية ١٥٧/٢ . الرافعى ١٨٠ . الهندى ٢٢٨ . صبيح ١٢٤ ... الحمصى ٢٥ . العمارى ٢٩ . إعجاز الخطيب ٤٨٣/١ . البوطى ١٥٥ . أبو زهرة ٧١ . أمين ١٤٩. فودة ٢٣٦ — ٧ .

وأُرسلت فى المحقّرات . وقال عمرو : أعرِض علىّ ما تقول . فلما سمعه قال : أما — والله — إنك تعلم ، وإنا لنعلم ، أنك من الكاذبين . فتوعده مسيلمة(١) .

وتستمر رواية سعيد بن نشيط عن عمرو بن العاص ، فتقول :

٢ — ثم أتى أناس يختصمون إليه فى نخل قطعها بعضهم لبعض . فتسَّجى [تغطى] بقطيفة ثم كشف رأسه فقال : « والليل الأدهم ، والذئب الأسحم ، ماجاء بنو أبى مسلم من مَحْرم » (٢) .

٣ — ثم كرر فعله السابق وقال : « والليل الدامس ، والذئب الهامس ، ما حُرْمته رطبا إلا كحرمته يابس ، قدّموا فلا أرى عليكم فيما صنعتم شيئا »(٣).

٤ — وعزا إليه ابن هشام عن ابن إسحاق أنه قال : « لقد أنعم الله على الحبلى ، أخرج منها نَسَمة [كائنا حيا] تَسْعى ، من بين صفاق وحَشا »(٤).

٥ — وعزا إليه عبد الله بن مسلم المعروف بابن قتيبة (٢١٣—٢٧٦/٨٢٨—٨٨٩) أنه قال : « الفيل ، ما الفيل ؟ له ذنب وثيل ، ومشْفر طويل . فإن ذلك من خلق ربنا لقليل»(٥).

٦ — وروى أبو الفرج على بن الحسين الأصفهانى (٢٨٤—٣٥٦/٨٩٧—٩٦٧) أن سَجاح بنت الحارث التميمية (نحو ٥٥/٦٥٧) التى تنبأت فى قومها وتزوجته ، سألته : ما أُوحى إليك ؟ فقال : « ألم تر أن الله خلقنا أفواجا ، وجعل النساء لنا أزواجا ، فنولج فيهن الغراميل إيلاجا ، ونخرجها منهن — إذا شئن — إخراجا »(٦).

٧ — وروى حمد بن محمد الخطابى (٣١٩—٣٨٨/٩٣١—٩٩٨) أنه قال : « ياوبر ،

---

(١) الخطابى ٢٥١ — ٢ . ابن كثير ٦٢/١ . العلوى ٣٨٣/٣ . العمارى ٣٢ . إعجاز الخطيب ٤٨٣/١ .

(٢) الخطابى ٥١ . الباقلانى ١٥٦ . العمارى ٣١ . إعجاز الخطيب ٤٨٣/١. أبو زهرة ٧١ .

(٣) الخطابى ٥١ - ٢ . الباقلانى ١٥٧. العمارى ٣١ . إعجاز الخطيب ٤٨٣/١ . أبو زهرة ٧١.

(٤) السيرة ٢٢٣/٤ . تاريخ الطبرى ١٣٨/٣ . الأصفهانى ٣٤/٢١. الباقلانى ١٥٧ . الثعالبى ١١٠-٦ . العمارى ٤٣ . وأتى به غير منسوب الخطابى ٥٠ .

(٥) الماوردى ٧٢. الزملكانى ٥٤ . الشريف الجرجانى ٢٤٦/٨ . الرافعى ١٨٠ . الحمصى ٢٥ . العمارى ٣١ ، ٤١ . أمين ١٤٩ . وأتى به غير منسوب الخطابى ٥١ - ٢ .

(٦) الأغانى ٣٤/٢١ . الباقلانى ١٥٧ . صيد ابن الجوزى ٤٠٥ . أبو زهرة ٧٢ .

يا وبر ، يدان وصدر ، وسيرك حفر ونقر »[١] .

وصرح أبو بكر محمد بن الطيب الباقلانى (٣٣٨-٤٠٣ /٩٥٠-١٠١٣) بأن مسيلمة كان يقول :

٨ — والشاء وألوانها ، وأعجبها السود وألبانها ، والشاة السوداء ، واللبن الأبيض ، إنه لعجب محض ، وقد حرم المَذْق ، فمالكم لا تَمْجعون ؟[٢] .

٩ — والمُبديات زرعا ، والحاصدات حصدا ، والذاريات قمحا ، والطاحنات طحنا ، والخابزات خبزا ، والثاردات ثردا ، واللاقمات لقما ، إهالة وسمنا . لقد فُضِّلتم على أهل الوبر ، وما سبقكم أهل المدر . ريفكم فامنعوه ، والمُعترّ فآووه ، والباغى فناوئوه[٣].

وعزا إليه أبو منصور عبد الملك بن محمد الثعالبى (٣٥٠-٤٢٩/٩٦١—١٠٣٨) أن مما كان يقوله ما يلى :

١٠— والشمس وضُحاها ، فى ضوئها ومَجلاها ؛ والليل إذا عداها ، يطلبها ليغشاها. فأدركها حتى أتاها ، وأطفأ نورها فمحاها [٤] .

١١ — اذكروا نعمة الله عليكم واشكروها ، إذ جعل لكم الشمس سراجا، والغيث ثجاجا ، وجعل لكم كباشا ونعاجا ، وفضة وزجاجا ، وذهبا وديباجا . ومن نعمته عليكم أن أخرج لكم من الأرض رمانا وعنبا وريحانا ، وحنطة وزؤانا[٥].

١٢ — وأسند إليه عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجانى (١٠٧٨/٤٧١) قوله «إنا أعطيناك الجماهر : فصل لربك وجاهر »[٦].

وعزاه أبو عمر أحمد بن محمد المعروف بابن عبد ربه (٢٤٦—٨٦٠/٣٢٨—٩٤٠) إلى رجل ذكر أنه تنبأ فى زمن خالد بن عبد الله القَسْرى (٦٦—٦٨٦/١٢٦—٧٤٣) فضرب عنقه وصلبه على خشبة . وروى أن خلف بن خليفة الشاعر (نحو ٧٤٣/١٢٥) مرّبه

---

(١) بيان ٥١ . ابن كثير ٦٢/٢ . إعجاز الخطيب ٤٨٣/١. وحسبه الماوردى (٧٢) للأسود العنسى.

(٢) إعجاز ١٥٧ . صيد ابن الجوزى ٤٠٤ . الرافعى ١٧٩ - ٨٠ . الحمصى ٢٥ . العمارى ٣٦ .

(٣) إعجاز ١٥٧ . الجرجانى ٣٨٧ . الشريف الجرجانى ٢٥٢/٨ . الرافعى ١٧٩ . صبيح ١٢٤ . الزرقانى ٢٣٠/٢ . الحمصى ٢٥ . العمارى ٣٢—٦ . البوطى ١٥٥ . دراز ٨٢ . أمين ١٤٩ . شحاتة ١٥٩ . الشاعر ١٠٩ . فودة ٢٣٧ . وأتى به غير منسوب الطبرى ١٠/١ .

(٤) ثمار ١١٥ .

(٥) ثمار ١١٦ . الجندى ١٤٢/٢ .

(٦) دلائل ٣٨٧ . الزركشى ٩٣/٢ . الرافعى ١٩٩ . الزرقانى ٢٣٠/٢ . الحمصى ٢٥ . العمارى ٣٢ . دراز ٨٢ . شحاتة ١٥٩ . فودة ٢٣٧ .

فقال متهكما: إنا أعطيناك العمود ، فصل لربك على عود ، وأنا ضامن عنك ألا تعود[١].

وربما كان هذا الرجل هو ذاك الذى سماه أبو الفرج عبد الرحمن بن على المعروف بابن الجوزى (٥٠٨-٥٩٧/١١١٤-١٢٠١) : هذيل بن واسع ، وعزا له النص المذكور [٢] .

ومن الطرائف ما ذكره محمد رشيد رضا (١٢٨٢-١٣٥٤/١٨٦٥-١٩٣٥) عن أحد المبشرين المسيحيين أنه تعلق بهذا النص فى الطعن على إعجاز القرآن[٣] .

الأسود العَنْسّى

وذكر المؤرخون أن عَيْهلة بن كعب الذى يقال له الأسود العنسى (١٠/٦٣٢) ادعى النبوة فى أواخر حياة النبى [٤] .

وذكر مصطفى صادق الرافعى أن الأسود كان رجلا فصيحا ، معروفا بالكهانة والسجع والخطابة والشعر والنسب ، وأن العلماء لا يذكرون له قرآنا غير أنه كان يزعم أن الوحى ينزل عليه . وقُتل قبل وفاة محمد بيوم وليلة [٥] . وذكر محمد صبيح أن كلامه ضاع كما ضاع غيره[٦].

طليحة الأسدى

وذكر المؤرخون طليحة بن خويلد الأسدى (٢١/٦٤٢) بين المتنبئين فى حياة محمد[٧].

وصرح ابن الجوزى : كان من كلامه : إن الله لا يصنع بتعفير وجوهكم ولا قبح أدباركم شيئا ، فاذكروا الله أعِفّة قياما ، [فإن الرّغوة فوق الصريح] [٨].

ومن قرآنه : والحمام واليمام ، والصُّرَد الصوام ، ليبلغن ملكنا العراق والشام[٩].

ويبدو أنه فرّق بين القولين ، فلم يعدّ الأول من قرآن طليحة .

وروى ابن الجوزى وياقوت بن عبد الله الرومى الحموى (٥٧٤-٦٢٦/ ١١٧٨ — ١٢٢٩) أنه لما اشتد القتال يوم بُزاخة ، فى حروب الردة ، وبدت علامات انتصار خالد

---

(١) العقد ١٤٥/٦ . الجندى ١٤٢/٢ . العمارى ٣٢ . (٢) صيد ٤٠٦ . نيازى ١٢٧ .
(٣) المنار ١٨٨/١ . (٤) تاريخ الطبرى ١٨٤/٣ . صيد ابن الجوزى ٤٠٤ .
(٥) إعجاز ١٨٠ . صبيح ١٢٣ ، ١٢٥ . الحمصى ٢٦ — ٧ ، ٣٣١ .
(٦) بحث ١٢٥ . وانظر النصوص المنسوبة إلى مسيلمة .
(٧) تاريخ الطبرى ١٨٦/٣ . (٨) صيد ٤٠٥ . وانظر بلدان ياقوت ٦٠١/١ . الرافعى ١٨١ . صبيح ١٢٥ . الحمصى ٢٦ ، ٣٣١ . (٩) صيد ٤٠٥ . العمارى ٣٨ .

ابن الوليد ، سأل عيينة بن حصن الفزارى طليحة عدة مرات : هل جاءك ذو النون بشىء؟ وهو يجيبه فى كل مرة : لا . وفى آخر مرة قال : نعم ، قد جاءنى وقال لى : إن لك يوما ستلقاه ، ليس لك أوله ولكن لك آخره ، ورحًى كرحاه ، وحديثا لا تنساه . فقال عيينة : أرى — والله — أن لك حديثا لا تنساه . يا بنى فزارة . هذا كذاب . وولّى بهم[١] .

و لم يعتدّ الرافعى بما رواه ياقوت ، و لم يعرف ماقاله ابن الجوزى ، ولذلك أعلن أن طليحة لم يدَّع لنفسه قرآنا ، لأن قومه كانوا من الفصحاء ، و لم يتبعوه إلا عصبية وطلبا لأمر حسبوه كائنا فى العرب من غلبة بعضهم على جماعتهم ، وذلك على الرغم من أنه صدر هذه الأقوال بأن قال : إن طليحة زعم أن ذا النون — أو جبريل — يأتيه بالوحى[٢] .

سجاح

كذلك وضع المؤرخون سجاح بين المتنبئين ، وعنوا بأخبارها مع مسيلمة بخاصة .

وذكر أبو الفرج الأصفهانى أن فيما ادعت أنه أُنزل عليها : يا أيها المؤمنون المتقون ، لنا نصف الأرض ، ولقريش نصفها ، ولكن قريشا قوم يبغون [٣] . وهى الكلمة التى سبق أن رأينا الرواة يعزونها إلى مسيلمة .

وذكر أبو الفرج بن الجوزى أنها قالت : أَعِدّوا الركاب ، واستعدوا للنهاب ، ثم اعبروا على الرباب ، فليس دونهم حجاب[٤].

ونهج الرافعى معها نهجه مع طليحة ، فأعلن أنها لم تدَّع قرآنا ، وإنما كانت تزعم أنها يوحى إليها بما تأمر ، وتسجع فى ذلك ، كقولها حين عزمت على قتال مسيلمة فى أول الأمر : عليكم باليمامة ، ودُفّوا دفيف الحمامة : فإنها غزوة صرامة ، لا يلحقكم بعدها ملامة[٥] .

ولعل الرافعى أراد بالنفى فى المرتين أن مجموع ما نسب إلى كل منهما لا يؤلف قرآنا، لأنه مجرد آيات معدودات .

ولخص محمد صبيح أخبار سجاح فى عبارة قال فيها : وأما سجاح فقد ادعت قرآنا

---

(١) صيد ٤٠٥ . معجم البلدان ٦٠١/١ . الحمصى ٢٦ . وانظر صبيح ١٢٣ ، ١٢٥ .
(٢) إعجاز ١٨١ .
(٣) الأغانى ٣٣/٢١ . الرافعى ١٨٣ .
(٤) صيد ٤٠٤ .
(٥) إعجاز ١٨٣ . وانظر الحمصى ٢٦ ، ٣٣٢ .

إلا أن وحيها صمت حين لقيت مسيلمة وتزوجته[١] .

ابن المقفع

ونقل الباقلانى عن قوم أنهم ادعوا أن عبد الله بن المقفع (١٠٦ — ١٤٢/٧٢٤ — ٧٥٩) عارض القرآن ، وأنه اشتغل بذلك مدة ، ثم مزق ما جمع ، واستحيا لنفسه من إظهاره .

فإن كان الأمر كذلك فقد أصاب وأبصر القصد . ولا يمتنع أن يشتبه عليه الحال فى الابتداء ، ثم يلوح له رشده ، ويتبين له أمره ، وينكشف له عجزه . ولو كان بقى على اشتباه الحال عليه ، لم يخفَ علينا موضع غفلته ، ولم يشتبه لدينا وجه شبهته .

ومتى أمكن أن تدَّعى الفرس فى شىء من كتبها أنه معجز فى حسن تأليفه وعجيب نظمه ؟ [٢] .

واكتفى بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشى (٧٤٥—٧٩٤/١٣٤٤—١٣٩٢)بايراد الخبر على النحو التالى : زعم قوم أن ابن المقفع عارض القرآن ، وإنما وضع حكما[٣] .

ونقل محمد صبيح أن محمد بن أبى بكر المعروف بابن قيم الجوزية (٦٩١—٧٥١/ ١٢٩٢ـ١٣٥٠) والباقلانى ذكرا أن ابن المقفع ، عندما انتهى إلى قوله : ﴿ حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور ﴾ إلى قوله : ﴿ وقيل : بعدا للقوم الظالمين ﴾[٤] عدل عن إنشاء قرآنه وقال : هذا مالا يستطيع البشر أن يأتوا بمثله . وترك المعارضة ، وأحرق ما كان قد اختلقه[٥] .

وعزا الرافعى هذا القول إلى المصنفين فى كتب البلاغة من المتأخرين بعد القرن الخامس[٦].

البحترى

يبدو أن الباقلانى يلمح إلى أن من الملاحدة من عد شعر أبى عبادة الوليد بن عبيد البحترى (٢٠٦ـ٢٨٤/٨٢١ـ٨٩٨) فى مرتبة القرآن ، إذ قال إن من الكتاب « من يدعى

---

(١) بحث ١٢٥ .

(٢) إعجاز ٣٢ . صبيح ١٢٥ — ٦ . صقر ٦٩ . الحمصى ٧٥ . أمين ١٤٩ . فودة ٢٣٧ . وانظر العلوى ٣٨٤/٣ . الحمصى ١٣٢ ، ٣٣٥ ، ٣٧٥ ، ٤١١ . فقيهى ٢٥ ، ٦٣ . دراز ٨٢ . ضيف ١٠٨ . البوطى ١٥٦ .

(٣) البرهان ٩٥/٢ .

(٤) سورة هود ٤٤ .

(٥) بحث ١٢٥ ـ ٦ .

(٦) إعجاز ١٨٤ . الحمصى ٣٣٢ .

له الإعجاز غلوا ، ويزعم أنه يناغى النجم فى قوله علوا . والملحدة تستظهر بشعره ، وتتكثّر بقوله ، وترى كلامه من شبهاتهم ، وعباراته مضافة إلى ما عندهم من تُرَّهاتهم»[١] .

وهو قول لم أجد منْ تابعه فيه .

المعلقات

وربما كانت أقدم المحاولات تلك التى نستنبطها من قول لعبد الجبار بن أحمد الأسدآبادى ذكر فيه : فإن قال قائل إنا لا ندعى أن العرب ابتدؤوا معارضته . بل نقول: إن جميع ما تقدم من كلامهم ، وما حصل فى الوقت ، معارضة له . وإذا كان الواقع ــ على طوال الدهر ــ معارضة له ، فقد أغنى ذلك عن معارضة حالية [٢] .

وإذا كان الأسد آبادى أتى بهذا القول مبهما ، فقد أتى به يحيى بن حمزة العلوى (٦٦٩-٧٤٥/١٢٧٠-١٣٤٤)صريحا عندما أعلن أن من العلماء من قال : قد وقع هناك معارضات للقرآن ، فإن العرب قد عارضوه بالقصائد السبع[٣].

المتنبى

وأمر أبى الطيب أحمد بن الحسين المتنبى (٣٠٣ــ٣٥٤/٩١٥ــ٩٦٥) معروف ، وإن انقسم الناس ــ فى ادعائه النبوة ــ بين مؤيد ومنكر .

ومن المؤيدين أبو القاسم على بن المحسن بن على التنوخى (٣٥٥ــ٤٤٧ /٩٦٦ــ١٠٥٥) الذى روى عن أبيه (٣٢٧-٣٨٤/٩٣٩ــ٩٩٤) عمن يدعى أبا على بن أبى حامد قال عن المتنبى : تلا على البوادى كلاما ذكر أنه قرآن نزل عليه . وكانوا يحكون له سورا كثيرة ، نسخت منها سورة ، فضاعت ، وبقى أولها فى حفظى . وهو : «والنجم السيار ، والفلك الدوار ، والليل والنهار ، إن الكافر لفى أخطار . امض على سَننك ، واقْفُ أثر من كان قبلك من المرسلين ، فإن الله قامع بك زيغ من ألحد فى دينه، وضل عن سبيله » . وهى طويلة و لم يبق منها فى حفظى غير هذا [٤] .

---

(١) إعجاز ٢٤٥ . نيازى ١٢٧ . (٢) المغنى ٢٥٧/١٦ ، ٢٦٢ .

(٣) الطراز ٣٨٤/٣ . الحمصى ١٣٢ . وانظر الرافعى ١٨٦ . الحمصى ٦٧ . أمين ١٥٠ .

(٤) نشوار المحاضرة ١٩٨/٨ . العباسى ٢٨/١ . الرافعى ١٩٠ . المتنبى لشاكر ٢٠٦ . صبيح ١٢٦ . العمارى ٤٥-٦ . الحمصى ٥٨ . فقيهى ٦٨ - ٩ . أمين ١٥٢ .

وقال على العمارى : ذكر بعض الرواة أن المتنبى عارض القرآن بمئة وأربع عشرة عبرة. ولكن الإجماع قائم على أنه لم يبق منها إلا صُبابة يسيرة ، لم تمحها الأجيال ، وقد محيت البواقى من حفظ أول رجل سمعها[١] .

قريش

روى الحسن بن رشيق القيروانى (٣٩٠-٤٦٣/١٠٠٠-١٠٧١) : لما أرادت قريش معارضة القرآن ، عكف فصحاؤهم الذين تعاطوا ذلك على لُباب البُرّ ، وسُلاف الخمر ، ولحوم الضأن ، والخلوة إلى أن بلغوا مجهودهم . فلما سمعوا قول الله عز وجل : ﴿ وقيل: يا أرض ابلعى ماءك ، ويا سماء أقلعى ، وغيض الماء ، وقضى الأمر ، واستوت على الجودى ، وقيل : بعدا للقوم الظالمين ﴾ [٢] يئسوا مما طمعوا فيه ، وعلموا أنه ليس بكلام مخلوق[٣].

المعرى

وترجم أبو بكر أحمد بن على الخطيب البغدادى (٣٩٢-٤٦٣/١٠٠٢-١٠٧٢) لأبى العلاء أحمد بن عبد الله المعرى (٣٦٣-٤٤٩/٩٧٣-١٠٥٧) وقال عنه : عارض سورا من القرآن ، وحُكى عنه حكايات مختلفة فى اعتقاده ، حتى رماه بعض الناس بالإلحاد [٤] .

ووضح على بن الحسن الباخرزى (٤٦٧/١٠٧٥) هذه الدعوى ، فقال : وإنما تحدثت الألسن بإساءته لكتابه الذى زعموا أنه عارض به القرآن ، وعَنْونه بالفصول والغايات ، ومحاذاة السور والآيات[٥].

وقال أبو الفرج ابن الجوزى : رأيت للمعرى كتابا سماه « الفصول والغايات » يعارض به السور والآيات . وهو كلام فى نهاية الركة والبرودة[٦].

وحكى شمس الدين محمد بن أحمد الذهبى (٦٧٣-٧٤٨/١٢٧٤-١٣٤٨) أنه قيل له عن كتاب « الفصول والغايات » : أين هذا من القرآن ؟ فقال : لم تصقله المحاريب أربعمئة سنة[٧].

---

(١) العمارى ٤٥ . (٢) سورة هود ٤٤ . (٣) العمدة ٢١١/١ . العمارى ٢٧ .

(٤) تاريخ بغداد ٢٤١/٤ . تعريف القدماء ١٣،٥ ، ٢٩ . وانظر العلوى ٣٨٤/٣ . الحمصى ٣٨، ٦٧ - ٩ ، ١٣٢ ، ٣٣٢ ، ٣٣٥ ، ٣٧٥ ، ٤١١ ، ٤٤٩ .

(٥) دمية ٥٠/١ . تعريف ٨ ، ١٩٢ ، ٢٦٩ ، ٢٨٩ . وانظر فقيهى ٧٢ .

(٦) المنتظم ١٨٥/٨ . تعريف ٢١ ، ١٥١ ، ٣٠٤ ، ٣٢٢ . (٧) تاريخ الإسلام ٢٠٦ . تعريف ١٩٥ . صبيح ١١٤ . العمارى ٤٩ . الحمصى ٦٨ . البوطى ١٥٧ . أمين ١٥٢ .

ابن وَشْمَكير

ذكر العلوى قابوس بن وشمكير (١٠١٢/٤٠٣) فيمن عارضوا القرآن[١] . وقال الرافعى : زعم هؤلاء الملحدة أيضا أن حِكَم قابوس وقصصه هى من بعض المعارضة للقرآن[٢].

الوليد بن المغيرة

أعلن عضد الدولة عبد الرحمن بن أحمد الإيجى (١٣٥٥/٧٥٦) : قال الوليد بن المغيرة (٩٥ ق. هـ - ١هـ./٥٣٠-٦٢٢) بعد طول محاولته للمعارضة وتوقع الناس ذلك منه : عرضت هذا الكلام على خطب الخطباء وشعر الشعراء فلم أجده منها [٣] .

ونستنبط من هذا القول أن الوليد حاول أن يأتى بما يماثل القرآن ، وأنه قضى فى هذه المحاولة مدة طويلة . وهو قول لم أجده عند غير الإيجى ، وإن كان ما نسب إليه من قول يفرق بين القرآن وأجناس الأدب الأخرى معروف ذائع فى الكتب .

وأرجح أن الإيجى استنبط من موقف الوليد أنه حاول أن يعارض القرآن . وهو استنباط غير محتوم .

ويؤكد لنا موقف القاضى عبد الجبار أن خبر هذه المعارضة غير صحيح . قال : ثبت عن الوليد بن المغيرة - مع تقدمه فى العلم بالفصاحة والرياسة - عند اجتماع قريش إليه ، يطلبون منه وجه الحيلة فى دفع حال النبى ، ومعارضة القرآن . أنه قال : لقد سمعت الخطب والشعر وكلام الكهنة ، وليس هذا منه فى شىء .. [٤].

ابن الراوندى

أما أحمد بن يحيى المعروف بابن الراوندى (٩١٠/٢٩٨) فقد وقع الإجماع على خروجه عن الإسلام ، ووُجِّهت إليه اتهامات كثيرة ومتنوعة . يهمنا ما حكاه أبو الفتح عبد الرحيم بن عبد الرحمن العباسى (٨٦٧-١٤٦٣/٩٦٣-١٥٥٦) قال : اجتمع ابن الراوندى هو وأبو على محمد بن عبد الوهاب الجبائى (٢٣٥-٨٤٩/٣٠٣-٩١٦) يوما على جسر بغداد . فقال له : يا أبا على ، ألا تسمع شيئا من معارضتى للقرآن وتقضى له! قال الجبائى : أنا أعلم بمخازى علومك وعلوم أهل دهرك . ولكن أحاكمك إلى

---

(١) الطراز ٣٨٤/٣ . (٢) إعجاز ١٨٦ . وانظر العلوى ٣٨٤/٣ . الحمصى ٦٧ ، ١٣٢ ، ٣٣٢ ، ٣٣٥ . فقيهى ٧١ . أمين ١٥٠ .

(٣) المواقف ٣٥٣ . (٤) المغنى ٢٦٨/١٦ - ٩ .

نفسك : فهل تجد فى معارضتك له عذوبة وهشاشة وتشاكلا وتلاؤما ونظما كنظمه ، وحلاوة كحلاوته ؟ قال : لا والله . قال . قد كفيتنى ، فانصرف حيث شئت[١] .

وذهب مصطفى صادق الرافعى فى الطبعة الأولى من كتاب « إعجاز القرآن » إلى أنه عارض القرآن بكتاب سماه « التاج » ولم يقف الرافعى على شىء منه فى كتاب من الكتب . ثم عدل عن هذا الظن[٢].

الفرق الحديثة

أعلن محمد رشيد رضا أنه قد ظهر ، فى القرنين الماضى والحاضر ، دجالون من إيران فالهند . ادعى بعضهم أنه المهدى ، وبعضهم أنه نبى يوحى إليه ، وبعضهم أنه المسيح المنتظر . وقد ألف كل منهم رسائل وكتبا عربية ، ادعى أنها وحى من الله ، وأنها معجزة الأنام . وقد ضل بكل منهم أناس من الأعاجم لا يفهمون العربية فهما صحيحا . فتألفت لهم أحزاب وعصبيات بمساعدة الأجانب المستعمرين الطامعين فى القضاء على الإسلام والمسلمين . وصار لهم ثروة يستميلون بها الناس . وقد رددنا عليهم فى « المنار» ورد عليهم غيرنا من العلماء ، بما ظهر به جهلهم وكذبهم وسخافتهم فيما اغتروا به من وحى الشياطين لهم .

وقد كان لأعرضهم دعوى كتاب سماه « الكتاب الأقدس » حاول فيه محاكاة القرآن فى فواصل آياته وفى أنباء الغيب . ولكن أتباعه الأذكياء لم يجدوا بدا من إخفاء هذا الكتاب ، وجمع ما كان تفرق من نسخه المطبوعة فى الأقطار . وما يدرى إلا الله ماذا يفعلون فيه ــ بعد أن يثقوا أنهم استردوا سائر نسخه ــ من تصحيح وتنقيح ، وإبرازه فى يوم من الأيام فى ثوب جديد[٣] .

وقد صرح بأسماء ثلاثة من هؤلاء الدجالين فى موضع آخر ، فكانوا على محمد بن المرزا رضى البزار الشيرازى المعروف بالباب ، مؤسس فرقة البابية التى هى أصل البهائية (١٢٣٥-١٢٦٦/١٨١٩-١٨٥٠) وحسين على نورى بن عباس المعروف ببهاء الله ، مؤسس البهائية (١٢٣٣-١٣٠٩/١٨١٧-١٨٩٢) . وغلام أحمد بن غلام مرتضى القاديانى مؤسس القاديانية (١٢٥٦-١٣٢٦/١٨٣٩-١٩٠٨) وصرح بأن الأقدس للبهاء،

---

(١) معاهد التنصيص ١٥٧/١ ــ ٨ . الرافعى ١٨٩ . الحمصى ٥٢ ، ٤١١ . أمين ١٥١ . سلطان ٦٨ .

(٢) إعجاز ١٨٨ . أمين ١٥١ .

(٣) التفسير ٢٢٨/١ - ٩ . الحمصى ٣١٨ - ٩ . العمارى ٥٦ .

ووصف عملهم بأنه كان سخرية للعلماء والبلغاء[١] .

وأعلن نعيم الحمصى أن محمد رشيد رضا ترفع عن التصريح باسم صاحب « الكتاب الأقدس » وأنه زعيم البهائية[٢].

نصرانى محدث

وذكر محمد رشيد رضا أن أحد دعاة النصرانية ، فى عصره ، زعم أن سورة الفاتحة بمعزل عن البلاغة ، بأن كل ما بعد : ﴿ الصراط المستقيم ﴾ فيها حشو وتحصيل حاصل، وما قبله يمكن اختصاره بمالا يضيع شيئا من معناه .

وقال هذا الداعية : ما أحسن قول بعضهم : إنه لو قال : « الحمد للرحمن ، رب الأكوان ، الملك الديان ، لك العبادة وبك المستعان ، اهدنا صراط الإيمان » لأوجز ، وجمع كل المعنى ، وتخلص من ضعف التأليف والحشو والخروج عن الردىء كما بين الرحيم ونستعين .

ثم نقد محمد رشيد رضا هذا النص كلمة كلمة مع المقارنة بما فى القرآن [٣] .

مخضرمو الدولتين

ونقل نعيم الحمصى عن عبد العليم الهندى : لما كانت الحرية الدينية مطلقة أو شبه مطلقة فقد وُجدت فى العهد العباسى — منذ بدئه — جماعة من المفكرين الأحرار ممن تختلف درجة نفكيرهم الحر قوة وضعفا . وكان من أشهرهم — حوالى منتصف القرن الثانى الهجرى — عبد الله بن المقفع وبشار بن بُرد (٩٥-١٦٧/٧١٤-٧٨٤) ، وصالح بن عبد القدوس (نحو ١٦٠/٧٧٧) ، وعبد الحميد بن يحيى الكاتب (١٣٢/٧٥٠) ووالبة ابن الحُباب (نحو ١٧٠/٧٨٦) ، وهم كتاب أو شعراء .

وقيل : إنهم كانوا يجتمعون معا ، وينتقدون القرآن ، أو يحاولون أن يحاروه بالنظم والأسلوب[٤] .

وهذا قول غريب لم أعثر على مصدر آخر له .

---

(١) التفسير ٣٠٣/١١ . الحمصى ٣١٩ .
(٢) فكرة ٣١٨
(٣) تفسيره ٦٦/١ — ٨ .
(٤) الهندى ٢٢٩ . فكرة ٣٨ ، ٣٣٥ . وانظر فقيهى ٢٥ .

ابن سينا

قال الرافعى : من أعجب ما رأيناه أن بعضهم اتهم عبد الله بن سينا (٣٧٠– ٤٢٨/ ٩٨٠ –١٠٣٧) بمعارضة القرآن لأنه زنديق ، وأن ابن سينا وضع رسالة فى دفع هذا الافتراء[١].

الأشعرى

وذكر محمد حنيف فقيهى على بن إسماعيل الأشعرى (٢٦٠–٣٢٤/٨٧٤–٩٣٦) بين من عارضوا القرآن . واستمر فقال : كان فى أول أمره معتزليا ثم تحول عنها ودافع عن الإعجاز[٢] .

وهو قول لم أجد فى مراجعى من أيده . ولعل صاحبه استنبطه من القول باعتزاله ثم تحوله عن الاعتزال ، ومن زعم بعضهم أنه من القائلين بالصرفة .

تعقيب

على الرغم من هذا الاستقصاء الذى اضطلعت به ، لا أستطيع أن أدعى أننى أتيت بكل ما يمت إلى المعارضات ، لأن النبوات — على رأى ابن الجوزى — ادعاها خلق كثير[٣]. بل حكى أن أبا عبد الله محمد بن عمر المعروف بالواقدى (١٣٠–٢٠٧ / ٧٤٧–٨٢٣) ذكر أن رجلا من بنى يربوع ، يقال له جندب بن كلثوم ، ويلقب كردانا ، ادعى النبوة على عهد رسول الله — ﷺ —[٤]. ولكنى أهملت جندبا وكثيرين غيره لأن الرواة لم يذكروا لهم أقوالا تحاكى القرآن .

---

(١) إعجاز ١٨٥ . الحمصى ٦٧ . فقيهى ٧١ .

(٢) نظرية ٦٨ .

(٣) صيد ٤٠٤ .

(٤) صيد ٤٠٥ .

الفصل الثانى

نقد المعارضات

معارضة مسيلمة

أقدم نقد وُجِّه إلى المعارضات ما تفوه به عمرو بن العاص فى مواجهة مسيلمة ، وصرح فيه بأن أقواله تدل على كذبه . ويماثله قول الصديق وما ينسب إلى غيرهما ممن التقوا بالرجل .

أما محمد بن إسحاق فقد اتجه اتجاها آخر ، إذ يبدو أنه كان يشك فى صحة الأخبار والأقوال التى تعزى إلى مسيلمة ، لأنه ختم ما أورده عنه بقوله : الله أعلم أىُّ ذلك كان[١] .

ووصم أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (١٦٣-٢٥٥/٧٨٠-٨٦٩) مسيلمة بالسطو على القرآن ، إذ قال عن كلامه : يعلم كل من سمعه أنه إنما عدا على القرآن ، فسلبه[٢]، وأخذ بعضه ، وتعاطى أن يقاربه[٣] .

وعلق الخطابى على خبر عمرو بن العاص فقال : صدق عمرو!هل يخالج أحدا شك فى ضلالة من هذا سبيله[٤]، وسقوط من هذا برهانه ودليله ؟ [٥]. وأى بلاغة فى هذا الكلام[٦] . وأى معنى تحته وأى حكمة فيه[٧] حتى يُتوهَّم أن فيه معارضة للقرآن أو مباراة له على وجه من الوجوه ؟ [٨] ولكن البائس أعلم بنفسه حين يقول : أُرسلت فى المحقَّرات ، ولا يُراد أحقر[٩] مما جاء به وأقل . ولعل بعض ما جاء أبو الينبعى وأبو العِبَر والطرمىّ وأضرابهم من السخافات[١٠] أشف منه ، وأخف على السمع[١١].

---

(١) السيرة ٤ / ٢٢٣ .

(٢) انظر الخطابى ٥٣،٦٣ . رضا ١/٢٢٥. الرافعى ٢١٢ . الجندى ١٤٢/٢ . دراز ٨٢ .

(٣) الحيوان ٤ / ٨٩ . الحمصى ٥٦ . العمارى ٧٤ . سلطان ٦١ .

(٤) بيان ٥٢ ، ٦١ .

(٥) بيان ٥٢ . وانظر إعجاز الخطيب ١ / ٤٨٢ ــ ٤ .

(٦) بيان ٥٢ ، ٦٠ . وانظر أبو زهرة ٧١ .

(٧) بيان ٥٢ .

(٨) بيان ٥٢ ـ ٣ .

(٩) بيان ٥٢ .

(١٠) بيان ٥٢ ، ٦٢ . عائشة ٩١ . وانظر الباقلانى ١٥٦ ، ٢٤٦ . ابن النقيب ٥١٢ . الرافعى ١٨٠، ١٩٩ . صبيح ١٢٤ . الزرقانى ٢٣٠/٢ . الجندى ١٤٢/٢ . الحمصى ٦٠، ٤١١ . إعجاز الخطيب ٤٨٢/١ ـ ٣ . البوطى ١٥٦ . أبو زهرة ٧١ . أمين ١٤٩ . شحاتة ١٥٩ . فودة ٢٣٧ .

(١١) بيان ٥٢ ــ ٣ .

وقال فى نقد النص الأول من النصوص التى عُزيت لمسيلمة ، معلوم أنه كلام خال من كل فائدة ، لالفظه صحيح ، ولا معناه مستقيم[١] ، ولا فيه شىء من الشرائط الثلاث التى هى أركان البلاغة[٢] . وإنما تكلف هذا الكلام الغث[٣] لأجل ما فيه من السجع[٤].

وانتقل إلى النصين الرابع والخامس ، فأعلن أن كل واحد منهما — مع قصور آيه وقصر معانيه[٥] — خال من أوصاف المعارضات وشروطها[٦]. وإنما هو استراق[٧] ، واقتطاع من عرض كلام القرآن[٨] ، واحتذاء لبعض أمثلة نظومه[٩].

ثم أفرد كلا منهما بنقد مستقل . فقال عن الرابع : أول ما غلط به هذا الجاهل[١٠] أنه وضع كلمة الانتقام فى موضع الإنعام ، حين قال : ﴿ ألم تر إلى ربك كيف فعل بالحبلى ﴾ وإنما تستعمل هذه اللفظة فى العقوبات ونحوها : كقوله : ﴿ ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ﴾[١١] وكقوله : ﴿ ما يفعل الله بعذابكم ﴾[١٢] وكقوله : ﴿وتبين لكم : كيف فعلنا بهم ، وضربنا لكم الأمثال ﴾[١٣] ، وكقول القائل : فعل الله بفلان وفعل ، إذا دعا عليه . وإنما وجه الكلام مما رامه من المعنى أن يقول : (ألم تر إلى ربك كيف لطف بالحبلى ، وكيف أنعم عليها) أو نحوا من هذا الكلام الذى يجرى مجرى الامتنان والإنعام .

وأما قوله : (أخرج منها نسمة تسعى ، من بين شرا سيف وحشا) فإنما تعاطى استراقا من قول الله تعالى : ﴿ خلق من ماء دافق ، يخرج من بين الصلب والترائب﴾[١٤]. وهذا فى أول تارات الخلقة التى ذكرها الله . ثم ذكر فى آية أخرى عدد انتقالاته فى الرحم من نطفة إلى علقة إلى مضغة إلى لحم . وإنشاء خلق — بعد ذلك —

---

(١) بيان ٥١ . (٢) بيان ٥١ - ٢ ، ٦٢ . وانظر أبو زهرة ٧١ .
(٣) بيان ٥١ . وانظر الجندى ٢ / ١٤٢ .
(٤) بيان ٥١ . وانظر الرافعى ١٧٩ . الشاعر ١٠٨ . (٥) بيان ٥٣ .
(٦) بيان ٥٣/٢ . عائشة ٩١ . وانظر ابن سنان ٤ . العلوى ٣٨٥/٣ . رضا ٢٢٥/١ . الزرقانى ٢٣٠/٢. الجندى ١٤٢/٢. الحمصى ٨٤ . دراز ٨٢ . العمارى ٨٠ . شحاتة ١٥٩ ، فودة ٢٣٧ .
(٧) بيان ٥٣ ، ٦٣ . وانظر رضا ١ / ٢٢٥ . الرافعى ٢١٢ . الجندى ٢ / ١٤٢ . دراز ٨٢ .
(٨) بيان ٥٣ . (٩) بيان ٥٣ . وانظر رضا ١ / ٢٢٥ . الرافعى ٢١٢ .
(١٠) بيان ٦١ - ٤ . (١١) سورة الفيل ١ .
(١٢) سورة النساء ١٤٧ . (١٣) سورة إبراهيم ٤٥ . (١٤) سورة الطارق ٦ ، ٧ .

آخر ، وهو اجتماع الصورة ، ونفخ الروح فيها . فدل بها على عظيم قدرته ، ولطيف حكمته ، وسعة رحمته . فتبارك الله أحسن الخالقين .

وإنما تتصرف به هذه الأحوال بعد الانتقال إلى الرحم . وبين الرحم والشراسيف مسافة وحجب ... فلم يدر هذا البائس ما يقول حين جعل الولد بعد الحبل خارجا من بين الشراسيف والحشا ... فغلط فى الوصف ، وأخطأ فى المعنى[١] ، كما أبطل فى الدعوى . وتلك سبيل مقالات المتكلفين[٢]، وعاقبة دعاوى المبطلين[٣].

ثم صب سخطه وسخريته على الخامس فقال : فيقال لصاحب الفيل : يا فائل ، إلى أىٍّ؟ أين ما شرطناه من حدود البلاغة فيما جئت به من الكلام . وأين ما وصفناه من رسوم المعارضات فيما هذيت[٤] من جهلك وضلالتك ؟

افتتحت قولك بالفيل . وما الفيل ، وما أدراك بالفيل . فهوّلت وروّعت ، وصعّدت وصوّبت . ثم أخلفت ما وعدت . وأخدجت ما ولدت ، حين انقطعت ، وعلى ذكر الذنب والمشفر اقتصرت . ولو كنت تعرف شيئا من قوانين الكلام وأوضاع المنطق ورسومه ، لم تحرف القول عن جهته ، و لم تضعه فى غير موضعه . أما علمت ـ يا عاجز ـ أن مثل هذه الفاتحة إنما تجعل مقدمة لأمر عظيم الشأن ، فائت الوصف ، متناهى الغاية فى معناه ، كقول الله تعالى : ﴿ الحاقة ، ما الحاقة ، وما أدراك ما الحاقة ﴾[٥] و﴿القارعة ، ما القارعة ، وما أدراك ما القارعة ﴾[٦]. فذكر يوم القيامة ، وأتبعها من ذكر أوصافها وعظيم أهوالها ، ما لاق بالمقدمة التى أسلفها ، وصدّر الخطبة بها ، فقال : ﴿ يوم يكون الناس كالفراش المبثوث ، وتكون الجبال كالعهن المنفوش ﴾[٧] إلى آخر السورة . وأنت علقت هذا القول على دابة يدركها البصر فى مدى اللحظة ، ويحيط بمعانيها العلم فى اليسير من مدة الفكر . ثم اقتصرت من عظيم ما فيه من العجب على ذكر المشفر والذنب . فما أشبّه قولك هذا إلا بما أنشدنيه بعض شيوخنا لبعض نظرائك :

وإنـى وإنـى ثم إنـى وإننـى   إذا انقطعت نعلى جعلت لها شسعا

أين صغير ما أتيت به فى عجز كلامك من عظيم ما أصميته فى صدره ، ويسير ما رضيت به فى آخره من كثير ما أنميته فى أوله ؟

---

(١) بيان ٦٤ . (٢) بيان ٦٤ . وانظر إعجاز الخطيب ١ / ٤٨٤ .
(٣) بيان ٦٣ ـ ٤ . العمارى ٤٤ ـ ٥ .
(٤) بيان ٦٠ ـ ١ وانظر إعجاز الخطيب ١ / ٤٨٣ ، ٤٨٥ . (٥) سورة الحاقة ١ ـ ٣ .
(٦) سورة القارعة ١ ـ ٣ . (٧) سورة القارعة ٤ ـ ٥ .

وإذ قد دلّك فيالة رأيك ، وسوء اختيارك ، على معارضة القرآن العظيم ، بذكر الفيل وأوصافه فهلا أتيت منها بما هو أشفُّ قيلا وأشفى ، وأجمع لخواص نعوته وأوفى ، فتذكر ما أُعطيتْه هذه البهيمة العجماء من الذهن والفطنة التى بها تفهم سائسها ما يومىء به إليها من تدبيره . وهلاّ تعجبت وعجبت من ذلك من حسن مواتاتها وطاعتها له إذا أغراها ، وقرب ارتداعها إذا زجرها ونهاها . وهلا قرنت إلى ذكر مشفرها ذكر نابيها اللذين بهما تصول ، وبسنانهما تطعن وتجرح . وكيف أغفلت أمر أذنيها العريضتين اللتين تلحفهما وجهها ، وتذب بتحريكهما البق والذباب عن صماخيها وعينيها ، وبهما تروّح على نواحى رأسها ؟ وكيف لم تفطن لموضع التدبير من قصور رقبتها واندماج عنقها . فإنها لو طالت لم تُقِلّ [تحمل] رأسها ، ولأوهنها ثقل حمله ...

ويقال له : أرأيت لو عارضك فى قولك سفيه مثلك بالبعوض ، الذى هو خصم فيلك وَحَنفُه فى مضادة الطباع . وقد حكاه فى مناظر الخلقة من شخوص الفودين ، وانخراط الخدين ، وانسدال المشفر ، والصَّول به : فقال : « البعوض ، وما البعوض ، وما أدراك ما البعوض له مشفر عضوض ، فى الدماء يخوض ، فهو للفيل عروض » هل يكون سبيله فيما تعاطاه من السخف إلا سبيلك فيما أتيته من الجهل ؟

فإن قيل : إن البعوض ليس بعروض الفيل ، لبعد ما بينهما من التفاوت فى الجسم والجثة وما بينهما فى الضعف والقوة .

قيل : مدار الحكم فى باب التشبيه والتمثيل على المعانى دون الأعيان والأجسام . والبعوض حيوان من أوجه كالفيل ، يكسب القوت ، ويتوقى المهالك . ولذلك صار يتوارى نهارا ، ويبرز ليلا . وقد أشبه خلقة الفيل برأسه وبخرطومه وبسائر ما ذكرناه من أمره ، ثم قد زاد عليه بجناحين يطير بهما . فصار موضع نقص الجسم والجثة مجبورا بهما. فهما متساويان فى المعانى التى تجمعهما غير مفترقين فيهما[1] .

وقد أشاد د . عبد الفتاح لاشين بتعامل الخطابى مع المعارضات ، فقال : أورد ما عورض به القرآن ثم وازن بينه وبين القرآن الكريم . وقد دل بهذه الموازنة على إدراك لأسرار التعبير ، وذوق فنى مرهف لأساليب القرآن[2] .

وأضاف الباقلانى الخسة والركاكة حين قال : فأما كلام مسيلمة الكذاب وما زعم

---

(١) بيان ٦٠ ــ ٢ . العمارى ٤١ ــ ٣ .   (٢) بلاغة ٤٥١ .

أنه قرآن ، فهو أخس[١] من أن نشتغل به ، وأسخف من أن نفكر فيه . وإنما نقلنا منه طرفا ليتعجب القارئ ، وليتبصر الناظر . فإنه على سخافته — قد أضلّ ، وعلى ركاكته[٢] قد أزلّ ، ومن كان له عقل لم يشتبه عليه سخف هذا الكلام[٣].

ثم وصف هذا (القرآن) بأنه من الباب الذى يُهزأ به[٤] ، ويُسخَر منه[٥] كشعر أبى العَنْبس محمد بن إسحاق (٢٧٥/٨٨٨) وشعر على بن صَلاءة ، فى جملة الشعر[٦] .

ووصفه عبد الله بن محمد المعروف بابن سنان الخفاجى (٤٢٣-٤٦٦/١٠٣٢-١٠٧٣) بالخلو من الفصاحة[٧] .

وقصر الجرجانى حديثه على النصين ٩، ١٢ ووصمهما بالحماقة[٨] .

كذلك اقتصر عليهما محمد بن سليمان البلخى المعروف بابن النقيب (٦١١—٦٩٨/ ١٢١٤ - ١٢٩٨) ووصمهما بالفظاظة[٩] والركاكة التى بلغت الغاية .

ورمى العلوى كلام مسيلمة بالخلاعة والحطة ، فى قوله : أما ما يحكى عن مسيلمة الكذاب فهو بالخلاعة[١٠] أحق منه بالمعارضة ، لنزول قدره[١١] وتمكنه فى الحماقة .

ووصف محمد بن يوسف المعروف بأبى حيان النحوى (٦٥٤ — ٧٤٥ / ١٢٥٦ — ١٣٤٤) ما أتى به مسيلمة بالهذر[١٢]؛ ومحمد رشيد رضا بالخزى والتقليد أو النقل ، فهو إذن ضرب من الاقتباس مع التصرف[١٣].

---

(١) إعجاز ١٥٦ .

(٢) إعجاز ١٥٨ . أبو زهرة ٧١ . وانظر المغنى ٢٥٣/١٦ . الماوردى ٧١ . ابن النقيب ٥١٢ . العلوى ٣٨٣/٣ . الزرقانى ٢٣٠/٢ . العمارى ٣٨. إعجاز الخطيب ٤٨٢/١. فقيهى ٢٠ .

(٣) إعجاز ١٥٦ . أبو زهرة ٧١ .

(٤) إعجاز ٢٤٦ . وانظر ابن الجوزى ٤٠٤ . إعجاز الخطيب ١ / ٤٨٢ ، ٤٨٤ .

(٥) إعجاز ٢٤٦ . وانظر الرافعى ١٩٩ . دراز ٨٢ . إعجاز الخطيب ١ / ٤٨٢ ، ٤٨٤ . أبو زهرة ٧١ .

(٦) إعجاز ٢٤٦ .

(٧) سر ٤ . الحمصى ٨٤ . وانظر الرافعى ٢١٣ .

(٨) دلائل ٣٨٧ . وانظر ابن النقيب ٥١٢ . العلوى ٣٨٥/٣ . الإيجى ٢٤٦/٨ . الزركشى ٩٣/٢ . الرافعى ١٧٩، ١٩١، ١٩٩. الجندى ١٤٣/٢. أبو زهرة ٧١. أمين ١٤٩. الشاعر ١٠٨ .

(٩) مقدمة ٥١٢ .

(١٠) الطراز ٣ / ٣٨٥ .

(١١) الطراز ٣ / ٣٨٥ . وانظر ٣ / ٣٨٣ .

(١٢) البحر ١ / ١٠٦ . وانظر الزرقانى ٢ / ٢٣٠ . إعجاز الخطيب ١ / ٤٨٢ . شحاتة ١٥٩ .

(١٣) المنار ١ / ١٦٧ ، ٢٢٥ .

وأعلن مصطفى صادق الرافعى ذات مرة أن مسيلمة عارض بما أتى أوزان القرآن فى تراكيبه[١]، وفى أخرى : لما حاول مسيلمة أن يعارض القرآن جعل يطبع على قالبه . فجاء بشيء لا يشبهه ، ولا يشبه كلام نفسه[٢] . وجنح إلى أقرب ما فى الطباع الإنسانية ، وأقوى ما فى أوهام العرب من طرق السجع . فأخطأ الفصاحة من كل جهاتها[٣].

وبرر جنوحه إلى السجع فى أكثر ما قال بأنه كان يحسب النبوة ضربا من الكهانة ، فسجع كما يسجعون ، وقد مضى العرب على أن يسمعوا للكهان ويطيعوا . ووقر ذلك فى أنفسهم واستناموا إليه ، و لم يجدوا كلام الكهان إلا سجعا . فكانت هذه بعض ما استدرجهم به مسيلمة ، وتأتى إلى أنفسهم منها[٤].

كما وصف كلامه بالخطل[٥] أيضا ، وبأنه كله واه سخيف ، لا ينهض ولا يتماسك، مضطرب النسج ، مبتذل المعنى ، مستهلك من جهتيه[٦] . وما كان الرجل من السخف بحيث ترى ، ولا من الجهل بمعانى الكلام ، وسوء البصر بمواضعه . بل إنه — على ذلك — لفصيح[٧] .

و لم يقف الرافعى عند هذا الحد ، بل استمر فوصف الرجل بالسفاهة[٨] ، وكلامه بالخرافات[٩] .

وذهب إلى أنه لم يُرد أن يعرض للقرآن من ناحية الصناعة البيانية .. وإنما أراد أن يتخذ سبيله إلى استهواء قومه من ناحية أخرى باطنها أهون عليه ، وأقرب تأثيرا فى نفوسهم . ذلك أنه رأى العرب تعظم الكهان فى الجاهلية . وكانت عامة أساليب الكهان من هذا السجع القلق الذى يزعمون أنه من كلام الجن — فجعل يطبع مثل هذه الأسجاع فى محاكاة القرآن ، ليوهمهم أنه يوحى إليه كما يوحى إلى محمد ، كأنما النبوة والكهانة ضرب واحد[١٠].

وأخيرا عاب الرافعى مسيلمة أيضا بأن « قرآنه كان فصولا وجُملا ، بعضها

---

(١) إعجاز ١٧٩ ، ١٩٩ . أمين ١٤٩ . الشاعر ١٠٨ . وانظر دراز ٨٢ .

(٢) إعجاز ٢١٢ . وانظر دراز ٨٢ . العمارى ٣٦ . البوطى ١٥٥ .

(٣) إعجاز ٢١٢ - ٣ .

(٤) إعجاز ١٧٩ ، ٢١٣ . أمين ١٤٩ . الشاعر ١٠٨ .

(٥) إعجاز ١٩٩ .

(٦) إعجاز ١٨٠ . وأورده أمين ١٤٩ دون أن يعزوه .

(٧) إعجاز ٢١٣ .

(٨) إعجاز ١٩٩ .

(٩) إعجاز ٢٢٤ .

(١٠) الزرقانى ٢/٢٣٠ . دراز ٨٢ - ٣ . أمين ١٤٩ . شحاتة ١٥٩ .

مما يُرسله، وبعضها مما يترسل به فى أمر إن عرض له ، وحادثة إن اتفقت ، ورأى إذا سئل فيه »[١] .

وواضح أن هذا الوصف لا يعيب كلام مسيلمة فى شىء ، بل إنه ينطبق على القرآن نفسه .

وحكم محمد عبد العظيم الزرقانى على التاسع من نصوص مسيلمة بالخسف ، والثانى عشر بالهذر . وقال : أنت خبير بأن مثل ذلك الإسفاف[٢] ليس من المعارضة فى قليل ولا كثير . وأين محاكاة الببغاء من فصاحة الإنسان ؟ وأين هذه الكلمات السوقية الركيكة من ألفاظ القرآن الرفيعة ومعانيه العالية ؟ [٣] .

وأطلق د . على الجندى على كلام مسيلمة عدة عيوب ، إذ قال : فسجع مسيلمة أحسن ما فيه سرق من القرآن الكريم . وسائره سخيف مقيت[٤] مضحك[٥] . اجتلبت ألفاظه لذاتها لا لمعناها . ووضعت فى غير مواضعها[٦].

وعلق على نصيه ١١ و ١٢ فقال : الإبل أولى بالذكر من الكباش والنعاج ، لمنزلتها السنية عند العرب . وكان يُغنى عن ذكر الكباش والنعاج كلمة الغنم . والفضة أحق أن تُقرن بالذهب لا بالزجاج . والزُّؤان — وهو ما يخالط القمح — لا يعد نعمة حتى يُذكر فى معرض الامتنان مع الرمان والعنب والريحان .

ولا يقل عنه حطة[٧] وإسفافا ما عارض به هذا الأحمق سورة الكوثر[٨] .

ووصف محمد حنيف فقيهى كلامه بالتفاهة[٩] .

وصرح د . محمد عبد الله دراز بأن مسيلمة ما صنع شيئا إلا أنه كان يعمد إلى آى من القرآن ، فيسرق أكثر ألفاظها . ويبدل بعضا ، أو يجىء على موازين كلمات القرآن بألفاظ سوقية ، ومعان سوقية . بل نزل إلى حد الإسفاف . وأتى العبث الذى يأتيه الصبيان فى مداعبتهم وتفكههم بقلب الأشعار والأغانى عن وجهها . ولا يخفى أن هذا كله ليس من المعارضة فى شىء ، بل هو المحاكاة والإفساد . وما مثله إلا كمن يستبدل

---

(١) إعجاز ١٧٩ . أمين ١٤٩ . الشاعر ١٠٨ .

(٢) مناهل ٢ / ٢٣٠ . وأتى به شحاتة دون عزو ١٥٩ . وانظر الجندى ٢ / ١٤٣ . دراز ٨٢ . أبو زهرة ٧١ . عائشة ٩١ .

(٣) مناهل ٢ / ٢٣٠ . وأتى به شحاتة ١٥٩ دون عزو . دراز ٨٢ . فودة ٢٣٧ .

(٤) صور ٢ / ١٤٢ . (٥) صور ٢ / ١٤٢ . وانظر البوطى ١٥٦ .

(٦ و٧) صور ٢ / ١٤٢ . (٨) صور ٢/١٤٢ — ٣ . (٩) نظرية ٢٠ .

بالإنسان تمثالا لا روح فيه ، وهو — على ذلك — تمثال ليس فيه شيء من جمال الفن[١] .

وعاب على العمارى أسانيد أخبار مسيلمة ومتون بعضها ، فقال : روى هذه المعارضة ابن إسحاق عن شيخ من بنى حنيفة . ورواها الطبرى عن جابر عن فلان . وكل ذلك مما يحمل على الاعتقاد بأنها موضوعة .

وقد جاء فى رسالة الخطابى رواية المعارضات عن سعيد بن نشيط ، وهو متهم . قال أحمد بن على المعروف بابن حجر العسقلانى (٧٧٣ — ٨٥٢ / ١٣٧٢ — ١٤٤٩) فى «تهذيب التهذيب » عن سعيد هذا : شيخ ابن لهيعة ، لا يعرف ، مجهول ، ذكره ابن حبان فى ذيل الضعفاء . وقال : لا يصح[٢] .

وفى القصة ـ مع تسليمنا جدلا بورودها ـ أمران :

الأول : أن عمرا لم يذكر أن مسيلمة كان يعارض القرآن بكلامه هذا ، وإنما هو كلام قاله على حد ما يفعل الكهان[٣].

الثانى : قول مسيلمة : « أرسلت فى المحقرات » لا يتفق مع ما هو مشهور من أن مسيلمة كتب إلى النبى يقول : إن لنا نصف الأرض ، ولقريش نصفها ، وأنه جعل يعفى أتباعه ـ بل وأتباع سجاح التميمية — من بعض التكاليف الإسلامية[٤].

وقد تنبه إلى ضعف الرواية بعض العلماء الذين عاشوا فى قرننا هذا ، وإن لم يبينوا لنا وجه الضعف[٥].

ومن الدلائل على أن هذه المعارضات من مختلقات الرواة أن بعضها يعزى إلى أكثر من واحد[٦].

ومما لا يدع — عندى ـ مجالا للشك فى أن هذه المعارضات من تفكهات الظرفاء هذه القصة الخليعة التى نسجها الرواة حول التقاء مسيلمة بسجاح . فقد أطلق الرواة لخيالهم العنان ، فنسجوا قصة لم يقصد منها إلا الحط من هذين المتنبئين ، وإلا الترويح عن نفوس القارئين لأخبارهما[٧].

ونقد التاسع من نصوصه فوقف عند الاستقصاء الذى — قال — لا يعرفه إلا أهل الصناعة من محترفى الكتابة . أما العربى الأول فما أظن أن يبلغ به التتبع والاستقصاء هذا الحد الذى نراه فى هذه المعارضة . فيبتدئ ببذر الزرع ، وينتهى بلقم الثريد . وما بقى عليه إلا أن يختم عبثه بالخاتمة الطبيعية لهذا الترتيب .

---

(١) انبأ ٨٢ . (٢) حول ٣٠ . (٣) حول ٣١ .
(٤) حول ٣١ . وانظر إعجاز الخطيب ١ / ٤٨٤ . (٥) حول ٣٢ .
(٦) حول ٣٢ . (٧) حول ٣٢ ـ ٣ وانظر إعجاز الخطيب ١ / ٤٨٤ .

وطبيعة العربى تميل ميلا شديدا إلى الإيجاز . وما كان يخفَى على مسيلمة سر قوة الكلام وضرورة حذف الفضول ، طبعا ونحيزة[١] .

وقد وجدت فى كتب التاريخ والسير كلمات لمسيلمة ـ غير ما عارض به القرآن ـ كلها موجزة غاية الإيجاز ، مع قوة وفصاحة .

الأولى : قوله لسجاح حين اجتمعت به : هل لك أن أتزوجك فآكل بقومى وقومك العرب ؟ فهذه الكلمة تدل على مكان الرجل من الفصاحة وسعة الحيلة ، وحسن البصر بالأمور ، وجميل التأتى لما يريد . وهل أوقع فى نفس سجاح ، وأكثر تأثيرا فى نفوس قومها من أن يخيل لها أنه سيأكل بقومه وقومها العرب ؟ وهل كانت تقصد سجاح غير هذا ؟ وهل كان يقصد من اتبعوها إلا أكل العرب والاستيلاء عليهم ؟

وأتى بكلمتين أخريين لمسيلمة أجرى عليهما التحليل نفسه[٢].

ثم انتقل العمارى إلى النقد الساخر لعدد من النصوص فقال : المعارضة الثامنة فيها تكرار لا مبرر له . فقد أقسم بالشاء وألوانها ثم بالشاة السوداء ، وكذلك أقسم بالألبان ثم باللبن الأبيض . وربما تحذلق بعض العارفين فقال : إن القسم بالشاة السوداء تخصيص بعد تعميم، وكذلك اللبن الأبيض .. ولو عجبت من وصف اللبن بالأبيض ، لقال لك من يجد لكل سؤال جوابه : إنه نعت كاشف . ولكن للتخصيص بعد التعميم فى كلام العربى الصميم مغزى ، وللنعت الكاشف سر ، ولا أرى هنا مغزى ولا سرا .

أما الكلمة الأخيرة فهى أشبه بأن تكون موضع الفكاهة ، أو مركز الدائرة من السورة!

فما خطب المجع ؟ وكيف عزف قوم مسيلمة عنه وتركوه ، حتى جعل يتعجب فى حسرة من تركهم إياه ، ويقسم بأشد الأيمان غلظا على أنه لا عيب فيه ؟ وماذا ينقص نبوته أن يترك قومه المجع ؟ .

إن المجع هو أكل التمر ثم شرب اللبن عليه ، أو عجين التمر باللبن . وهو طعام ما أظن العرب تركوه ، وقد أمكنهم . وهو ـ ولا شك ـ أفضل من المذق (خلط اللبن بالماء) فكيف اعتلت طبائع هؤلاء الناس وانحرفت أمزجتهم ، فحرموا المجع ، وحللوا المذق، فجاء مسيلمة برسالته ليردهم عن هذا الوضع المقلوب ؟ ! ولا غرو ، فالرجل ـ كما يقول ـ أُرسل فى محقرات الأمور .

---

(١) حول ٣٦ .　　(٢) حول ٣٦ - ٧ .

ولكن كيف يعفى أتباعه من تعاليم الإسلام ، ويحرم عليهم خلط اللبن بالماء ويشغل باله هذا التحريم حتى يوحى إليه فيه بقرآن ، يبتدئ بالقسم ، وينتهى بهذا الحكم العظيم ؟ !

وإذا كانت المعارضة السابقة تدرجت إلى أمر عظيم ، وجاءت مؤكدة أن قوم مسيلمة فُضلوا على أهل الوبر والمدر ، فإن المعارضة الثامنة تدرجت إلى أمر عظيم أيضا ، وهو تحريم المذق ، وتحليل المجع[1] .

وقال عن النص الخامس : أحسن مسيلمة حين جمع بين القول فى الضفدع والقول فى الفيل . وكيف لا ، وأحدهما بحرى والآخر برى ، وأحدهما حيوان ضخم كبير والآخر صغير لا يكدر ماء ولا يمنع شاربا ؟ والعجب من هذا النبى الذى يقول فى الفيل، وقد وصف نفسه بأنه أرسل فى محقرات الأمور ، كأن الفيل شىء تافه صغير ، وإن قال هو غير ذلك حين أعلن أنه ليس من خلق ربنا بقليل[2].

وعقب على النص السادس قائلا : لا أدرى لماذا اقتصر الوحى فى حضرة سجاح على ما يتعلق بالزواج والنكاح والحمل والوضع ؟

وهل يمكن أن نفهم من كلمة (أشهد أنك نبى) بعد أن قرأ لها وحيه الواصف لما يكون بين الرجل والمرأة ، أن الرواة لم يقصدوا إلا إلى السخرية والتهكم ، وإظهار طبيعة المرأة الغالبة عليها حتى فى أحرج الأوقات ، وأكثرها حاجة إلى الجد والصرامة ؟

فهل كان مسيلمة عابثا ، وهو يدفع الآلاف المؤلفة من قومه إلى أتون الحرب ؟

وهل كانت سجاح عابثة ، كل همها أن تجد رجلا يتزوجها ؟

لعلها لم تجد فى قومها كفئالها ، فبحثت عن مسيلمة حتى وجدت كفئها ! إن الوضع جد ظاهر فى كل ما يتصل بأمر اجتماع هذين المتنبئين . وهو يرشد إلى الوضع فى بقية المعارضات[3].

وختم العمارى حديثه عن مسيلمة بقوله : ومن هنا نستطيع أن نقول ـ ونحن فى غاية الاطمئنان ـ : إن هذه الكلمات لم يقلها مسيلمة ولا غيره ، من الأعراب الأقحاح ، وإنها لم توضع ليعارض بها القرآن ، وإنما وضعت للتفكهة والسمر[4]. وكان من تمام ذلك أن تنسب إلى بعض المتنبئين .

---

(١) حول ٣٩ ـ ٤١ .　　(٢) حول ٤١ .　　(٣) حول ٤٤ .

(٤) حول ٤٥ . وانظر الحمصى ٢٧ . إعجاز الخطيب ١ / ٤٨٤ .

ولا نستبعد أن بعضها وُضع لغاية دينية فى أوهام الذين وضعوها . كأنهم كانوا يظنون أن نزول هذه المفتريات عن درجة البلاغة مما يؤكد إعجاز القرآن مع أن ثبوت الإعجاز القرآنى ليس فى حاجة إلى مثل هذا ، بعد ما سكت فحول البلاغة عن معارضته. فلزمت الحجة ، ووضح الدليل[١] .

وشارك عبد الكريم الخطيب الشاكّين فى كلام مسيلمة ، فأعلن فيما نسب إليه أنه لا يمكن أن يكون كلام عربى يعرف لسان قومه سليقة وطبعا . إذ هو كلام ركيك سخيف، لا يصدر عن عربى لم تُفسد لسانَه العُجمة كمسيلمة وقومه[٢].

وإنما الذى يُردّ إليه هذا الكلام هو الإمعان فى الهزء والسخرية بهذا « النبى »[٣] بنسبة هذا السخف إليه ، وجعله قرآنه الذى أُوحى إليه من شيطانه أو شياطينه .

وقد يكون لمسيلمة معارضة للقرآن ، غير هذا الهذر السمج . ولكنها ـ مع هذا ـ كلام لا يقوم للقرآن . فأسقطها مسيلمة نفسه ، قبل أن تسقط هى من حساب التاريخ[٤] .

ثم قارن بينها وبين كلمات لقُسّ بن ساعدة الإيادى (نحو ٢٣ ق . هـ . / ٦٠٠) وخلص من المقارنة إلى أن كلام قس كلام تُشَم من ريحه نفحة نبوة وريح نبى ، ثمرة من ثمار البلاغة العربية الطيبة الناضجة ؛ وإلى أن السخف الذى ينسب لمسيلمة ما هو من هذا الكلام فى شىء ، إنه عبث عابث[٥] ، وهذيان مجنون[٦].

ورمى الخبر المنسوب إلى ابن العاص بأن الصنعة والتعمل والعبث كلها واضحة فيه ، وأنه كذب وتلفيق[٧].

فلم يكن مسيلمة بالذى يرى نفسه أنه دون محمد شأنا ، وقد بعَث إلى النبى فى حياته كتابا قال فيه : أنا شريكك فى الأمر ، فلنا نصف الأرض ، ولكم نصفها ... وهذا خبر ثابت موثّق ـ فكيف يرضى مسيلمة لنفسه أن يكون نبيا إلى الضفادع والسحالى والسنانير .

ثم لقد أبى واضع هذه القصة إلا أن ينسب إلى مسيلمة الجهل بلغة قومه فيخطىء فى إعرابها ، كما فى كلمة « يابس » وهى واقعة حالا يجب نصبها .

ولا نحسب أن مسيلمة ـ وهو عربى صميم له ما للعرب من بلاغة وفصاحة — يرضى

---

(١) حول ٤٥ .
(٢) إعجاز ١ / ٤٨٢ .
(٣) إعجاز ١ / ٤٨٢ ، ٤٨٤ .
(٤) إعجازه ١ / ٤٨٢ .
(٥) إعجازه ١/٤٨٣ — ٤ .
(٦) إعجازه ١/٤٨٣ .
(٧) إعجازه ١/٤٨٤ .

لذوقه العربى أن يَهْرف بمثل هذا الساقط المرذول من الكلام ، بل نحسب أنه لم يحاول أبدا أن يكون له قرآن ، وأن الذى أفحم قريشا وأعجزها ... هو الذى أفحم مسيلمة وأعجزه.. فلم يقل شيئا يجعله قرآنا له .

والذى نظنه - بل ونكاد نستيقنه - أن الذين أرادوا أن يهزءوا بمسيلمة ، ويسخروا منه، ويشوهوا وجهه ، ويلطخوه بالسواد — على ما شوهه الكذب ، ولطخه الادعاء - هؤلاء قد عمدوا إلى هذا العبث من القول ، فنسبوه إليه ، وعلقوه برقبته ، ليزداد به خزيا وسخرية ، على الدهر ، وليكون حديثا يسمر به السمار ، فى معرض السخرية والاستهزاء بكل ذى صفة تجره إلى مجالس الساخرين المستهزئين .

ولا نقول هذا فى مسيلمة وحده ، بل ذلك هو رأينا فى كل معارضة للقرآن نُسبت إلى غيره ، وجىء لها بشاهد من مثل هذا الكلام المرذول المعطوب[1] .

وغلا محمد أبو زهرة فوصف النص رقم ٢ بأنه ليس جديرا بأن يسمى كلاما[2]، فضلا عن أن يكون له فصاحة أو بلاغة أو أى نوع من الإدراك البيانى[3]. ووصف جملة كلامه بأنها لغو من القول[4].

ووصفته د . عائشة عبد الرحمن بالسقم[5]. ود. محمد محمد أبوسى بالمخاريق[6].

وفى نقد « جملة المعارضات » نقد كثير يحس القارئ أنه موجه إلى مسيلمة أولا ثم بقية شركائه .

المعلقات

يقطع الباقلانى بأن العرب لم يلجؤوا إلى التراث العربى الجاهلى فى معارضة القرآن , فقد صرح - وهو يرد على القائلين بأن إعجاز القرآن اعتمد على صرف العرب عن محاولة معارضته - فقال : لو كان قَبيل القرآن مقدورا للعباد ، لكان قد اتفق — إلى وقت مَبْعثه - من هذا القبيل ، ما كان يمكنهم أن يعارضوه به ، وكانوا لا يفتقرون إلى تكلف وَضْعه ، وتَعمُّل نظمه فى الحال .

---

(١) إعجازه ١ / ٤٨٤ .
(٢) المعجزة ٧١ .
(٣) المعجزة ٧١ ، ٧٣ .
(٤) المعجزة ٧٣ .
(٥) الإعجاز ٩١ .
(٦) الإعجاز ٢٩ .

فلما لم نرهم احتجوا عليه بكلام سابق ، وخطبة متقدمة ، ورسالة سالفة ، ونظم بديع، ولا عارضوه به ، فقالوا : هذا أفصح مما جئت به وأغرب منه أو هو مثله ؛ عُلم أنه لم يكن إلى ذلك سبيل ، وأنه لم يوجد له نظير .

ولو كان وُجد له مِثْل لكان يُنقَل إلينا ولعرفناه ، كما نُقل إلينا أشعار أهل الجاهلية ، وكلام الفصحاء والحكماء من العرب ، وأُدِّى إلينا كلام الكهان وأهل الرجز والسجع والقصيد ، وغير ذلك من أنواع بلاغاتهم ، وصنوف فصاحاتهم[١] .

وأكد ذلك فى موضع آخر فقال : لو كان القرآن غير خارج عن العادة لأتوا بمثله ، أو عرضوا عليه من كلام فصحائهم وبلغائهم ، ما يعارضه[٢].

وسار عبد الجبار الأسدآبادى فى الدرب نفسه ، فقال : لو كان الأمر كذلك ، لكان لا أقلّ من أن يحتجوا بذلك عليه فيقولوا : ما الذى يُحْوجنا إلى المعارضة فى هذا الأمر ، ونحن ــ دائما ــ نورد مثله ، وكلام العرب أجمع مساوٍله .

وعِلمُنا بخلاف ذلك يُبطل هذا القول . وإلا فكَيف تضيق صدور كبارهم فى الفصاحة عند القرآن ، كالوليد بن المغيرة والنضرين الحارث ولبيد بن ربيعة (٤١ / ٦٦١) وغيرهم ، ممن رُوى عنه إعظام شأن القرآن . وكيف يجوز ـ فى مثل ذلك ــ أن يعتقد الجمع العظيم ــ عصرا بعد عصر ـ أنه متميز من كلامهم ؟ [٣].

ولو صح ما قالوا ، لوجب أن يزيلوا الشبهة بتجديد المعارضة ، لأن واحدا من الناس: لو جعل دلالة نبوته أن يخطب خطبة طويلة ، وصار له بتكريرها حالا بعد حال طائفة متعصبة ، ونشأ ـ فى ذلك ـ الفتنة ، لوجب على أهل البصر أن يجددوا معارضة ذلك إذا كان ممكنا ، لأنه فى إزالة التمويه والشُبه أقرب من التعلق بذكر الخطب الماضية ، لأن للشاهد والحاضر مزية[٤].

وسار فى الركاب عبد القاهر الجرجانى حين قال : كان العرب ــ كما لا يَخْفى ــ يروون أشعار الجاهليين وخطبهم ، ويعرفون مقاديرهم فى الفصاحة معرفة من لا تُشْكل جهات الفضل عليه . فلو كانوا يرون فيما رووا وحفظوا مزية على القرآن ، أو رأوه قريبا منه ، أو بحيث يجوز أن يُعارض بمثله ، أو يقع ـ إذا قاسوا أو وازنوا ــ أن هذا الذى

---

(١) إعجاز ٢٤ . (٢) إعجاز ٢٨٨ . وانظر إعجاز الخطيب ٢ / ١٨ .
(٣) المغنى ١٦ / ٢٥٧ ـ ٨ . (٤) المغنى ١٦ / ٢٥٨ .

تُحدُوا إلى معارضته : لوتُحُدى إليه من قبلهم لا ستطاعوا أن يأتوا بمثله ؛ لكانوا يَدّعون ذلك ويذكرُونه . ولو ذكروه لُذكِر عنهم .

ومُحالٌ - إذا رجعنا إلى أنفسنا واستشففنا حال الناس فيما جُبلوا عليه - أن يكونوا قد عرفوه لما تُحُدوا إليه وقُرِّعوا بالعجز عنه شِبْهها ونظما ، ثم يُتلى عليهم ﴿ قل : لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ﴾ فلا يزيدون - فى جوابه - على الصمت ، ولا يقولون : لقد روينا — لمن تقدم - ما علمتَ وعلمنا أنه لا يَقْصُر عما أتيت به ، فمن أين استجزْتَ أن تدعى هذه الدعوى ؟

فإذا كان من المعلوم ضرورة أنهم لم يقولوا ذلك ، ولا رأوا أن يقولوه ، ولا على سبيل الدفع والتلبيس والتشغّب بالباطل ، بل كانوا بين أمرين :

إما أن يُخبروا عن أنفسهم بالعجز والقصور ، وذلك حين يخلو بعضهم ببعض ويكون الحال حال تصادق .

وإما أن يتعلقوا بمالا يتعلق به إلا من أعوزته الحيلة ، ومن فُلَّ [غُلب] بالحجة ، من نسبته إلى السحر تارة ، وإلى أنه مأخوذ من فلان وفلان أخرى ...

ثبت أنهم قد علموا أن صورة أولئك الأوائل صورتهم ، وأن التقدير فيهم أنهم لو كانوا فى زمان النبى — ﷺ — ثم تُحدوا إلى معارضته ، لكان حالهم فى مثل حال هؤلاء الكائنين فى زمانه .

وإذا كان هذا هكذا ، فقد انتفى الشك ، وحصل اليقين الذى تسكن معه النفس ، ويطمئن عنده القلب . وأنه معجز ناقض للعادة ، وأنه فى معنى قلب العصاحية ، وإحياء الموتى ، فى ظهور الحجة به على الخلق كافة[1] .

ونجد الرأى نفسه عند ابن النقيب مع زيادة ، إذ قال : لو كان كلامهم مقاربا فى الفصاحة - قبل التحدى - لفصاحة القرآن ، لوجب أن يعارضوه بذلك ؛ ولكان الفرق بين كلامهم بعد التحدى وكلامهم قبله كالفرق بين كلامهم بعد التحدى وبين القرآن . ولما لم يكن كذلك بطل ذلك[2].

ورفض العلوى أن تعد المعلقات معارضة للقرآن ، لأن كل عاقل يعلم بالضرورة أن

---

(١) الشافية ٥٨٧ - ٩ . سلطان ٢٣٣ - ٤ .

(٢) مقدمة ٥٢٠ .

هذه القصائد ليس بينها وبين القرآن مقارنة ولا مداناة بحيث يشتبه أحدهما بالآخر . وكيف لا وهذه القصائد من فن الشعر ، والقرآن ليس من فنون الشعر فى وِرْد ولا صَدَر. فلا يجوز كونها معارضة له[١] .

وواضح أننا إذا استبعدنا قول العلوى ، وجدنا بقية الأقوال كلها تدور حول الفكرة التى ذكرها الباقلانى ، وقال فيها إن العرب لو كانوا قد ظنوا أن تراثهم الجاهلى يعادل القرآن لتقدموا به للمعارضة . ولما كنا لم نسمع بمثل هذا كانت النتيجة الطبيعية أنهم لم يفعلوا ، لأنهم لم يذهبوا إلى هذا الظن .

معارضة ابن المقفع

ونقد الباقلانى خبر معارضة ابن المقفع ، فقال : ادعى قوم أن ابن المقفع عارض القرآن. وإنما فزعوا إلى الدرة واليتيمة . وهما كتابان :

أحدهما يتضمن حِكَما منقولة ، توجد عند حكماء كل أمة مذكورة بالفضل . فليس فيها شىء بديع من لفظ ولا معنى . [وهو] منسوخ من كتاب بُزُرْ جمهر فى الحكمة . فأىّ صُنْع لابن المقفع فى ذلك ؟ وأى فضيلة حازها فيما جاء به ؟

والكتاب الآخر فى شىء من الديانات . وقد تهوَّس فيه بما لا يخفى على متأمِّل . [٢]

واكتفى الزركشى فى الرد بأن ابن المقفع إنما وضع حِكَما[٣] .

وشك الرافعى فى صحة هذا الخبر ، وساق أن المصنفين فى كتب البلاغة من المتأخرين، بعد القرن الخامس ، يتناقلون عبارة غفل عنها من قبلهم ، وأراد بها خبر تمزيق ابن المقفع لما كتب عند ما سمع الآية التى ذكروها . وعلق على الخبر قائلا : هذه الآية فى سورة هود ، فكأن ابن المقفع عارض السور الطوال حتى انتهى إليها . وهو شىء لم يزعمه الملحدة أنفسهم ، إذ قالوا : إن المعارضة كانت بالدرة اليتيمة ، وهى أوراق قليلة .

ولهذا رأينا أهل التدقيق — إذا ساقوا هذا الخبر فى كتبهم — قالوا : إن ابن المقفع سمع صبيا يقرأ الآية فترك المعارضة .

---

(١) الطراز ٢ / ٣٨٥ . الحمصى ١٣٢ . وانظر الرافعى ١٨٦ . الحمصى ٦٧ .

(٢) إعجاز ٣٢ . وانظر العلوى ٣/ ٣٨٤ . الرافعى ١٨٤ . صقر ٦٩ . الحمصى ٧٥ ، ١٣٢ . ضيف ١٠٨ . أمين ١٥٠ . فودة ٢٣٧ .

(٣) البرهان ٢ / ٩٥ .

وذهب عن هؤلاء المدققين أن مثل ذلك البليغ ، لا يأخذ فى معارضة القرآن إلا وقد قرأه وتأمله ، ومر بهذه الآية فيه ، ووقف عندها متحيرا . فليس يحتاج إلى صبى يسمعها منه ، ليترك ما أخذ فيه ، إن كان إبطال المعارضة موقوفا على سماع هذه الآية[1] .

كذلك رفض الخبر المجمل القائل إنه اشتغل بالمعارضة ثم مزق ما جمع واستحيا لنفسه من إظهاره . وقال : هذا عندنا إنما هو تصحيح من بعض العلماء لما تزعمه الملحدة من أن كتاب « الدرة اليتيمة » هو فى معارضة القرآن . فكأن الكذب لا يُدفع إلا بالكذب ، فإذا قال هؤلاء : إن الرجل قد عارض ، وأظهر كلامه ثقة منه بقوته وفصاحته ، وأنه — فى ذلك — من وزن القرآن وطبقته ، قال أولئك : بل عارض ومزق واستحيا .

أما نحن فنقول : إن الروايتين مكذوبتان جميعا ، وإن ابن المقفع من أبصر الناس باستحالة المعارضة ، لا لشىء من الأشياء إلا لأنه من أبلغ الناس .

وإذا قيل لك : إن فلانا يزعم إمكان المعارضة ، ويحتج لذلك وينازع فيه ، فاعلم أن فلانا هذا — فى الصناعة — أحد رجلين اثنين : إما جاهل يَصْدق فى نفسه ، وإما عالم يكذب على الناس . ولن يكون ثالث ثلاثة .

وإنما نسبت المعارضة لابن المقفع دون غيره من بلغاء الناس ، لأن فتنة الفرق الملحدة إنما كانت بعده ، وكان البلغاء كافة لا يمترون فى إعجاز القرآن . وإن اختلفوا فى وجه إعجازه . ثم كان ابن المقفع متهما عند الناس فى دينه . فدفع بعضُ ذلك إلى بعض وتهيأت النسبة من الجملة .

ولو كانت الزندقة فاشية أيام عبد الحميد بن يحيى الكاتب (١٣٢ / ٧٥٠) ، وكان متهما بها أو كان له عرق فى المجوسية — لما أَخْلته إحدى الروايات من زعم المعارضة ، لا لأنه زنديق ، ولكن لأنه بليغ [2] يصلح دليلا للزنادقة[3] .

وأفرد حديثا خاصا لكتاب الدرة اليتيمة ذهب فيه إلى أنه من الرسائل الممتعة ، يُعَد طبقة من طبقات البلاغة العربية . ولكنه فى المعارضة ليس هناك ، لا قصدا ولا مقاربة . ونحن لا نرى فيه شيئا لا يمكن أن يؤتى بأحسن منه . وماكل ممتع ممتنع .

---

(١) إعجاز ١٨٤ . الحمصى ٤٨ — ٩ . وانظر الزرقانى ٢ / ٢٣١ .

(٢) إعجاز ١٨٤ — ٥ . صبيح ١٢٨ . البوطى ١٥٦ . أمين ٥٠ . الشاعر ١٠٩ .

(٣) إعجاز ١٨٤ — ٥ . وانظر الحمصى ٥٠ .

وأورد قول الباقلانى بأنه منسوخ من بزرجمهر ، وعلق عليه بأنه هو الرأى . فإن ابن المقفع لم يكن إلا مترجما ، ينحط إذا كتب ، ويعلو إذا ترجم ، لأنه له — فى الأولى — عقله، وفى الثانية كل العقول . وأضاف أن فى اليتيمة عبارات وأساليب مسروقة من كلام الإمام على[١] .

وشك محمد أبو زهرة فى صحة الخبر . وذهب إلى أن الزنادقة سعوا إلى هدم الإسلام. فكان أقصى ما استطاعوا أن يفعلوه هو أن يدَّعوا أن ابن المقفع اتجه إلى أن يكتب كتابا يعارض به القرآن . وهو ـ إن صح كلامهم فيه ـ يدل على أنه نوى و لم يفعل . ولو فعل لنظرنا إلى ما أتى به . وإننا نشك فى أصل صحته ، ولكنهم يريدون أن يثيروا الغبار ، والغبار قد يُعشى الأعين المريضة . وإن كان ابن المقفع أراد هذا ، فهو دليل على حمقه ، ويثبت زندقته التى اتهم بها ، وأنه أشاع ذلك توهينا ، وإن علم أن المحاولة فوق طاقة البشر[٢].

معارضة النضر بن الحارث

ورفض القاضى عبد الجبار أن يكون عمل النضر معارضة للقرآن . فقد قسم العرب الذين نزل القرآن بينهم إلى فئات ثلاث :

فمنهم من انقاد واستجاب .

ومنهم من بذل مجهوده فى المحاربة والمعاداة ، فكان مباشرا لذلك أو مجيبا له .

ومنهم من عدل إلى أمور لا تنفع ، مما يظن أنه كالحجة ، نحو ماروى عن النضر بن الحارث ، من تحمل المشقة بقصد فارس ، يحمل كتب الفرس ، ليعارض بها القرآن ، ويموه بذلك على الضعفاء ، لأنه كان يعلم أنه — ﷺ — لم يتحدهم بما يجوز فى أخبار رستم وغيره ، أن يكون معارضة له ، ومؤثرا فيه . وإنما كان قصده التمويه ... [٣]

وتبعه فى هذا الرفض العلوى ، لأن عمل النضر مجرد نقل لحكايات ملوك العجم ، وليس من أسلوب القرآن [٤] .

وأطلق مصطفى صادق الرافعى على هذا العمل : المخرقة [٥] . وزعم أحمد عز الدين عبد اللّه خلف اللّه ـ دون دليل ـ أن المشركين أنفسهم سخروا منه ، لما انطوت عليه

---

(١) إعجاز ١٨٤ ـ ٥ . العمارى ٢٦ ـ ٧ . أمين ١٥٠ .

(٢) المعجزة ٧٢ ـ ٣ .

(٣) المغنى ١٦ / ٢٦٨ .

(٤) الطراز ٣ / ٣٨٥ .

(٥) إعجاز ١٨٤ .

خطته من غش وخداع فى صميم ما تخصص فيه العرب من فنون القول وأساليبه[١] .

معارضة ابن الراوندى

واشتد أبو العلاء المعرى فى عيب ابن الراوندى ، فكان مما قاله فى كتابه المسمى بالتاج : وأما تاجه فلا يصلح أن يكون نعلا . وهل تاجه إلا كما قالت الكاهنة : أُفّ وتُفّ ، وجورب وخُفّ . قيل : وما جورب وخف ؟ قالت : واديان بجهنم [٢] .

وأعجب الرافعى بموقف المعرى من ابن الراوندى ، وأشاد به قائلا : ذكر المعرى كتبه فى رسالة الغفران ، ووفى الرجل حسابَه عليها ، وبصق على كتبه مقدار دلو من السجع. وناهيك من سجع المعرى الذى يلعن باللفظ قبل أن يلعن بالمعنى [٣] .

وهذا يشير إلى أن الكتاب كذب واختلاق ، وصرف لحقائق الكلام ، كما فعلت الكاهنة [٤] .

وسار د . محمد سعيد رمضان البوطى فى ركاب الرافعى ، وذهب إلى أن المعرى تناول « التاج » ومزقه بلسانه وقلمه شر ممزق [٥] .

ورأى نعيم الحمصى أن خبر العباسى ربما كان رواية وُضعت للقول بأنه حاول المعارضة فعجز ، وأنه لم يكن مخلصا يؤمن بآرائه ، بل يضمر خلاف ما يبطن [٦] .

معارضة المتنبى

عقّب الرافعى على ما نسب إلى أبى الطيب من سور ، قائلا : نحن لا نمنع أن يكون للرجل شىء من هذا ومثله ، وإن لم يكن فى طبقة شعره ، ولا وزن ما يُؤْثر عنه من فصول النثر [٧] .

ولم يكن كاتبا ، ولا بصيرا بأساليب الكتابة وصناعتها ووجوهها ، ولا هو عربى قُحّ

---

(١) القرآن ١٤٠ .

(٢) رسالة ٤٦١ - ٢ . الرافعى ١٨٩ . البوطى ١٥٨ . الحمصى ٣٣٢ . أمين ١٥١ .

(٣) إعجاز ١٨٩ . أمين ١٥١ .

(٤) إعجاز ١٩٠ . أمين ١٥١ .

(٥) من روائع ١٥٨ .

(٦) فكرة ٥٢ .

(٧) إعجاز ١٩٠ . وانظر العمارى ٤٧ . الحمصى ٥٨ .

من فصحاء البادية ، وإن كان فى حفظ اللغة ما هو . فليس يمنع سقوط ذلك الكلام الذى نُسب إليه من أن تكون نسبته صحيحة ، لأنه لو أراده فى معارضة القرآن ما جاء بأبلغ منه . وما المتنبى بأفصح عربيةً من العنسى ولا مسيلمة[١] .

واختلف معه محمود محمد شاكر الذى ضعّف روايات نبوة المتنبى وقرآنه ، وقال : أما قرآنه ـ الذى رواه أبو على بن أبى حامد ـ فهو ــ كما ترى ــ ليس بقرآن ، وإنما هو ضرب من الهذيان . والعجب أن يبايع له اللاذقى ولا يحفظ من قرآنه شيئا ثم يصفه فيقول : « ما مرّ بمسمعى أحسن منه » . ثم الأعجب أن تعم بيعته كل مدينة بالشام ــ كما قال ـ ولا يبقى من قرآنه إلا هذه الحماقة التى رووها ، يزعم أبو على بن أبى حامد أنها بقيت فى حفظه [٢] .

وعلق على العمارى على أخباره والنص الذى نسب له قائلا : سواء أصح ادعاء النبوة أم لم يصح ، فالذى يعنينا ـ هنا ـ قرآنه الذى زعموه له . وكيف نثبت قرآنا لا نرى منه إلا سورة واحدة بل بعض السورة . فلو كانت هذه آيات فى البلاغة ما أثبتت نبيا . ولا صلحت لأن توضح بإزاء القرآن ، لأنها لم تشتمل على معنى رفيع ولا تشريع قويم . وما هى إلا خطف من بعض ما جاء فى القرآن . وهى ــ بعد ذلك ــ متداعية الأسلوب ، ثقيلة الروح ، ليست فى طبقة شعر المتنبى ، ولا فى وزن ما يؤثر عنه من فصول النثر[٣] .

وليس الرأى عندى إلا أن المتنبى ، ومن قبله مسيلمة ، كانا أعقل من أن يورطا نفسيهما ، ويدعيا أنهما يجيئان بمثل القرآن .

ولو كان المتنبى عارض القرآن حقا ، وهو شاعر صناعته القول ، لحرص على أن يذيع الآثار التى أبدعها ، ولو تاب عن ادعاء النبوة . فقد كان من الممكن أن يذيعها على أنها أدب ، لا على أنها قيلت فى معارضة القرآن .

ولقد كان أعداؤه ـ حتى فى السن التى قالوا : إنه ادعى فيها النبوة ــ كثيرين . أفما كان من أكبر همهم أن ينقلوا عن الرجل ، وأن يذيعوا ما يشهد بكفره . وإن الأعداء ليتقولون فى كثير من الأحيان . فما كان أيسر عليهم أن يحفظوا هذه العبارات أو أكثرها، لتكون سيفا مصلتا على رأس الرجل الذين يسعون جاهدين فى إزهاق روحه .

---

(١) إعجاز ١٩١ . العمارى ٤٧ ، ٧٦ . أمين ١٥٢ .

(٢) المتنبى ٢١٢ .

(٣) حول ٤٦ ـ ٨ .

وإذ لم يصلنا شيء من هذا القبيل إلا هذه الكلمة التى سقناها آنفا ، فما أشك أنها موضوعة ، أو على الأقل وُصفت كذبا بأنها قيلت فى معارضته القرآن(١) .

معارضة ابن وشمكير

وعلق الرافعى على اتهام قابوس بن وشمكير بمعارضة القرآن قائلا : كأنهم يحسبون ، أن كل ما فيه أدب وحكمة وتاريخ وأخبار فتلك سبيله وما ندرى لمن كانوا يزعمون مثل هذا ؟ ! (٢) .

معارضة ابن سينا

وعقب الرافعى على ما قيل عن معارضة ابن سينا قائلا : وأين ابن سينا من طور سيناء؟ هذا رجل وهذا جبل ، ولكنها كانت عصور الجدل والمكابرة (٣) .

وأبدى نعيم الحمصى شكه فى خبر هذه المعارضة فقال : وقد اتهم بمعارضة القرآن ، ولم يصلنا ما يستأنس به من نبأ ما اتهم به (٤) .

معارضة المعرى

وتعرض الرافعى لمعارضة المعرى بالنفى ، ذاهبا إلى أن ما حكى عن كتاب « الفصول والغايات » فرية ، أراده بها عدو حاذق ، لأن الرجل أبصر بنفسه وبطبقة الكلام الذى يعارضه . وما نراه إلا أعرف الناس باضطراب أسلوبه والتواء مذهبه ، وأن البلاغة لا تكون مراغمة للغة ، واغتصابا لألفاظها . وتوطينا لغرائبها كما يصنع .

على أنه قد أثبت إعجاز القرآن فيما أنكر من رسالته على ابن الراوندى . (٥)

وعالج د . طه حسين المسألة علاجا فنيا . فتساءل : هل أراد أبو العلاء إلى معارضة القرآن فى « الفصول والغايات » كما ظن بعض القدماء ؟

وكان جوابه : نعم ولا .

نعم ، إن فهمنا من المعارضة مجرد التأثر ومحاولة المحاكاة . إن فهمنا من المعارضة أن أبا العلاء قد نظر إلى القرآن على أنه مثل أعلى فى الفن الأدبى ، فتأثره وجدّ فى تقليده ،

---

(١) حول ٤٧ ـ ٨ . (٢) إعجاز ١٨٦ . الحمصى ٦٧ . وانظر صبيح ١٢٨ .
(٣) إعجاز ١٨٥ . الحمصى ٣٨ ، ٦٧ ، ٣٣٢ . وانظر فقيهى ٧١ .
(٤) فكرة ٦٧ . وانظر ٣٨ . فقيهى ٧٢ . (٥) إعجاز ١٩١ ــ ٢ . صبيح ١٢٧ . الحمصى ٦٨ ـ ٩ . العمارى ٥٥ . إعجاز الخطيب ١ / ٤٨٦ . البوطى ١٥٧ ــ ٨ . أمين ١٥٢

كما يتأثر كل أديب بما يُعجب به من المثل الفنية العليا .

ذلك شيء لا شك فيه . فأيسر النظر فى كتاب الفصول والغايات يشعرك بأن أبا العلاء حاول أن يقلد قصار السور وطوالها . وليس المهم أنه وفق فى هذا التقليد أو لم يوفق . بل المحقق أن التوفيق لم يُقْدَر له كما لم يقدر لغيره . بل المحقق أنه لم يظفر إلا بمثل سجع الكهان . ولكن المهم أن هذه المحاولة ظاهرة ملموسة فى الكتاب . وهى لا تضير الشيخ ولا تلزمه إثما ولا حُوبا .

وأنا لا أفهم من المعارضة الاستجابة للتحدى ، ومحاولة الإتيان بسورة أو سور مثل القرآن . فهذا خاطر ما أحسبه خطر لأبى العلاء . فقد كان أشد تواضعا من أن تبلغ به الكبرياء إلى هذا الحد . وقد كان أعقل من أن يطاول ما لا سبيل إلى مطاولته . وقد كان أحرص على الاحتياط والتحفظ من أن يعرِّض نفسه لمثل هذا الخطر العظيم[١] .

وذهب محمد صبيح إلى النفى القاطع . فقد أورد بعض الاقتباسات من الكتاب ، ثم علق عليها قائلا : واضح من هذه المقتبسات أن أبا العلاء لم ينشىء لنفسه قرآنا يعارض به وحى السماء . فهو هنا مؤمن عميق الإيمان [٢] .

وخالفهم نعيم الحمصى ، حين رد على الرافعى قائلا : فالرافعى ـ كما ترى — يرفض فكرة معارضة المعرى للقرآن من أصلها ، لأنه رد على ابن الراوندى .. وليس من مانع — فى الحقيقة ـ لأن يكون المعرى فكّر فى معارضته القرآن وإمكانها فى زمن ، ورأى عدم إمكانها فى زمن آخر . فالرأى يتغير بتغير الظروف والحالات العقلية والنفسية ، والمعرى ـ فى كثير من المسائل الدينية والفلسفية ـ لا يثبت على رأى واحد ، لأنه يقف — فى أكثر الأوقات ـ منها موقف الحائر المتردد . وقد يجعل الشك سبيلا إلى اليقين [٣] .

ونفى على العمارى أن يكون كتاب المعرى قد قصد منه المعارضة . واستند فى ذلك إلى :

ـ ذكر المعرى فى مقدمه هذا الكتاب أنه ألفه فى « الزهد والعظات وتمجيد الله » . وبعيد جد بعيد أن يكون الكتاب كله شاهد صدق على هذه النية ثم نقول : إنه فى معارضة القرآن .

ـ شك عبد القاهر الجرجانى فى صحة الفرية على الكتاب ، حتى إنه عبر عن الخبر الذى وصله بالزعم ، وعلق عليه بالقول : إن كانت الحكاية صحيحة .

---

(١) مع أبى العلاء ٢٣١ ـ ٢ . (٢) بحث ١٢٧ . (٣) فكرة ٦٩ .

ـ شك الرافعى وأدلته[١] .

و لم يذكر عبد الكريم الخطيب أى كتاب للمعرى غير أنه شك فى صحة الحديث عن محاولته المعارضة . فقد أورد بعض أقواله ثم عقب عليها قائلا : إن يكن هذا من كلام أبى العلاء فلن يكون إلا عن معابثة أرادها وقعد لها . وإلا فإن أبا العلاء لا يرضى لنفسه أن تنزله إلى هذا السخف فى مقام الجد أبدا . وإنه إذا كان لأحد أن يتهم أبا العلاء فى دينه ، فإنه لا سبيل لأحد أن يتهمه فى أدبه . فإن ذوقه للكلام ، وبصره بمواقع الحسن والروعة فيه ، يحميه من أن يزلّ وينزلق فيتصدى لمعارضة القرآن ، ويلقى بنفسه فى هذا البحر ليكون من المغرقين . إن المعرى لأعقل من هذا ، وأعرف الناس بمكانة القرآن ، ومكان الناس منه . وقد عُرف عنه أنه كان دائما يزين أدبه بما يقبس من كلمات القرآن وآياته . فهل من يفعل هذا يتصدى للقرآن معارضا أو يلقاه مُنازلا ؟ !

ثم أورد وصف المعرى لإعجاز القرآن ، وعقب عليه قائلا : كفى بهذا حجرا يرمى به أبو العلاء فى فم المتخرّصين عليه ، والمتقدمين به فى معركة لم يخضها . و لم تنزع به نفسه إلى الدخول فيها أبدا [٢] .

كذلك رأى د . محمد سعيد البوطى أن أى عاقل يدرك براءة المعرى من هذا الهراء لسببين :

الأول : أن المعرى لم يكن من الجهل بالواقع والتاريخ إلى حيث يجعله يتوهم بأن الذين سجدوا لبلاغة ما سمعوه من القرآن ـ من العرب المشركين والمسلمين ـ لم يفعلوا ذلك إلا بعد أن صقلت الآيات آذانهم أربعمئة سنة .

والثانى : رده على ابن الراوندى [٣] .

معارضات الفرق الحديثة

وصف محمد رشيد رضا ـ فى تفسيره ـ الباب والبهاء والقاديانى بالدجالين المغرورين بما هذوا به من نثر ونظم وسموه وحيا . ووصف وحيهم بأنه كان سخرية للعلماء والبلغاء ، حتى اضطر البهائيون إلى إخفاء كتابهم « الأقدس » عن الناس [٤] .

---

(١) حول ٥٣ ـ ٥ . وانظر دلائل الإعجاز ٣٨٧ .
(٢) إعجاز ١ / ٤٨٥ ـ ٧ .　　(٣) من روائع ١٥٧ ـ ٨ .
(٤) التفسير ١١ / ٣٠٣ . الحمصى ٣١٩ .

وقال عنهم فى تقديمه لإعجاز الرافعى : كان من خزيهم وخذلان الله لهم ، أن اضطروا إلى كتمان الكتاب المختلق ، والإفك الملفق ، لكيلا يفتضحوا بظهوره[١] .

ووصف محمد صبيح القاديانى فى خطبته الإلهامية التى حاول فيها أن يقلد القرآن بأنه سجع فيها ، وسرق ، ولكنه انتهى إلى « إلهام » يضحك الثكلى .

وأورد بعض المقتبسات من قرآنه ، ثم علق عليها قائلا ، حسب الإنسان أن يقرأ كلاما كهذا ، لكى لا يدرك فقط أنه فقد ميزة البلاغة ، ولكن يسرع فيدرأ عن نفسه التفاهة الكريهة التى تهب عليه منه .

ولكنا — مع هذا - نرى كيف صنع القرآن بخيال هذا الرجل . وكيف حسب أنه إذا جمع ألفاظا مما استعمل القرآن ، وضم بعضها إلى بعض ، يستطيع أن يصنع قرآنا . فقوله مثلا : « وقد أوحى إلىّ من ربى — قبل أن ينزل الطاعون — أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا» يدل على مقدار تأثير النغمات والألفاظ القرآنية على ذهنه . فألفاظ « قد أوحى» و « اصنع الفلك بأعيننا » منتهبة من آيات القرآن . ولكنه ضم بعضها إلى بعض فى تركيب غير محكم ، وأضاف إليها كلمة الطاعون . ثم جلس يستنشق نفَسه طويلا ، ويقول : هذا هو قرآنى[٢] .

وأعلن محمد عبد العظيم الزرقانى أن زعماء البهائية والقاديانية خافوا وخجلوا أن يظهروا كتبهم للناس ، فأخفوها ولكن على أمل أن تتغير الظروف ، ويأتى على الناس زمان تروج فيه أمثال هذه السفاسف ، إذا ما استحرّ فيهم الجهل باللغة العربية وآدابها ، والدين الإسلامى وكتابه [٣] .

وذهب د . محمد عبد الله دراز إلى أن زعماء نحلتى القاديانية والبهائية لفقوا تلك الكتب تلفيقا ركيكا ، من آيات قرآنية ، وكلمات عامية ، ولكن أتباعهم لم يجسروا أن يذيعوها وشمس العلوم طالعة ، فأخفوها — كما يخفى السنور سلحته — إلى أن يجىء وقت يفشو فيه الجهل بالعلوم والآداب ، وتستعد فيه النفوس لقبول أمثالها [٤] .

---

(١) التفسير ٣٠٣/١١ . وانظر دراز ٨٢ .
(٢) بحث ١٣١ - ٢ .
(٣) مناهل ٢ / ٢٣١ . وانظر دراز ٨٢ .
(٤) النبأ ٨٢ .

محاولة قريش

وعقب على العمارى على خبر ابـن رشـيق فـأعلن أن هـذا النـص يعطينـا أن فصحـاء قريش طمعوا فى معارضة القرآن ، وأعدوا أنفسهم لها ، واستعانوا عليها بالأسـباب التـى توهموها مُعينة على بلوغ الغاية ، غير أن فى آخر النص ما يشككنا فـى أولـه . ذلـك أن انقطاع قريش عن هذه المحاولة لما سمعوا الآية السالفة الذكر ، يوهم أن ما سبق من آيـات القرآن على هذه الآية ، لم يكن كافيا لأن يقطع طمـع قريـش ، وأن فـى هـذه الآيـة مـن روائع البلاغة ما ليس فيما تقدم من آيات ، وهو كلام ــ فى رأيى ــ مدخول ، قُصـد بـه إلى إيهام أن نهاية الإعجاز تتحقق فى بعض الآى دون بعض .

ثم جازت هذه الخدعة على المؤلفين من أصحـاب النيـات السـليمة والإيمـان الصحيـح فرووها دون أن يتنبهوا إلى ما تحمل فى طياتها من مغزى غـير لائـق بجـلال القـرآن جملـة وتفصيلا .

ثم هل بلغ البله من قريش أن يغفلوا عن أن البيان سليقة وطبيعـة ، وأنـه لا حاجـة إلى هذه (المظاهرة) والاستعانة بلباب البروسلاف الخمر ولحوم الضأن ؟ كأن هذا الطعـام ، وهذا الشراب مما يولد فى اللسان بيانا لم يكن فيه . ولو أن قريشا أرادت معارضة القـرآن لكان لها من سلائقها وطبائعها ما يعينها على ذلك لو كان ممكنا[1] .

معارضة طليحة الأسدى

وسار على العمارى فى نقد معارضـة طليحـة علـى النهـج الـذى سـار عليـه فـى نقـد معارضة مسيلمة . فقارن بين نص المعارضة التى رواهـا الطبرى عـن سـهل بـن يوسـف والحوار الذى دار بينه وبين عمر بن الخطاب ورواه الطبرى أيضا . قـال . إن طلحـة وفـد على عمر بعد أن عاد إلى الإسلام وأبلى بلاء حسنا فى الفتوح ، فقال له عمر مستنكرا : أنت قاتل عكاشة وثابت ؟ يريد عكاشة بن محصن وثابت بن أكرم ، وكانـا مـن سـادات المسلمين وفرسانهم ، وقتلهما طليحـة فـى حـروب ردتـه . فـرد عليـه طليحـة : يـا أمـير المؤمنين ، ماتهم من رجلين : كرمهما الله بيدى ، و لم يُهنّى بأيديهما .

---

(١) حول ٢٧ ـ ٨ .

ووجد الفرق بينهما واضحا . فكلمته لعمر فيها روح أمكن بها الرجل أن يؤثر على عمر ، وهو من هو . لقد أوجز وأثّر ، وذكّر عمر بأن الرجلين ذهبا إلى الجنة فأكرمهما الله على يدى طليحة ، وأنه هو يأمل أن يدخلها ، ولو قتلاه لمات على الكفر ، بل على أقبح الكفر . وأى شىء أحب إلى عمر من أن تكون الجنة نصيب عكاشة وثابت ، وأن يسلم طليحة بعد كفرته الصلعاء ؟ !

وضعّف الرواة أيضا فأعلن أن فى نص الطبرى ما يؤكد افتعال هذه المعارضة فسهل بن يونس لا نعرف عنه شيئا ، وقد روى عن رجل مجهول ، وصدر روايته بقوله (زعم).

وتعرض للمتن أيضا فذكر أن فيه مخالفة نحوية . فالصرد مفرد ، وجمعه صردان ، وفى (صُمن) ضمير الجمع ، فكيف عاد على المفرد ؟ ثم لماذا التزم طليحة القسم بهذه الطيور الصغيرة على أمر عظيم ؟[1] .

جملة المعارضات

لم يوجه أبو جعفر محمد جرير الطبرى (٢٢٤ ـ ٣١٠ / ٨٣٩ ـ ٩٢٣) نقده إلى واحد بل عم جميع من حاول المعارضة ، وكال لهم العيوب كيلا . فقال : أقرّ جميعهم بالعجز إلا من تجاهل وتعامى ، واستكبر وتعاشى . فحاول تكلُّف ما قد علم أنه عنه عاجز .

فأبدى من ضعف عقله ما كان مستترا ، ومن عى لسانه ما كان مصونا . فأتى بما لا يعجز عنه الضعيف الأخرق ، والجاهل [2] الأحمق [3] .

ووصم الماوردى المعارضات بالنقص والسقم على الرغم من اقتصارها على صغار السور . قال : قد نُقل ما عورض به . فظهر فيه العجز ، وبان فيه النقص [4] ، حتى فضحته ركاكة لفظه [5] ، وسخافة نظمه [6] .

وقال : عدلوا بها عن طوال السور إلى قصارها [7] فأتوا بسقيم الكلام دون سليمه[8]، وبسخيفه دون جميله ، فكيف يقابل به غايته القصوى ، ويوازى به طبقته العليا ؟ وهل ذلك إلا كمن عارض فصاحة سحبان بعِىّ باقل ، أو تخليط مجنون بحزم

---

(١) حول ٣٨ ـ ٩ . (٢) جامع ١/١٠ .
(٣) جامع ١ / ١٠ . وانظر الزملكانى ٥٤ . الرافعى ٧٩ . الحمصى ٦٠ .
(٤) أعلام ٧١ . (٥) أعلام ٧١ . وانظر الإيجى ٣٥٤ . الحمصى ٢٧ . وحى الذهبى ٦٨ .
(٦) أعلام ٧١ . وانظر صبيح ١٢٤ . الحمصى ١٥ ، ٣٣١ . دراز ٨٢ . عائشة ٩١ . قرآن الخطيب ٢٠٩ . (٧) أعلام ٧٢ . (٨) أعلام ٧٢ . وانظر عائشة ٩١ .

عاقل ، أو قاس الدُّرّ بالمدر [الطين اللزج المتماسك] ، وشاكَل بين الصفو والكدر . ومن تعاطى ما ليس فى طبعه افتضح ، فخرّ صريعا ، وهوى سريعا[١] .

وقال على بن أحمد المعروف بابن حزم (٣٨٤ — ٤٥٦ / ٩٩٤ — ١٠٦٤) : فما منهم - يريد البلغاء - أحد تكلف معارضته إلا افتضح [٢] وسقط [٣] ، وصار مهزأة [٤] ، ومعيرة (وشُهرة [٥] ، ومسخرة [٦] ، وضُحْكة [٧]) يُتماجَن به وبما أتى به ، ويُتطايَب به عليه [٨] .

وهال محمد بن يوسف الجيانى المعروف بأبى حيان عليهم العيوب هيلا ، فقال : أما ما أتى به مسيلمة الكذاب فى هذره [٩] ، وأبو الطيب المتنبى فى عبره [١٠] ، ونحوهما ، فلم يقصدوا به المعارضة . إنما ادعوا أنه نزل عليهم وحى بذلك [١١] . فأتوا من ذلك باللفظ الغث ، والمعنى السخيف ، واللغة المهجَّنة ، والأسلوب الرَّذْل ، والفقرة غير المتمكنة ، والمطلع المستقبح ، والمقطع المستوهن ، بحيث لو قرن ذلك بكلامهم فى غير ما ادعوا أنه وحى كان بينهما من التفاوت فى الفصاحة ، والتباين فى البلاغة ، مالا يخفى عمن له يسير تمييز فى ذلك . فكيف الجهابذة النقاد ، والبلغاء الفصحاء ؟ فسلبهم الله فصاحتهم بادعائهم وافترائهم على الله الكذب[١٢] .

واعتمد شهاب الدين محمود بن عبد الله الآلوسى (١٢١٧ — ١٢٧٠ / ١٨٠٢ — ١٨٥٤) على أبى حيان والإيجى وقال : ما أتى به نحو مسيلمة الكذاب مما تضحك منه الثكلى ، لم يقصد به المعارضة ، وإنما ادعاه وحيا [١٣]

---

(١) أعلام ٧٢ . وانظر العمارى ٧٦ . الحمصى ١٥ ، ٤٢ .
(٢) الفصل ١ / ١٨٧ . العمارى ٧٦ . وانظر ابن تيمية ٢ / ١٥٦ .
(٣) الفصل ١ / ١٨٧ . العمارى ٧٦ . وانظر الحمصى ١٥ ، ٢٧ . عائشة ٩١ .
(٤) الفصل ١ / ١٨٧ . العمارى ٧٦ ، ٨٩ . وانظر رضا ١١ / ٣٠٣ .
(٥) الفصل ١ / ١٨٧ . العمارى ٧٦ .
(٦) الفصل ١ / ١٨٧ . العمارى ٧٦ . وانظر رضا ١١ / ٣٠٣ . الزرقانى ٢ / ٢٣٠ . إعجاز الخطيب ١ / ٤٨٢ .
(٧) الفصل ١ / ١٨٧ . العمارى ٧٦ . وانظر الإيجى ٨ / ٢٥٢ . الآلوسى ١ / ١٩٨ . الزرقانى ٢ / ٢٣٠ . البوطى ١٥٥ . أبو زهرة ٧١ . فودة ٢٣٦ .
(٨) الفصل ١ / ١٨٧ . العمارى ٧٦ .
(٩) البحر ١ / ١٠٦ . الزرقانى ٢ / ٢٣٠ . شحاتة ١٥٩ .
(١٠) البحر ١ / ١٠٦ .
(١١) البحر ١ / ١٠٦ . الآلوسى ١ / ١٩٨ .
(١٢) البحر ١ / ١٠٦ - ٧ .
(١٣) روح ١/١٩٨ .

واستضعف محمد رشيد رضا الرواة الذين نقلوا أخبار هذه المعارضات . كما استضعف المعارضات أنفسها ونعتها بأنها شيء لم تَقرّ به أعين الملاحدة والزنادقة ، فيحفظوه عنهم ويحتجوا به[١] .

ورماهم الرافعي بالجهل بأساليب العربية حين قال : من عارضه منهم — كمسيلمة — جنح في خرافاته إلى ما حسبه نظما موسيقيا أو بابا منه ، وطوى عما وراء ذلك من التصرف فى اللغة وأساليبها ومحاسنها ودقائق التركيب البيانى [٢] .

ووصف ما أتوا به بأنه قرآن معدة [٣] .

واختلف موقف محمد صبيح من حركات التنبؤ عن موقفه من النصوص التى تنسب إلى هؤلاء المتنبئين . أما الموقف الأول فكان التصديق بوقوع هذه الحركات ، ومحاولة إبانة ظروفها .

قال : لقد شغلت فكرة معارضة القرآن وتقليده أذهان معاصرى النبى . فلم يصلوا إلى شيء يقيم حجتهم . فلما قاربت حياة النبى — عليه السلام — نهايتها ، وبدأت قبائل العرب تحس وطأة القبضة الجديدة التى بُسطت عليها ، والتى أخذت تبدل معالم حياتهم، ورأت أن المقاومة المسلحة وحدها لم تكف لمنع هذا السلطان الجديد من أن يضمها تحت سيطرته ؛ فكرت فى أن تلجأ - مع السيف - إلى وسيلة أخرى ، وهى أن تنشئ لها أنبياء مثل هذا النبى الذى ظهر فى مكة . ومن هنا كانت حركة التنبؤ . وهى حركة تعتمد - قبل كل شيء - على نزعات قبلية ، وعاطفة وطنية تدفعها إلى عدم الخضوع لحكم المدينة، لتنشئ هذه الزعامات ، وتطلق عليها اسم النبوءة . وليس ما يمنع من أن تصطنع لها وحيا ، وأن ينطق هذا الوحى بقرآن .

أما النصوص فقد وافق الشاكّين فيها وقال : لا سبيل إلى الجزم بأن هذا الكلام منسوب حقيقة لمسيلمة . إذ ليس هناك ما يدعو إلى احتفاظ ذاكرة الرواة بهذا السخف قرنين من الزمان حتى بدأ عهد التدوين . وإنما هذا الكلام الذى ينسب لمسيلمة ولغيره على أنه قرآنه هو ما تخيل المتأخرون من القصاص أن أمثال هؤلاء الثائرين يستطيعون إنشاءه معارضة للقرآن وتقليدا [٤] .

(١) الرافعي م . العمارى ٣٢ .
(٢) إعجاز ٢٢٤ . الحمصى ٣٣٢ .
(٣) الحمصى ٢٧ .
(٤) بحث ١٢٣ - ٤ .

ثم بسط ملاءة الشك حتى شملت النبوءات والنصوص معا ، متابعا فى ذلك الرافعى قال : فلما تقدم العهد بالإسلام ، ودخلت الأمصار المفتوحة تحت حكم المدينة ، وذابت فى الامبراطورية الإسلامية مذاهب وعصبيات ونزعات لا أول لها ولا آخر ، ودخلت فى الإسلام عقليات جديدة غير عقلية العرب ؛ تنبه هؤلاء المسلمون الجدد إلى بلاغة القرآن ، وإلى تحديه البلغاء .

وليس هناك ما يمنع من أن يكون كثيرون قد حاولوا تقليد القرآن سرا ، إلا أننا لم نقف على شىء من هذا يصح الاطمئنان إليه . وكل ما بين أيدينا روايات عن أشخاص اتهموا بمعارضة القرآن ، منهم ابن المقفع ، ولم تعزز هذه التهمة بذكر نصوص هذا القرآن المقَلَّد[١]

وقال أيضا بعد أن تحدث عن ابن المقفع والمتنبى والمعرى : وهناك آخرون ـ غير هؤلاء الأدباء الثلاثة ـ اتهموا بمحاولة تقليد القرآن ومعارضته ، إلا أنهم لم يصلوا إلى شىء ، إن صحت الروايات عنهم . والغالب أن هذه التهم كانت تلصق بهم لتفوقهم فى أساليب الإنشاء ، وتملُّكهم نواصيها ، واعتناقهم لمذهب من المذاهب الفلسفية[٢].

ووصف محمد عبد العظيم الزرقانى هذه المعارضات بأنها مخجلة أخجلت أصحابها أمام الجماهير [٣] .

واختلف موقفه من المعارضات . فأما ما قام به الأدباء القدامى فقد حاول أن يبرره ، وأتى فى ذلك برأى غريب . قال عن ابن المقفع والمتنبى والمعرى : أكبر ظنى — وظن الكاتبين من قبلى ـ أنهم كانوا يعتقدون ـ من أعماق قلوبهم ـ بلاغة القرآن وإعجازه ، من أول الأمر . وإنما أرادوا أن يضموا دليلا جديدا إلى ما لديهم من أدلة ذاقوها بحاستهم البيانية ، من باب ﴿ ولكن ليطمئن قلبى ﴾ [٤] . وياليت شعرى ، إن لم يتذوق أمثال هؤلاء بلاغة القرآن وإعجازه فمن غيرهم ؟ ! [٥]

وأما المحدثون من أصحاب الفرق فقد كان الشك فى نواياهم يملأ عقله وقلبه ، كما رأينا فى نقده الآنف ذكره لمعارضات الفرق الحديثة .

وذهب سيد قطب إلى أن العرب لم يحاولوا المعارضة أصلا ، إلا ما قيل من محاولة

---

(١) بحث ١٢٥ . (٢) بحث ١٢٨ .

(٣) مناهل ٢ / ٢٣٠ . وانظر أبو زهرة ٧٣ . فودة ٢٣٦ .

(٤) سورة البقرة ٢٦٠ . وانظر دراز ٨٢ . (٥) مناهل ٢ / ٢٣١ . فودة ٢٣٧ ـ ٨ .

بعض المتنبئين بعد محمد ، وليس هذا من الجد فى شيء[١] . ولا يجوز أن يحسب له — فى هذا المجال - حساب [٢] .

والحقيقة الراهنة — عند نعيم الحمصى — أن أحدا لم يوفق إلى معارضته معارضة ناجحة[٣] . ومن حاول ذلك لم يستطع المجيء بمثله بيانا ، وسخّفه العلماء والأدباء [٤] ، ووجدوا أنه جاء بالمدفوع [٥] الساقط [٦] ، الذى لا يمكن أن يقاس بالقرآن فضلا عن أن يجاريه [٧] .

وإذا تأملنا هذا القرآن الذى جاء به مسيلمة والأسود العنسى وجدناه ركيكا ساقطا ، ووجدنا بعضه قرآن معدة كما يقول الرافعى [٨] . ولا ندرى أكان كل هذا القرآن كذلك أم كان فيه أجود منه ونُسى أو تُنوسى . كما لا ندرى إذا كان لهما حقيقة ، و لم يكن مفترى عليهما . فمن المحتمل أن يكون بعض المسلمين قد وضعوه للتندر والتهكم[٩]. كما وضعوا حديث اجتماع مسيلمة مع سجاح حين زواجه بها ، وما قاله من الأشعار فى حفله معها [١٠] .

وعندما حاول أن يعلل هذا القصور جاء برأى فريد قال فيه : إذا تركنا الإيمان الدينى جانبا ، وأردنا أن نعلل ذلك بالمنطق ، رأينا أن ذلك كان لضعف الشعور النفسى لدى الأدباء بالقياس إلى الشعور النفسى لدى النبى . ويدلنا على شدة هذا الشعور فى نفسه ما كان يعانيه حين هبوط الوحى على نفسه الشاعرة المتعمقة من الذهول عن الناس ، وتصبب العرق والتعب .

وإذا رجعنا إلى الاعتبار الدينى ، كان فيض هذا الشعور النفسى الدينى فى القرآن أمثل وأقوى فى أذهاننا ، سواء أكنا مع القائلين من علماء المسلمين أن معانى القرآن منزلة وأن اللفظ من النبى أم مع القائلين بأن القرآن بمعناه ولفظه وحى من الله [١١] .

ووصف د . محمد عبد الله دراز الذين حاولوا معارضة القرآن بأنهم جاءوا فى معارضته بكلام لا يشبه القرآن ، ولا يشبه كلام أنفسهم [١٢] ، بل نزلوا به إلى ضرب من السخف والتفاهة [١٣] ، بادٍ عَواره ، باق عاره وشناره [١٤] .

---

(١) التصوير ١٤ . الحمصى ٣٤٤ . (٢) التصوير ١٤ . الحمصى ٣٤٤ . وانظر العمارى ٢٨ .
(٣) فكرة ١٥ . وانظر فقيهى ٢٠ . الشاعر ١١٠ . (٤) فكرة ١٥ . إعجاز الخطيب ١٧٣ .
(٥) فكرة ١٥ . (٦) فكرة ١٥،٢٧ . (٧) فكرة ١٥ .
(٨) فكرة ٢٧ . (٩) فكرة ٢٧ ، ٤٤٨ . (١٠) فكرة ٢٧ .
(١١) فكرة ١٥ . (١٢) النبأ ٨١ .
(١٣) النبأ ٨٢ . وانظر العمارى ٢٩ . أبو زهرة ٧٢ . (١٤) النبأ ٨٢ .

وسار على العمارى فى ركاب الشاكّين فقال : أما ما ورد عن مسيلمة وأشباهه من المتنبئين ومدعى الفصاحة ، فقد رفض العلماء أن يكون ذلك داخلا فى باب المعارضة ، لأن حدها لا ينطبق عليه[١] .

وبعض العلماء تناول هذه المعارضات بالنقد والتجريح ، وبيان ما فيها من ضعف وتهافت [٢] . وهم بذلك يسلمون بورودها عن مسيلمة ومن إليه .

وقد كنت ـ وما زلت ـ أعتقد أن هذه المعارضات ـ إن صحت تسميتها ـ بذلك من افتعالات الرواة ، وتفكهات أصحاب القصص ، وأضاحيك السمار فى المجالس والمجتمعات ، وأن العرب انقطعوا عن المعارضة حقها وباطلها .

و لم أكن أعتقد أن مسيلمة أو غيره من أعراب البادية ينزل إلى هذا المستوى ويمخرق على قومه ـ وهم فصحاء بلغاء ـ بهذا الهراء [٣] . ونحن لا نعرف فيما وصل إلينا من كلام العرب فى جاهليتهم ، فى أمثالهم وحكمهم وخطبهم وأشعارهم بل ولا من أحاديثهم العادية ـ ما يشبه هذا الكلام . فكيف نعقل أن أعرابيا كمسيلمة ـ هذا الذى يقول فيه الرافعى ـ وهو عندى كذلك ـ : أفصح من المتنبى ـ كيف نعقل أنه يرسل هذا الكلام الواهى ، المقر على نفسه بالتفاهة فى معرض دعواه للنبوة [٤] .

ولسنا ندافع عن مسيلمة وأشباهه ، ولا نريد أن نبرئ ساحتهم ، بل إننا نقصد أن نبين وجه الحق ، والحق وحده هدف جميل , وليس فى إثبات هذه المعارضات ما يخدم القرآن لأنه فوق كل كلام ـ شهد بذلك أعداؤه ـ ولأنه أعجز أساطين البلاغة من العرب ومن غيرهم . فلا يزيده شرفا أن يقول بعض من يتعاطى البلاغة أو بعض المتنبئين كلاما لا يدانيه ولا يقف أمامه ، بل ينبو ـ فى بعض الأحايين ـ عن أذواق أوساط الناس [٥] .

وتناول عبد الكريم الخطيب القائلين بوجود معارضات ناجحة للقرآن ، ورأى أنهم فريقان :

١ ـ فريق لا يحسن اللغة العربية . ولا يعرف مواقع البلاغة فى أساليبهم . ومنهم معظم المستشرقين ، وقوم يحسنون العربية ولكنهم يلجّ بهم الضلال .

٢ ـ وفريق آخر لجؤوا إلى الكذب والادعاء ، فقالوا بوجود معارضات ناجحة ولكن غلبة الإسلام وسطوة سيفه ذهبتا بكل ما قيل .

---

(١) حول ٢٨ . (٢) حول ٢٨ . وانظر سلطان ١٣٤ .
(٣) حول ٢٩ . (٤) حول ٢٩ . وانظر أبو زهرة ٧٤ . (٥) حول ٣٥ .

ثم التفت إلى المعارضات نفسها فكال لها النعوت السيئة كيلا . فوصفها بأنها رقاعات ، وسخف لا يشفع له شافع من التمويه والتلبيس ، وكلام مفضوح ، عارٍ من كل ما يستر عواره ، ويدارى سوءاته ، يشعر الناظر فيه أنه كلام موضوع[١] ، أريد به السخرية والاستهزاء بمن نُسب إليهم [٢] .

وأفاض فى الحديث عن شكه فيما ينسب إلى مسيلمة من كلام وصفه بالمرذول المعطوب . ثم ختم هذا الحديث بأنه لا يقول هذا القول فى مسيلمة وحده ، بل فى كل معارضة نسبت إلى غيره [٣] .

وفعل الفعل نفسه مع المعرى ثم ختم الفصل كله بقوله : وإذ بطل ما يدّعيه المدّعون للنبى الكاذب مسيلمة ، وبطل ما يدعيه المدعون للأديب الصادق المعرى ، فقد بطل كل قول يقال فى معارضة القرآن ، من أدعياء نبوة ، أو أرباب بيان [٤]

ووصف د . محمد سعيد رمضان البوطى من عارض القرآن بأنه جاء بكلام مرذول ، سمج ، لا قيمة له [٥] ... بارد ، يسخر بعضه من بعض ، غثاء ، لا طعم فيه [٦] .

ووصفهم محمد أبو زهرة بأنهم أسفّوا فى القول [٧] ، وهبطوا فى التفكير ، وجاءوا بلغو من القول ، لا يُحتسب فى عِداد الكلام [٨] .

وأضافت د . عائشة عبد الرحمن الهذيان والهبوط والهوان ، إذ قالت وهى تعرض موقف الخطابى من المعارضات . نرى أن أبا سليمان كان فى غنى عن الاشتغال بهذيان[٩] من ادعوا النبوة ... وجاءوا بسخافات هابطة ... وهى عندنا أهون من أن توضع فى الميزان أو يُشار إليها فى مجال الاحتجاج لإعجاز القرآن من جهة البلاغة . ومجرد ذكرها فى هذا المقام الجليل ولو للكشف عن سقمها وإسفافها ، يرفع من شأنها ، ويعطيها من القيمة مالا تستحق [١٠] .

وجعل د . بكرى شيخ أمين من زعموا أنهم عارضوا القرآن فريقين :

فريق ادعى النبوة ، وجعل ما يلقيه من ذلك قرآنا كيلا تكون دعوته بلا دليل .

---

(١) القرآن ٢٠٩ .
(٢) القرآن ٢٠٩ . أبو زهرة ٧١ . فودة ٢٣٦ .
(٣) إعجاز ١ / ٤٨٤ .
(٤) إعجاز ١ / ٤٨٧ .
(٥) من روائع ١٥٢ ، ١٥٦ .
(٦) من روائع ١٥٥ .
(٧) المعجزة ٧٢ . وانظر عائشة ٩١ . الشاعر ١١٠ .
(٨) المعجزة ٧٢ - ٣ .
(٩) الإعجاز ٩١ . وانظر وحى الذهبى .
(١٠) الإعجاز ٩١ .

وفريق تعاطى معارضة القرآن صناعة ، وظن أنه قادر عليها(١) .

وذكر أن الأسود العنسى وطليحة الأسدى وسجاح التميمية والنضرين الحارث جميعا زعموا أن الوحى ينزل عليهم . ولكن كتب التاريخ والأدب لم تحفظ لنا شيئا يذكر ويُطمأن إلى صحته من مزاعمهم وكذبهم (٢) .

وذهب د . عبد الله محمود شحاتة إلى أن محاولة المعارضين باءت بالفشل وأخزتهم أمام الجماهير ، وجاءوا بسجع قلق (٣) .

وأطلق عليها أحمد عبد الحميد الشاعر اسم المعارضات الشيطانية ، قال : حاول بعض المشركين معارضة القرآن بكلام مسجوع موزون . وظنوا أنهم بذلك التطاول على القرآن ينالون منه . ولكن ماذا كانت النتيجة ؟ إنها الفشل الذريع (٤) .

ووضح د . محمود بسيونى فودة موقف إبراهيم الخليل الذى أشار إليه الزرقانى ، فذكر أن الذى عليه الجمهور سلفا وخلفا أن إبراهيم ـ وهو خليل الله ـ لم يكن عنده أى شك فى قدرة الله على البعث ، وإنما قصد من قوله هذا الاستفسار والعلم ، حتى يضيف إلى العلم الاستدلالى علم المشاهدة والعيان (٥) .

ووصف د . محمد حسين الذهبى ما ترويه لنا كتب الأدب وغيرها من معارضات بأنها ليس فيها من براعة النظم ولا من دقة المعنى شىء مطلقا ، وإنما هى هذيان كهذيان المحموم ، عار من كل شىء إلا من ركاكة النظم وفساد المعنى (٦) . ومن ثم حكم عليها بأنها كلها غثاء كغثاء السيل أمام تيار الحق الإلاهى الذى جرفها فذهبت بددا ، وضاعت سدى (٧) .

---

(١) التعبير ١٤٨ . وانظر فودة ٢٣٦ .
(٢) التعبير ١٤٩ .
(٣) علوم ١٥٧ .
(٤) القرآن ١٠٩ ـ ١١٠ .
(٥) المرشد ٢٣٨ .
(٦) الوحى ٦٨ .
(٧) الوحى ٢٢ .

تعقيب

نخرج من هذه الجولة بأن الرواة نسبوا المعارضات إلى فرق من الناس فالفريق الأول من قاوموا الدعوة فى حياة محمد ، مثل الوليد بن المغيرة والنضر بن الحارث وقريش .

والفريق الثانى من ادعوا النبوة ونزول الوحى عليهم بآيات زعموا أنها تماثل القرآن . ويتألف هذا الفريق من الأسود العنسى ، ومسيلمة الحنفى ، وطليحة الأسدى ، وسجاح التميمية ، والمتنبى ، والمحدثين من البهائيين والقاديانيين .

والفريق الثالث من عرفوا بالتفوق الأدبى وبخاصة فى النثر ، مثل ابن المقفع والمتنبى وابن وشمكير والمعرى .

والفريق الرابع من اتهموا بالزندقة مثل مخضرمى الدولتين وابن المقفع وابن الراوندى والمعرى .

والفريق الخامس بعض المتكلمين والفلاسفة مثل ابن الراوندى والأشعرى وابن سينا .

وأود ـ بادىء ذى بدء ـ أن أستبعد الوليد والنضر من الطائفة الأولى لأننى لم أجد من نسب هذا الفعل إلى الوليد غير الإيجى الذى لم يعزُ هذا الخبر إلى قائل . وأرجح أنه حمّل الفقرة التى وصف فيها الوليد القرآن مالا تحتمل ، وظن أنه لم يتفوه بها إلا بعد أن حاول معارضة القرآن مرة بعد مرة ، ولكنه لم يحصل إلا على الفشل .

أما النضر فأرى أن الوصف الذى يليق بعمله هو المواجهة وليس المعارضة ، لأنه ظن أن محمدا جذب العرب إليه بما قص عليهم من أخبار الأنبياء . فسعى إلى أن يصرفهم عنه ويجذبهم إليه هو بما أتى به من قصص الفرس ، دون أن يستهدف أن تكون قصصه معارضة فنية ـ بالمعنى المعروف ـ للقرآن .

ويجمع العلماء على ادعاء الطائفة الثانية للنبوة وتلقى الوحى ، ثم يكادون يجمعون على الشك فى صحة ما يعزى إليهم من (آيات) . بل فرّق أبو حيان ومن تابعه بين الوحى الذى ادعى بعض هؤلاء أنه تنزّل عليهم وبين المعارضة ، فأعلنوا أنهم ادعوا النبوة والوحى غير أنهم لم يدعوا تلقى قرآن . ولست أدرى علام استدلوا فى هذه التفرقة .

ويستلفت النظر منا ابن المقفع من الطائفة الثالثة . فهو الرجل الذى اتهمته السلطة الحاكمة بالزندقة ، وقتلته ـ زعمت ـ عقابا عليها . ولكن العلماء منذ القرن الرابع / الحادى عشر يبرئونه من تهمة محاولة معارضة القرآن .

كذلك يستلفت أنظارنا موقف العلماء من المعرى . فقد ذهب أكثر القدماء إلى اتهامه بمحاولة معارضة القرآن فى كتابه « الفصول والغايات » والغريب أن منهم من حرّف عنوانه ليؤيد التهمة ، مع ادعائه رؤيته عيانا .

أما المحدثون ـ وبخاصة بعد أن طبع الكتاب ـ فيرون فيه كتابا وعظيا رائعا لا تشوبه أية شائبة ، تبرر الاتهام ، بل وصل الأمر بالدكتور طه حسين إلى رأى انفرد به ، ذهب فيه إلى أن المعرى تأثر فيه بالجانب الموسيقى للقرآن ، فتبعه فيه اتباعا أدبيا بعيدا كل البعد عن إرادة المعارضة .

وأشك شكا قويا فى صحة خبر تجمع مخضرمى الدولتين الأموية والعباسية لمعارضة القرآن . حقا اتهم كثير ممن ذكرت أسماؤهم بالزندقة ، ولكنها زندقة أبى نواس أو ما عرف بالزندقة الأدبية القائمة على التحلى بالظرف والإمعان فى المجون بصوره المختلفة ، دون أن يكون وراءها جحود بالله . ومهما كان أمرهم ، فإن وضع عبد الحميد بينهم غريب ، لأن الرجل لم يتهمه أحد فى دين أو خلق .

ولا يقل عن ذلك شكى فى صحة اتهام الأشعرى وابن سينا . وأرجح أن ذلك كان من بعض خصومهما ، أو بسبب اختلافهما فى بعض الآراء مع غيرهما من العلماء ، أو بسبب اشتغالهما بعلم الكلام والفلسفة المكروهين من الناس .

وتكشف النظرة المتأنية إلى ما وجه إلى المعارضات من نقود أن القسط الأكبر والأقدم منها كان من نصيب مسيلمة ، وأن هناك عددا من الصفات لاكته كل أفواه النقاد أو الكثيرين منهم ، مثل السخف والركاكة والحمق والإسفاف وجلب السخرية ؛ وعددا انفرد به ناقد واحد ، كان منه المقبول والغريب .

وتكشف أن الناقد النحوي أبا حيان فطن إلى الفروق بين لغة بعض هؤلاء المتنبئين ولغة نصوص المعارضات المنسوبة إليهم . وتابعه جماعة من النقاد المحدثين بخاصة .

وتكشف أن محمود محمد شاكر والعمارى عنيا بنقد الأخبار بتحليل عباراتها ، وإبانة مدلولاتها التى لا تتفق مع العقل ؛ وأن محمد رشيد رضا ومحمود شاكر والعمارى عنوا بنقد أسانيد هذه الأخبار .

وأتى الزرقانى برأى غريب فى تعليل بعض المعارضات ، والحمصى فى تعليل ضعفها .

الفصل الثالث

تصور المعارضة الحقة

يتجلى مما سبق أن إنكار المعارضات التى وقعت لم يكن مجرد دفاع ساذج عن إعجاز القرآن ، وإنما كان قائما على تصور محدد لما يجب أن تكون عليه المعارضة الحقة .

وأول من أشار إلى هذا التصور هو الجاحظ فى عبارة قصيرة ومبهمة ، قال فيها : إنما المعارضة مثل الموازنة والمكايلة . فمتى قابلونا بأخبار فى وزن أخبارنا ومخرجها ومجيئها ، فقد عارضونا ووازنونا وقابلونا ، وقد تكافأنا وتدافعنا[1] .

ورفض أبو هاشم عبد السلام بن محمد الجبائى (٢٤٧ — ٣٢١ / ٨٦١ — ٩٣٣) أن يكون الاحتذاء معارضة ، ومثل لذلك برفو نسيج الديباج . وأيد رأيه بأن الرفع والوضع قد يصح ممن لا يعرف كيفية النساجة ، فلا يعتد بذلك . وإنما يعتد بما يفعله العالم بكيفيته، لأنه يعلم ما الذى يظهر من النسج ، إذا ضم على طريقة من الصور المختلفة ، وما الذى لا يظهر ذلك منه ، وما الذى يظهر على طريق الاستقامة ، وما الذى يظهر منه على خلافه . والفضل يظهر فى ذاك ، لا فى الرفع والوضع الواقعين على طريقة الحكاية[2] .

ورفض الرمانى أن يكون مجرد تغيير كلمات الفواصل لإحداث سجع آخر معارضة . وأورد رأيه هذا على شكل سؤال وجواب ، على النحو التالى :

فإن قال قائل : لعل السور القصار ممكنة للناس ؟

قيل له : لا يجوز ذلك ، من قبل أن التحدى قد وقع بها ، فظهر العجز عنها ، فى قوله تعالى : ﴿ قل : فأتوا بسورة من مثله ﴾ فلم يخص بذلك الطوال دون القصار . فإن قال : فإنه يمكن ـ فى القصار ــ أن تغير الفواصل ، فيجعل بدل كل كلمة ما يقوم مقامها. فهل يكون ذلك معارضة ؟

قيل له : لا . من قبل أن المُفْحَم يمكنه فى قوافى الشعر مثل ذلك ، وإن كان لا يمكنه أن ينشىء بيتا واحدا ، ولا يفصل ـ بطبعه ـ بين مكسور وموزون . فلو أن مفحما رام أن يجعل بدل قوافى قصيدة رؤبة :

وقاتم الأعماق خاوى المخترقْ

---

(١) رسائل ٣ / ٢٥١ . سلطان ٦٠ .

(٢) المغنى ١٦ / ٢٢٣ .

مشـــتبه الأعـــلام لمـــــاع الخَفـــقْ
يكـلُّ وفـد الريـح مـن حيـث انخـرق

فجعل بدل المخترق (الممتزَق) . وبدل الخفق (الشفق) ، وبدل انخـرق (انطلـق) لأمكنه ذلك . ولكن لم يجب به قول الشعر ولا معارضة رؤبة فى هذه القصيدة عند أحـد له أدنى معرفة . فكذلك سبيل من غيّر الفواصل ، وزعم أنه قـد عـارض . وهـذا واضـح بيّن لا يخفى على متأمل(١) .

وأفاض الخطابى فى الحديث عن المعارضة ، وجعلها أنواعا كما يلى :

سبيل من عارض صاحبه ـ فى خطبة أو شعر ـ أن ينشىء له كلامـا جديـدا ، ويحـدث له معنى بديعا ، فيجاريه فى لفظه ، ويباريه فى معنـاه ، ليـوازن بـين الكلامـين . فيُحكـم بالفلج [الفوز] لمن أبرَّ [زاد] على صاحبه . وليس بأن يتخيف من أطرافه كلام خصمه فينسف منه ، ثم يبدل كلمة مكان كلمة ، فيصل بعضه ببعض وصل ترقيع وتلفيـق . ثـم يزعم أنه واقفه موقف المعارضين (٢) .

وإنما المعارضة على أحد وجوه :

١ ـ منها أن يتبارى الرجلان فى شعر أو خطبة أو محـاورة . فيـأتى كـل واحـد منهمـا بأمر محدث ، من وصف ما تنازعاه ، يوازى بذلك صاحبه أو يزيد عليه . فيفصل الحَكـم ـ عند ذلك ـ بينهما بما يوجبه النظر من التساوى والتفاضل ، نحو ما تنازعه امـرؤ القيـس وعلقمة بن عبدة من وصف الفرس فى قصيدتيهما المشهورتين . (٣)

٢ ـ وقد يتنازع الشاعران معنى واحدا . فـيرتقى أحدهمـا إلى ذروتـه ، ويقصّـر شـأو الآخر عن مساواته فى درجته ، كالأعشى والأخطل حين انتزعا فى وصـف الخمـر علـى معنى واحد . فكان لأحدهما العلو ، والآخر السفل (٤) .

٣ ـ وأعجب من هذه المعارضات وأبلغ منه فى مذاهب المقـابلات والمناقضـات ، بنـاء الشىء وهدمه ، وتشييده ثم وضعه ونقضه ، كما فعل حسان بن ثابت حين ذم الخمر ثم أطراها (٥) .

---

(١) النكت ١٠٣ ـ ٤ . الإتقان ٢ / ٣٤٧ . فقيهى ١٥٢ ـ ٣ .
(٢) بيان ٥٣ . العمارى ٢٦ . اتجاهات مطلوب ١٣٤ .
(٣) بيان ٥٣ ـ ٨ . اتجاهات مطلوب ١٣٤ .
(٤) بيان ٥٨ ـ ٩ . اتجاهات مطلوب ١٣٧ .
(٥) بيان ٥٩ ـ ٦٠ . اتجاهات مطلوب ١٣٨ .

٤ - وهاهنا وجه آخر يدخل فى هذا الباب ، وليس بمحض المعارضة ، ولكنه نوع من الموازنة بين المعارضة والمقابلة . وهو أن يجرى كل واحد من الشاعرين فى واد من أودية الكلام ، مثل أبى دؤاد الإيادى والنابغة الجعدى فى وصف الخيل ، والأعشى والأخطل فى نعت الخمر ، والشماخ فى وصف الحُمُر ، وذى الرمة فى صفة الأطلال والدِّمَن والبرارى والقفار . فإن كل واحد منهم وصّاف لما يُضاف إليه من أنواع الأمور . فيقال: فلان أشعر فى بابه ومذهبه من فلان فى طريقته التى يذهبها فى شعره[١] .

وسار عبد الجبار على خطى أستاذه الجبائى وأعلن بأن الاحتذاء أو الحكاية لا مُعتَبر بهما فى هذا الباب . ويُنظَر فيما ابتدأه كل واحد منهما : هل يكون المتحدَّى متساويا فى قدر فصاحته للمتحدِّى أو مقصرا عنه . فإنما المعتبر - فى ذلك — بقدره فى الفصاحة التى هى صفة الكلام المبتدأ ، حتى إن أحد الكلامين لا يمنع أن يكون فى وصف الخيل ، والآخر فى وصف النوق . وقد يجوز أن يكون أحدهما فى وصف ما للآخر وصفٌ فيه ، بطريقة أخرى من الكلام . وهذا متعالَم عند من يتحدى بالكلام ويعرف الطريقة فيه باضطرار[٢].

وأيد رأيه بأن المبتدئ بالكلام متصرف فيما يأتى به ، ويتمكن من ذلك بعلوم مخصوصة تتناهَى ، فيصح التحدى به على هذا الوجه ، فتعلم عنده المزية والمساواة . وليس كذلك الحكاية ، لأنها ليست بتصرف فى الكلام ، وإنما تقتضى أداء المحفوظ . وقد يصح ذلك ممن لا يفهم اللغة ولا المعانى ، كما يصح ممن يفهمهما . والفرق بين الأمرين واضح[٣].

فعبد الجبار شارح لرأى أستاذه ، ومستفيد من تصنيف الخطابى .

وتأثر عبد الجبار برأى الرمانى فرفض أن يكون مجرد تغيير كلمة بكلمة معارضة . فذكر أن بعض الخصوم تعلقوا بأن الفصيح يمكنه أن يأتى بلفظة مكان كل لفظة من الكلام الفصيح فى الشعر وغيره ، وقالوا : كيف يصح — إذن — أن تقولوا : إن ذلك متعذر ؟

---

(١) بيان ٦٠ . اتجاهات مطلوب ١٣٨ -٩ .
(٢) المغنى ١٦ / ٢٢٢ .
(٣) المغنى ١٦ / ٢٢٣ . وانظر الطوسى ٥ / ٤٥٧ .

وأجاب عبد الجبار بأن هذا القول ظاهر السقوط . وذلك لأن هذه الطريقة تقارب الحكاية . فكما أن حكاية الكلام لا تدل على المعرفة ، فكذلك وضع لفظة بدل أخرى.. ووزنهما واحد - لا يدل على المعرفة . وإن كان من يتمكن فى هذا الباب لا بد من أن يكون له قدر من العلم بالألفاظ ، التى تتفق معانيها ، وتختلف أوزانها ، حتى يمكنه أن يأتى - بدل واحدة منها - بما يماثلها ويقاربها . لكن هذا القدر من العلم لا يكفى فى المعارضة ، لأنها تحتاج إلى قدر مخصوص من العلم زائد على ذلك ، حتى يمكنه أن يورد هذا القدر من الفصاحة[١] .

واتفق الطوسى مع عبد الجبار فى رفض الحكاية ، لأنها لا يقع بها تحد . ورأى أن التحدى فيما هو متعارف بينهم فى تحدى بعضهم بعضا ، كمناقضات امرىء القيس وعلقمة ، وعمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة ، وغيرهم ، أى فى علو الطبقة فى البلاغة، ويتحقق ذلك بالإتيان بما يماثل القرآن على حد يُشكل على السامعين ما بينهما من التفاوت [٢] .

ونستنبط من كلام عبد القاهر الجرجانى أن المعارضة - عنده - هى الإتيان بما يوازى الشيء المعارَض فى الشرف أو يدانيه أو يقع قريبا منه [٣] .

وتبع يحيى بن حمزة العلوى رأى الطوسى فروى أن النظار من أهل الفصاحة والبلاغة مجمعون على أن المعارضة بين الكلامين إنما تكون معارضة ، إذا كان بينهما مقاربة ومداناة ، بحيث يتلبس أحدهما بالآخر ، أو يكون أحدهما مقاربا للآخر[٤] ...فأما إذا كان الكلامان فى غاية البعد والانقطاع ، فلا يُعد أحدهما معارضا للآخر[٥] .

وذكر مصطفى صادق الرافعى أن سبيل المعارضة الممكنة التى يُطمع فيها أن يكون لصاحبها جهة من جهات الكلام لم تؤخذ عليه ، وفن من فنون المعنى لم يُستوفَ قبله ، وباب من أبواب الصنعة لم يُصفَق من دونه ، وأن تكون وجوه البيان له مُعرِضة ، يأخذ فى هذا ويَعْدل عن ذلك ، حتى يستطيع أن يعارض الحسنة بالحسنة ، ويضع الكلمة بإزاء الكلمة ، ويقابل الجملة بالجملة . ثم يصير الأمر — بعد ذلك — إلى مقدار التأثير الذى يكون لكلامه ، وإلى مبلغه فى نفوس القوم ، من تأثير الكلام الذى يعارضه .

---

(١) المغنى ١٦ / ٢٣٠ .　　(٢) التبيان ٥ / ٤٥٧ ، ٦ / ٥١٧ .
(٣) دلائل ٣٨ ، ٦٠٦ . وانظر العمارى ٢٦ ، ٧٧ .
(٤) الطراز ٣ / ٣٨٤ - ٥ .　　(٥) الطراز ٣ / ٣٨٥ .

ومذهب الحيلة على التأثير مذهب واسع ، لا يضيق بالبلغاء كلهم ، إذا هم تكافؤوا فى الصناعة والبصر بأسبابها ، لأن كل واحد منهم ينتحى بكلامه جهة من جهات النفس، ويأخذ فى سبيل من طباعها وعاداتها . وهو - لابد - واجد فى كلام غيره موضع فترة من الطبع أو غفلة من النفس ، أو أثرا من الاستكراه ، يبعث عليه باعث من أمور كثيرة تعترى البلغاء فى صناعتهم . فيضطرب لها بعض كلامهم ، ويضعف بعض معانيهم ، ويقع التفاوت فى الأسلوب الواحد ضعفا وقوة . فإذا هو أصاب ذلك ، فعسى أن يقابله من نفسه بطبع قوى ، ونفس مجتمعة ، ووزن راجح ، أو شىء من أشباهها ، فيكون قد ظفر بمدخل يسلك منه إلى المعارضة ، ويُظهر به فضل كلام على كلام ، ومقدار طبع من طبع ، وقوة نفس من نفس . ولولا ذلك - وأنه من طباع البلغاء ، ومما لا يسلم منه ذو طبع - لما أمكن أن يتناقض شاعران ، أو يتساجل راجزان ، أو يتراسل كاتبان ، أو يتقارض خطيبان ، أو يواجه كلام كلاما فى معرض المقابلة أو يرجح به فى ميزان المعادلة(١) .

وكشف محمد عبد العظيم الزرقانى عن جوانب المعارضة فى قوله : هل المعارضة إلا الإتيان بمثل الأصل فى لغته وأسلوبه ومعانيه أو بأرقى منه فى ذلك ؟ (٢)

وتعرض د . محمد عبد الله دراز لتصوره للمعارضة فى موضعين ، ذكر فى أولهما أنها أن تعمد إلى معنى من المعانى فتؤديه نفسه بأسلوب آخر يوازى الأصل فى بلاغته أو يزيد(٣) .

ويبدو أنه عدل - فى الموضع الثانى - عن هذا التصور إلى آخر يختلف عنه قال : إننا - حين نتحدى الناس بالقرآن - لا نطالبهم أن يجيئونا بنفس صورته الكلامية . كلا ، ذلك مالا نطمع فيه ، ولا ندعو المعارضين إليه . وإنما نطلب كلاما أيا كان نمطُه ومنهاجه ، على النحو الذى يحسنه المتكلم ، أيا كانت فطرته ومزاجه ، بحيث إذا قيس مع القرآن بمقياس الفضيلة البيانية ، حاذاه أو قاربه فى ذلك المقياس ، وإن كان على غير صورته الخاصة (٤) .

---

(١) إعجاز ٢٠٤ - ٨ . خلف ١٤١ .

(٢) مناهل ٢ / ٢٣٠ . وأتى به شحاتة ١٥٩ دون عزو . (٣) النبأ ٨٢ .

(٤) النبأ ٩٥ . الحمصى ٣٧٥ . وانظر البوطى ١٥٩ . الحمصى ٤١١ .

(٥) حول ٢٨ .

وأجمل على العمارى القضية كلها فقال : أما ما ورد عن مسيلمة وأشباهه من المتنبئين ومدَّعِى الفصاحة ، فقد رفض العلماء أن يكون ذلك داخلا فى باب المعارضة ، لأن حدها لا ينطبق عليه (٥) .

تعقيـــب

تبين لنا هذه الجولة أن صورة المعارضة لم تكن واحدة عند الأدباء ، و لم تبق واحدة على مر العصور . فقد رآها الزرقانى فى الإتيان بالمقارب أو المماثل . وسبقه الطوسى والعلوى إلى هذا الرأى غير أنهما اشترطا أن يصل التشابه إلى درجة الالتباس بين الكلامين. ورآها الرافعى فى النفاذ من مواطن الضعف أو الفتور فى النص الأول . واختلف دراز فرآها فى إبداع كل أديب فيما يحسنه من أغراض ، شريطة أن يصل ما أبدعوه إلى درجة متساوية من البلاغة .

أما الخطابى فقد خلط بين عمليتى الإبداع والنقد ، أو المعارضة والموازنة ، كما خلط بين المعارضة ومدح الأديب الواحد للشيء وذمه . مما يكشف أن الصورة لم تكن تامة الوضوح فى ذهنه . ولكنه انفرد بالتنبه إلى أن المعارضة قد تقع فى عمل أدبى كامل ، وتقع فى معنى واحد من معانى هذا العمل .

وأعطانا أبو هاشم وعبد الجبار الرأى الذى التزمه علماء المسلمين وحكموا — على أساسه — على من احتذى نهج القرآن فى تعبيره بالسرقة والسلب وما ماثلهما من صفات.

المصادر والمراجع

الآلوسي ، شهاب الدين محمود بن عبد الله (١٢١٧ ـــ ١٢٧٠ / ١٨٠٢ ـــ ١٨٥٤) : روح المعاني ، في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ـــ بيروت ـ دار الفكر ـــ ١٣٩٨ / ١٩٧٨ .

ابن تيمية ، أحمد بن عبد الحليم (٦٦١ ـ ٧٢٨ / ١٢٦٣ ـ ١٣٢٨) : التفسير الكبير ـــ لبنان ـ بيروت ـ دار الكتب العلمية ـ ط ١ ـ ١٤٠٨ / ١٩٨٨ .

ابن جزى ، أبو القاسم محمد بن أحمد (٦٩٣ ـــ ٧٤١ / ١٢٩٤ ـــ ١٣٤٠) : التسهيل لعلوم التنزيل مصر ـ دار الكتب الحديثة .

ابن الجوزى ، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن على (٥٠٨ ـــ ٥٩٧ / ١١١٤ ـــ ١٢٠١) : زاد المسير في علم التفسير ـ المكتب الإسلامي للطباعة والنشر .

: صيد الخاطر ـ دار الكتب الحديثة بمصر ومكتبة المثنى ببغداد ـ د . ت .

: المنتظم في تاريخ الأمم والملوك ـ الهند ـــ حيدر آباد الدكن ـــ مطبعة دائرة المعارف العثمانية ـ ط ١ ـ ١٣٥٩ هـ .

ابن حزم ، أبو محمد على بن أحمد (٣٨٤ ـ ٤٥٦ / ٩٩٤ ـ ١٠٦٤) : الفصل في الملل والأهواء والنحل ـ المملكة العربية السعودية ـ شركة مكتبات عكاظ للنشر والتوزيع ـــ ط ١ ـ ١٤٠٢ .

ابن رشيق القيرواني ، الحسن (٣٩٠ ـ ٤٦٣ / ١٠٠٠ ـ ١٠٧١) : العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ـ لبنان ـ بيروت ـ دار الجيل للنشر والتوزيع والطباعة . ط٤ ـ ١٩٧٢ .

ابن سنان الخفاجي : أبو محمد عبد الله بن محمد (٤٢٣ ـ ٤٦٦ / ١٠٣٢ ـــ ١٠٧٣) : سر الفصاحة ـ مصر ـ المطبعة الرحمانية ـ ط١ ـ ١٣٥٠ / ١٩٣٢ .

ابن عبد ربه ، أبو عمر أحمد بن محمد (٢٤٦ ـ ٣٢٨ / ٨٦٠ ـــ ٩٤٠) : العقد الفريد القاهرة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ ١٣٧٥ / ١٣٥٦ .

ابن عطية الأندلسي ، أبو محمد عبد الحق (٤٨١ ـــ ٥٤٢ / ١٠٨٨ ـــ ١١٤٨) : المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ـ الدوحة ـ ط١ ـ المحرم ١٣٩٨ ديسمبر ١٩٧٧ .

ابن كثير عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر (٧٠١ ـــ ٧٧٤ / ١٣٠٢ ـــ ١٣٧٣) : البداية والنهاية ـط ٤ ـ بيروت ـ مكتبة المعارف ـ ١٤٠٢ / ١٩٨٢ .

تفسيره ـ لبنان ـ بيروت ـ دار المعرفة ـ ١٤٠٥ / ١٩٨٤ .

ابن كمال باشا ، شمس الدين أحمد بن سليمان (٩٤٠ / ١٥٣٤) : رسائله — تركيا — مطبعة إقدام - ١٣١٦ .

ابن مسعود ، عبد الله (٣٢ / ٦٥٣) : تفسيره - شركة الطباعة العربية السعودية — ط١ - ١٤٠٥ / ١٩٨٥ .

ابن النقيب جمال الدين أبو عبد الله محمد بن سليمان البلخى (٦١١ — ٦٩٨ / ١٢١٤ — ١٢٩٨) : مقدمة تفسير ابن التقيب فى علم البيان والمعانى والبديع وإعجاز القرآن — مصر — مطبعة الخانجى - ط ١ - ١٤١٥ / ١٩٩٥ .

ابن هشام المعافرى ، أبو محمد عبد الملك (٢١٣ / ٨٢٨) : السيرة النبوية - مصر - مطبعة مصطفى البالى الحلبى وأولاده - ١٣٥٥ / ١٩٣٦ .

أبو حمدة ، محمد على : من أساليب البيان فى القرآن الكريم — الأردن — عمان — جمعية عمال المطابع التعاونية - ط ١ — ١٣٩٨ / ١٩٧٨ .

أبو حيان الأندلسى ، محمد بن يوسف (٦٥٤ — ٧٤٥ / ١٢٥٦ — ١٣٤٤) : البحر المحيط — المملكة العربية السعودية — الرياض — مكتبة ومطابع النصر الحديثة .

أبو الخشب ، إبراهيم على : القرآن الكريم : دراسة — دار الفكر العربى — د.ت .

أبو زهرة ، محمد : المعجزة الكبرى القرآن — دار الفكر العربى — ١٩٧٧ .

أبو السعود ، محمد بن محمد (٨٩٨ — ٩٨٢ / ١٤٩٣ — ١٥٧٤) : إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم — مصر — دار الطباعة المصرية — ١٢٧٥ هـ .

أبو سليمان ، صابر حسن محمد : مورد الظمآن فى علوم القرآن — مصر - الدار السلفية — ط ١ — ١٤٠٤ / ١٩٨٤ .

أبو على ، د . محمد بركات حمدى : فى إعجاز القرآن الكريم — مؤسسة الخافقين ومكتبتها محمد مفيد عزة الخيمى - ط ١ - ١٤٠٣ / ١٩٨٣ .

أبو فرحة ، د . الحسينى : مأدبة الله : دراسات فى علوم القرآن — القاهرة — الفاروق الحديثة للطباعة والنشر — ط ٣ — ١٤٠٤ / ١٩٨٤ .

أبو موسى ، د . محمد محمد : الإعجاز البلاغى : دراسة تحليلية لتراث أهل العلم — مصر — مطابع المختار الإسلامى — ط ١ - المحرم ١٤٠٥ - سبتمبر ١٩٨٤ .

أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكرى (بعد ٣٩٥/ ١٠٠٥) الصناعتين الكتابة والشعر .

الأسدآبادى ، عبد الجبار بن أحمد (٤١٥ / ١٠٢٥) : المغنى فى أبواب التوحيد والعدل — مصر — مطبعة دار الكتب — ط ١ - شعبان ١٣٨٠ / ديسمبر ١٩٦٠ .

الأصفهانى ، أبو الفرج على بن الحسين الأموى (٢٨٤ — ٣٥٦ / ٨٩٧ — ٩٦٧) : الأغانى ـ مصر ـ مطبعة دار الكتب .

أمين ، د . بكرى شيخ : التعبير الفنى فى القرآن ـ دار الشروق ـ ط٢ ـ ١٣٩٦/١٩٧٦ .

الإيجى ، عبد الرحمن بن أحمد (٧٥٦ / ١٣٥٥) : المواقف فى علم الكلام — عالم الكتب بيروت ومكتبة المتنبى بالقاهرة ومكتبة سعد الدين بدمشق .

الباخرزى ، على بن الحسن (٤٦٧ / ١٠٧٥) : دمية القصر وعصرة أهل العصر — حلب — ١٣٤٩ .

الباقلانى ، أبو بكر محمد بن الطيب (٣٣٨ — ٤٠٣ / ٩٥٠ — ١٠١٣) : إعجاز القرآن — مصر — دار المعارف ـ ط٣ ـ ١٩٧٢ .

البغوى ، أبو محمد الحسين بن مسعود (٤٣٦ ـ ٥١٠ / ١٠٤٤ ـ ١١١٧) : معالم التنزيل — الرياض — دار طيبة للنشر والتوزيع .

بن نبى ، مالك (١٣٢٣ ـ ١٣٩٣ / ١٩٠٥ ـ ١٩٧٣) : الظاهرة القرآنية — ترجمة عبد الصبور شاهين ـ الاتحاد الإسلامى العالمى للمنظمات الطلابية ـ ١٣٩٨ / ١٩٧٨ .

البوطى ، د . محمد سعيد رمضان : من روائع القرآن : تأملات علمية وأدبية فى كتاب الله عزوجل ـ مكتبة الفارابى ـ ط٣ ـ شعبان ١٣٩٢ أيلول ١٩٧٢ .

البيضاوى ، ناصر الدين أبو الخير عبد الله بن عمر الشيرازى (٦٨٥ / ١٢٨٦) : أنوار التنزيل وأسرار التأويل ـ مصر ـ المطبعة الميمنية ـ جمادى الأولى ١٣٢٠ .

التنوخى ، أبو القاسم على بن المحسن (٣٥٥ ـ ٤٤٧ / ٩٦٦ ـ ١٠٥٥) : نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة ـ بيروت ـ دار صادر ـ ١٣٩٣ / ١٩٧٣ .

الثعالبى ، عبد الملك بن محمد (٣٥٠ — ٤٢٩ / ٩٦١ — ١٠٣٨) : ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب ـ مصر ـ دار المعارف ـ ١٩٨٥ .

الجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر (١٦٣ ـ ٢٥٥ / ٧٨٠ ـ ٨٦٩) : الحيوان — مصر — مطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده ـ ط٢ ـ ١٩٧٠ .

: رسائله ـ القاهرة ـ المطبعة العربية الحديثة ـ ط١ ـ ١٤١١ / ١٩٩١ .

الجرجانى ، عبد القاهر بن عبد الرحمن (٤٧١ / ١٠٧٨) : دلائل الإعجاز — مصر — مطبعة المدنى ١٩٨٤ .

: الرسالة الشافية فى وجوه الإعجاز ـ مصر ـ مطبعة المدنى ـ ١٩٨٤ .

الجلالان ، جلال الدين محمد بن أحمد المحلى (٧٩١ - ٨٦٤ / ١٣٨٩ - ١٤٥٩) وجلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر السيوطى (٨٤٩ - ٩١١ / ١٤٤٥ - ١٥٠٥) : التفسير - دار الكتاب اللبنانى - ط١ - ١٤٠٣ / ١٩٨٣ .

الجندى، عبد الحليم : القرآن والمنهج العلمى المعاصر - مصر - دار المعارف - ١٤٠٤ /١٩٨٤ .

الجندى ، على : صور البديع - فن الأسجاع - مصر - مطبعة الاعتماد .

حسين ، د . طه : مع أبى العلاء فى سجنه - مصر - دار المعارف - ١٩٦٢ .

الحمصى ، نعيم : فكرة إعجاز القرآن - بيروت - مؤسسة الرسالة - ط٢ - ١٤٠٠ / ١٩٨٠ .

الحموى ، ياقوت بن عبد الله (٥٧٤ - ٦٢٦ / ١١٧٨ - ١٢٢٩) :معجم البلدان - طهران - ١٩٦٥ - مصورة عن مطبوع ليبزج ١٨٦٦ .

حويش ، د . عمر الملا : تطور دراسات إعجاز القرآن وأثرها فى البلاغة العربية - العراق مطبعة الأمة - ١٣٩٢ / ١٩٧٢ .

الخطابى ، حمد بن محمد (٣١٩ - ٣٨٨ / ٩٣١ - ٩٩٨) / بيان إعجاز القرآن - فى ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن - مصر - دار المعارف - د . ت .

الخطيب البغدادى ، أحمد بن على (٣٩٢ - ٤٦٣ / ١٠٠٢ - ١٠٧٢) : تاريخ بغداد - مصر - مطبعة السعادة - ١٣٤٩ / ١٩٣١ .

الخطيب ، عبد الكريم : إعجاز القرآن - مصر - مطابع دار الكتاب العربى - ط١ - رمضان ١٣٨٣ - فبراير ١٩٦٤ .

خلف الله ، أحمد عز الدين عبد الله : القرآن يتحدى - مصر - مطبعة السعادة - ط١ - ١٣٩٧ / ١٩٧٧ .

الخياط : أبو الحسين عبد الرحيم بن محمد (نحو ٣٠٠ / ٩١٤) : الانتصار ، والرد على ابن الروندى الملحد ما قصد به من الكذب على المسلمين والطعن عليهم - بيروت - المطبعة الكاثوليكية - ١٩٥٧ .

الدباغ ، مصطفى : وجوه من الإعجاز القرآنى - الأردن - عمان - مطابع الدستور التجارية .

دراز ، د . محمد عبد الله : النبأ العظيم : نظرات جديدة فى القرآن - الكويت - دار القلم - ط٣ - ١٣٩٤ / ١٩٧٤ .

دوح ، حسن : حوار مع الشباب حول القرآن - مصر - دار النصر للطباعة الإسلامية - ١٩٨٦ .

الذهبى ، شمس الدين محمد بن أحمد (٦٧٣ ـ ٧٤٨ / ١٢٧٤ ـ ١٣٤٨) : تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام ـ لبنان ـ بيروت ـ دار الكتاب العربى ـ ط١ ـ ١٤١٤ / ١٩٩٤ .

الذهبى ، د . محمد حسين : الوحى والقرآن الكريم ـ مصر ـ مكتبة وهبة ـ ط١ ـ ١٤٠٦ / ١٩٨٦ .

الرازى ، فخر الدين أبو عبد الله محمد بن عمر (٥٤٤ ـ ٦٠٦ / ١١٥٠ ـ ١٢١٠) : التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب ـ بيروت ـ دار إحياء التراث العربى ـ ط٣ .

: نهاية الإيجاز فى دراية الإعجاز ـ بيروت ـ دار العلم للملايين ـ ط١ ـ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٨٥ .

الراغب الأصفهانى ، الحسين بن محمد (٥٠٢ / ١١٠٨) : المفردات فى غريب القرآن ـ لبنان ـ بيروت ـ دار المعرفة ـ د . ت .

الرافعى ، مصطفى صادق (١٢٩٨ ـ ١٣٥٦ / ١٨٨١ ـ ١٩٣٧) : إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ـ مطبعة الاستقامة ـ ط٤ ـ ١٣٥٩ / ١٩٤٠ .

رضا ، محمد رشيد (١٢٨٢ ـ ١٣٥٤ / ١٨٦٥ ـ ١٩٣٥) : تفسير القرآن الحكيم ـ مصر الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ ١٩٧٢ .

الرمانى ، على بن عيسى (٢٩٦ ـ ٣٨٤ / ٩٠٨ ـ ٩٩٤) : النكت فى إعجاز القرآن ـ فى ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن ـ مصر ـ دار المعارف ـ د . ت .

الرومى ، د . فهد بن عبد الرحمن : خصائص القرآن الكريم ـ ط٤ . شوال ١٤٠٩ .

الزرقانى ، محمد عبد العظيم (١٣٦٧ / ١٩٤٨) : مناهل العرفان فى علوم القرآن ـ دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبى وشركاه ـ د . ت .

الزركشى ، بدر الدين محمد بن عبد الله (٧٤٥ ـ ٧٩٤ / ١٣٤٤ ـ ١٣٩٢) : البرهان فى علوم القرآن ـ دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبى وشركاه ـ ط١ ـ ١٣٧٦ / ١٩٥٧ .

الزمخشرى ، جار الله أبو القاسم محمود بن عمر (٤٦٧ ـ ٥٣٨ / ١٠٧٥ ـ ١١٤٤) : الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل ـ دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ـ ط١ ـ ١٣٩٧ / ١٩٧٧ .

الزملكانى ، كمال الدين عبد الواحد بن عبد الكريم (٦٥١ / ١٢٥٣) : البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن ـ بغداد ـ مطبعة العانى ـ ط١ ـ ١٣٩٤ / ١٩٧٤ .

السلامى ، عمر : الإعجاز الفنى فى القرآن ـ تونس ـ مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله ـ ١٩٨٠ .

سلطان ، د . منير : إعجاز القرآن بين المعتزلة والأشاعرة ـ الإسكندرية ـ مركز الدلتا للطباعة ـ ١٩٨٦ .

السيوطى ، عبد الرحمن بن أبى بكر (٨٤٩ ـ ٩١١ / ١٤٤٥ ـ ١٥٠٥) : الإتقان فى علوم القرآن ـ مكتبة المعارف بالرياض ودار إحياء العلوم ببيروت ـ ط١ ـ ١٤٠٧ / ١٩٨٧ .

: معترك الأقران فى إعجاز القرآن ـ مصر ـ دار الثقافة العربية للطباعة ـ ١٩٦٩ .

الشاعر ، د . أحمد عبد الحميد : القرآن الكريم فى مواجهة الماديين الملحدين ـ الكويت ـ دار القلم ط٢ ـ ١٤٠٢ / ١٩٨٢ .

شاكر ، محمود محمد : المتنبى ـ مصر ـ مطبعة المدنى ـ ١٤٠٧ / ١٩٨٧ : مقدمة لكتاب ابن نبى .

شحاتة ، د . عبد الله محمود : علوم التفسير ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ سلسلة المكتبية الثقافية ـ العدد ٣١٦ لسنة ١٩٧٥ .

الشربينى ، محمد بن أحمد الخطيب (٩٧٧ / ١٥٧٠) : السراج المنير فى الإعانة على معرفة بعض معانى كلام ربنا الحكيم الخبير ـ مصر ـ المطبعة الخيرية ـ ١٣١١ هـ .

الشريف الجرجانى ، على بن محمد (٧٤٠ ـ ٨١٦ / ١٣٤٠ ـ ١٤١٣) : شرح المواقف للإيجى ـ مصر ـ مطبعة السعادة ـ ١٣٢٥ / ١٩٠٧ .

الشوكانى ، محمد بن على (١١٧٣ ـ ١٢٥٠ / ١٧٦٠ ـ ١٨٣٤) : فتح القدير الجامع بين فنى الرواية والدراية من علم التفسير ـ جدة ـ دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع ـ ط١ ـ ١٤١٥ / ١٩٩٤ .

الصابونى ، محمد على : التبيان فى علوم القرآن ـ مكتبة الغزالى بدمشق ومؤسسة مناهل العرفان ببيروت ـ ط٢ ـ ١٤٠١ / ١٩٨١ .

الصالح ، د . صبحى : مباحث فى علوم القرآن ـ بيروت ـ دار العلم للملايين ـ ط٨ ـ كانون الثانى (يناير) ١٩٧٤ .

الصاوى الجوينى ، د . مصطفى : منهج الزمخشرى فى تفسير القرآن وبيان إعجازه ـ مصر ـ دار المعارف .

الصباغ ، محمد . لمحات فى علوم القرآن واتجاهات التفسير ـ بيروت ـ المكتب الإسلامى ـ ١٣٩٤ / ١٩٧٤ .

صبيح ، محمد : بحث جديد عن القرآن ـ القاهرة ـ ط٥ ـ ١٩٦١/١/٢٢ .

صقر ، السيد أحمد : مقدمة لإعجاز القرآن للباقلانى .

الصواف ، محمد محمود : القرآن : أنواره ، آثاره ، أوصافه ، فضائله ، خصائصه ، تفسيره، ختمه ـ بيروت ـ مؤسسة الرسالة ـ ط٣ ـ ١٤٠٢ / ١٩٨٢ .

ضيف ، د . شوقي : البلاغة : تطور وتاريخ ـ مصر ـ دار المعارف ـ ١٩٦٥ .

طبارة ، عفيف عبد الفتاح : روح الدين الإسلامي ـ لبنان ـ بيروت ـ دار العلم للملايين — ط١١ .

الطبرسي ، الفضل بن الحسن (٥٤٨ / ١١٥٣) : مجمع البيان لعلوم القرآن — صيدا — مطبعة العرفان — ١٣٣٣ .

الطبري ، محمد بن جرير (٢٢٤ ـ ٣١٠ / ٨٣٩ ـ ٩٢٣) : تاريخ الرسل والملوك ـ مصر ـ دار المعارف ١٩٦٢ .

: جامع البيان عن تأويل القرآن ـ مصر ـ دار المعارف ـ ط٢ ـ ١٩٦٩ .

طلبة ، حسين فؤاد : القرآن كتاب الله الخالد — سلسلة دراسات في الإسلام يصدرها المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ـ العدد ٢٢٢ ـ السنة ١٨ ـ مطابع الأهرام التجارية ـ ١٥ من رمضان ١٣٩٩ ـ ٨ من أغسطس ١٩٧٩ .

الطوسي ، أبو جعفر محمد بن الحسن (٣٨٥ — ٤٦٠ / ٩٩٥ — ١٠٦٧) : التبيان — النجف الأشرف — مطبعة النعمان .

د . عائشة عبد الرحمن : الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق ـ ط٢ — مصر — دار المعارف ـ ١٩٧١ .

العاني ، عبد القهار داود : دراسات في علوم القرآن ـ بغداد — مطبعة المعارف — ط١ — ١٩٧٢ .

العباسي ، عبد الرحيم بن عبد الرحمن (٨٦٧ — ٩٦٣ / ١٤٦٣ — ١٥٥٦) : معاهد التنصيص على شواهد التلخيص — مصر — دار الطباعة — ١٢٧٤ .

عبد الجبار بن أحمد = الأسدي آبادي .

عبد الحميد ـ محسن : الآلوسي مفسرا ـ بغداد ـ مطبعة المعارف ـ ١٣٨٨ /١٩٦٩ .

عبده ، محمد : (١٢٦٦ ـ ١٣٢٣ / ١٨٤٩ — ١٩٠٥) : رسالة التوحيد — مصر — دار المعارف — ١٩٦٦ .

عتر ، د . حسن ضياء الدين : بينات المعجزة الخالدة ـ سورية ـ حلب ـ دار النهضة ـ ط١ ـ ١٣٩٥ / ١٩٧٥ .

عرجون ، محمد الصادق : القرآن العظيم : هدايته وإعجازه في أقوال المفسرين ـ دار الاتحاد العربي للطباعة ـ ١٣٨٦ / ١٩٦٦ .

عطا ، عبد القادر أحمد عطا : دراسة مع أسرار الكرمانى .
: عظمة القرآن ـ لبنان ـ بيروت ـ دار الكتب العلمية ـ فبراير ١٩٨٤ . وهو الدراسة السابقة نفسها .
العطار ، داود : موجز علوم القرآن ـ ط٢ ـ ١٣٩٩ / ١٩٧٩ .
العلوى ، يحيى بن حمزة (٦٦٩ ـ ٧٤٥ / ١٢٧٠ ـ ١٣٤٤) : الطراز المتضمن لأسرارالبلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ـ لبنان ـ بيروت ـ دار الكتب العلمية ـ د . ت .
عليان ، د . رشدى وقحطان عبد الرحمن الدورى وكاظم فتحي الراوى : علوم القرآن ـ العراق ـ مطابع مؤسسة دار الكتب للطباعة والنشر ـ ١٩٨٠ .
العمارى ، على : حول إعجاز القرآن ـ سلسلة الثقافة الإسلامية ـ العدد ٤٤ ـ القاهرة ـ دار الثقافة العربية للطباعة ـ جمادى الآخرة ١٣٨٣ ـ نوفمبر ١٩٦٣ .
العمرانى ، عبد الحى : هذا القرآن ـ المغرب ـ المحمدية ـ مطابع فضالة ـ ١٤٠٣ / ١٩٨٣ .
عياض = اليحصبى .
الفراء ، يحيى بن زياد (١٤٤ ـ ٢٠٧ / ٧٦١ ـ ٨٢٢) : معانى القرآن ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ ١٩٨٠ .
فقيهى ، محمد حنيف : نظرية إعجاز القرآن عند عبد القاهر الجرجانى عن كتابيه أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز ـ ط١ ـ ١٤٠١ / ١٩٨١ .
فودة ، د . محمود بسيونى : المرشد الوافى فى علوم القرآن ـ مصر ـ مطبعة الأمانة ـ ١٤٠٢ / ١٩٨٢ .
الفيروز آبادى ، مجد الدين محمد بن يعقوب الشيرازى (٧٢٩ ـ ٨١٧ / ١٣٢٩ ـ ١٤١٥) : تنوير المقباس من تفسير ابن عباس ـ ط٢ ـ مصر ـ المطبعة الآزهرية ـ ١٣٤٤ هـ .
القاسمى ، محمد جمال الدين (١٢٨٣ ـ ١٣٣٢ / ١٨٦٦ ـ ١٩١٤) : محاسن التأويل ـ بيروت ـ دار الفكر ـ ط٢ ـ ١٣٩٨ / ١٩٧٨ .
القرطبى ، أبو عبد الله محمد بن أحمد (٦٧١ / ١٢٧٣) : الجامع لأحكام القرآن ـ مصر ـ دار الكتب .
قطب ، سيد (١٣٢٤ ـ ١٣٨٧ / ١٩٠٦ ـ ١٩٦٦) : التصوير الفنى فى القرآن ـ ط٨ ـ مصر ـ دار المعارف ـ ١٩٧٥ .
: فى ظلال القرآن ـ دار الشروق ـ ط١٢ ـ ١٤٠٦ / ١٩٨٦ .
القطان ، مناع خليل : مباحث فى علوم القرآن ـ الرياض ـ مكتبة المعارف للنشر والتوزيع ط١ ـ ١٤١٣ / ١٩٩٢ .

قمحاوى ، محمد الصادق : الإيجاز والبيان فى علوم القرآن ـ القاهرة ـ مكتبة عالم الفكـر ـ ١٩٨٠ .

: شبهات مزعومة حول القرآن الكريم وردها ـ ط١ ـ ١٣٨٩ / ١٩٧٨ .

الكرمانى ، تاج القراء محمود بن حمزة : أسرار التكرار فى القـرآن ـ القـاهرة ـ دار العلـوم للطباعة ـ ط٣ ـ ١٣٩٨ / ١٩٧٨ .

كفافى ، د . محمد عبد السلام وعبد الله الشريف : فى علوم القرآن دراسات ومحاضرات ـ لبنان ـ بيروت ـ دار النهضة العربية للطباعة والنشر ـ ١٩٨١ .

الكومى ، د . سامى عبد العزيز : الإعجاز القرآنى فـى مجـال الإعـلام ـ القـاهرة ـ مطبعـة السعادة ـ ط١ ـ ١٤١١ / ١٩٩٠ .

لاشين ، د . عبد الفتاح : بلاغة القرآن فى آثار القاضى عبـد الجبـار وأثـره فـى الدراسـات البلاغية ـ مطبعة دار القرآن ـ ١٩٧٨

لاشين : موسى شاهين : اللآلىء الحسان فى علوم القرآن ـ مصر ـ دار التأليف ـ ١٣٨٨ / ١٩٦٨ .

لجنة التعريف بآثار أبى العلاء : تعريف القدماء بأبى العلاء ـ القاهرة ـ الدار القومية للطباعة والنشر ـ ١٣٨٥ / ١٩٦٥ ـ مصور عن طبعة دار الكتب ١٣٦٣ / ١٩٤٤ .

الماوردى ، على بن محمـد (٣٦٤ ـ ٤٥٠ / ٩٧٤ ـ ١٠٥٨) : أعـلام النبـوة ـ لبنـان ـ بيروت ـ دار الكتب العلمية ـ ط١ ـ ١٣٩٣ / ١٩٧٣ .

المراغى ، أحمد مصطفى : تفسـيره ـ ط ١ ـ مصـر ـ مصطفـى البـابى الحلبـى وأولاده ـ ١٣٦٥ / ١٩٤٦ .

مطلوب ، د . أحمد : اتجاهات النقد الأدبى فى القرن الرابع للهجرة ـ الكويت ـ نشر وكالة المطبوعات ـ ط١ ـ ١٣٩٣ / ١٩٧٣ .

: عبد القاهر الجرجانى : بلاغته ونقده ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٣٩٣ / ١٩٧٣ .

المعرى ، أبو العلاء أحمد بن عبد الله (٣٦٣ ـ ٤٤٩ / ٩٧٣ ـ ١٠٥٧) : رسالة الغفران. ـ ط ٢ ـ مصر ـ دار المعارف ـ ١٩٥٠ .

نيازى ، عبد الكريم عبد الله : القرآن الكريم : معجزة وتشـريع ـ مطبوعـات نـادى مكـة الثقافى الأدبى ـ ط٢ ـ ١٤١٢ .

ياقوت = الحموى .

اليحصبى ، عياض بن موسى (٤٧٦ ـ ٥٤٤ / ١٠٨٣ ـ ١١٤٩) : الشفاء ـ دمشق ـ دار الوفاء للطباعة والنشر ـ د . ت .

المحتويات

دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه

رقم الإيداع : ١٠٤٤٨ / ٩٩
الترقيم الدولى : 2 - 1306 - 11 - 977